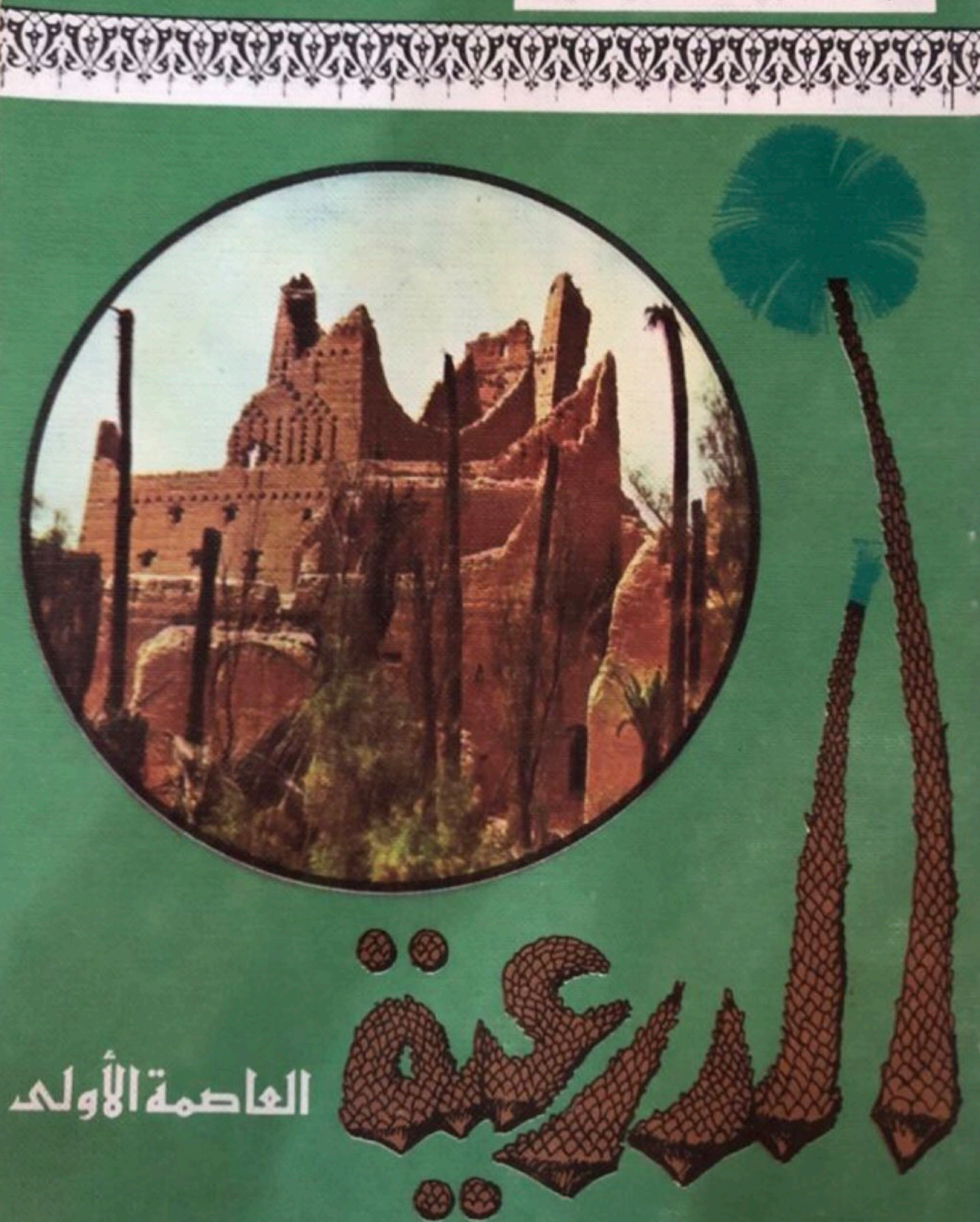
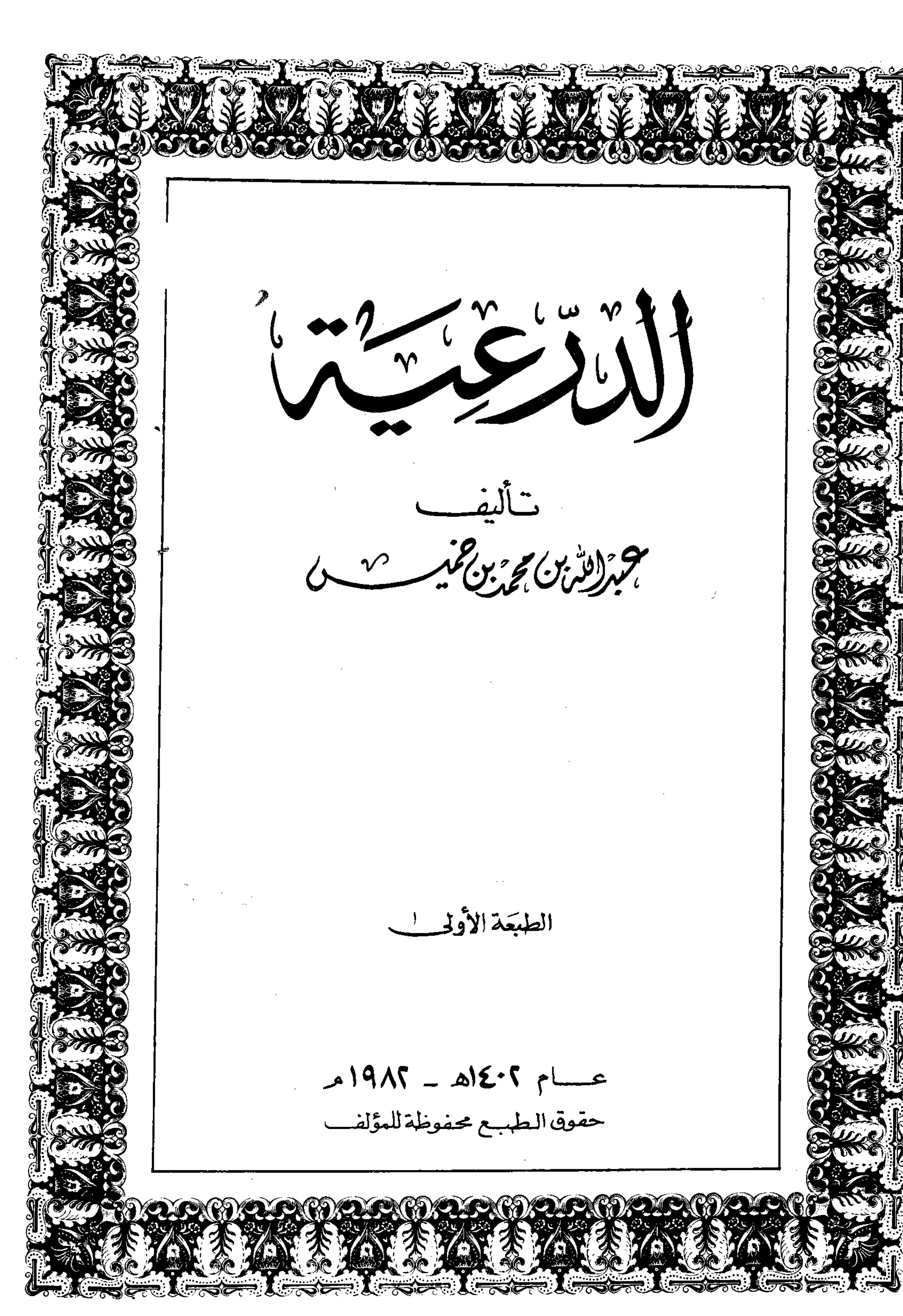
عبد الله بن محمد بن خميس





الدرعية

تأليف

عبد الله بن محمد بن خميس

الطبعة الأولى

عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



مقـــدمة

في هذا الحيز من (وادي حنيفة) فوق (مدينة الرياض) وتحت مدينة (العيينة) وما بين (المليبيد) جنوبا إلى (غصيبة) شمالا .. وفي حوالي منتصف القرن التاسع الهجري .. بدأ تاريخ (الدرعية) حيث قدم (مانع المريدي) من (الدرعية) جنوب غرب القطيف هو وأسرته إلى ابن عمهم ابن درع صاحب (حجر) و (الجزعة) فاقطعهم مكان الدرعية اليوم فسميت باسمها أما نقلا للاسم الأول إلى المسمى الثاني .. وإما نسبة إليهم بحكم انهم من الدروع .. وتدرجت في النمو والعمران حتى عام (١١١٩ هـ) حيث تحول واقعها وتطور وضعها وتهيأت لمستقبل رشحها لحكم الجزيرة ، وأهلها لنفوذ ما كانت تحلم به ومستقبل ما كانت تفكر فيه .

كانت الدرعية قرية شأنها شأن قري نجد يسودها الجهل ويعمها التأخر وتحكمها الفوضى فوقها بلدة (العيينة) وتحتها بلدة (الرياض) شأنهما كشأن (الدرعية) تأخرا وجهلا وانحطاطا .. وكان يحكمها آل سعود ، حكمها منهم ستة عشر وال من سنة (٨٥٠ هـ) إلى سنة (١١٣٩ هـ) ما عدا (١٤) سنة انتقل الحكم منهم وبعدها عاد إليهم .

ولم يكن الحكم في الدرعية آنذاك حكما ثابتا قويا بل كان مهزوزا مترنحا ضعيفا ..

ولم تكن الحياة العلمية باحسن حالا من الجوانب الأخري في المدة التي سبقت عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما عدا بعض العلماءَ المتخصصين في مذهب الامام أحمد بن حنبل .. كما أَن سلطة الحسبة تكاد تكون مفقودة وغيرة العلماءَ لا أَثر لها في ردع أَصحاب البدع والخرافات والدجل واتخاذ الأَولياءَ والأَشجار والأَحجار اندادا من دون الله ..

في هذا المحيط المهزوز وفي هذه الحياة القلقة كان القدر يهيءُ لها وضعا جديدا ويحول لها مستقبلا باسما .. كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتنقل بدعوته ما بين حريملاءَ إلى العيينة تارة وما بين الحجاز والعراق والأَحساءَ تارة أَخري وكانت دعوته لم تأَخذ دورها الكبير وكانت صلته بابن معمر في بدءِ أَمره صلة مقبولة وعند تطور الدعوة وبروزها على ساحة العمل وبدءِ تغيير معالم الشرك وسنن الحياة الجاهلة المبتدعة بدأَ التنكر يبرز ضد هذه الدعوة وبدأَ اعداؤَها يتأَلفون ويتكتلون وبدأَت الصلاة العدائية والمكاتبات تتصل ما بين حرمة وحريملاءَ والرياض والخرج والأَحساءَ فثارت ثائرة ابن عريعر واشتد

استنكاره وصلفه فكتب لابن معمر يستنكر قبوله لهذه الدعوة وتبنيه لها ويتوعده أَن هو مضى في احتضانه لها أَن يقطع خراجه وأَن يستهدف عداوته ..

وتحت هذا الضغط الداخلي في العيينة وما جاورها والخارجي من قبل ابن عريعر انقلب الوضع بالنسبة لابن معمر وبدأ يتلون ويتنكر لمبدئه الأَول .. وأَخيرا صارح الشيخ بما عنده وطلب إليه مغادرة العيينة .. فغادرها إلى الدرعية وهنالك حصل اللقاءَ بينه وبين محمد بن سعود وحصل العهد وتم الاتفاق على أَساس (الدم بالدم والهدم بالهدم) وبدأَت الدعوة عهدا جديدا واستقبلت عمرا مديدا وتحولت الدرعية إلى انقلاب في فكرها وعلمها وواقعها في زمن يسير .. وأَصبحت دار هجرة ومركز علم وعمل وظلت تتفاعل مع عهدها الجديد وحياتها الجادة العاملة .. وبدأَت تصدر دعوتها إلى جيرانها فناصبها الرياض العداءَ وكان من أَقوي جيرانها واشدهم شراسة فحاربها سبعا وعشرين سنة حربا لا هوادة فيها وكانت العيينة معها على سلم مزغول ودخن ، سافر تارة ومستتر تارة أَخري وامتد العداءَ إلى حريملاءَ وإلى حرمة وإلى الخرج وإلى ما بين ذلك من عداءٍ لا يهدأَ وحرب لا تخبو .. وتم في النهاية الانتصار على الجميع وخضعت عناصر الفتنة وانخذل موقدوها ..

ولم تكن لتهدأَ هذه حتى بدأَت على مستوى أكبر وعداءَ اكثر فالأحساءَ تنمرت وتحفزت لحرب الدرعية والعراق أَخذ على نفسه عداءَها وحربها والحجاز حمل العداءَ وقلب ظهر المجن وسفر عن وجه حاقد وشعور متقد .. ومع كل هؤلاءَ حصلت حروب ومناوشات لا تهدأَ .. هذا والدرعية سائرة في طريقها جادة في مسيرتها متطورة في عمرانها مزدهرة في تجارتها متقلبة في نموها حافلة بالعلم والعلماءَ قوية الشكيمة مرهوبة الجانب تسود ما بين العراق وأَطراف الشام شمالا إلى اليمن جنوبا وما بين البحرين الأَحمر والخليج العربي غربا وشرقا كلها لقيت حالة أَمن ورخاءَ وتقدم واطمئنان ..

وما أَن فشلت محاولات الأَعداءَ وباءَت بالخسران والهزائم في حروبها مع الدرعية ولم يبق معها حيلة أَو وسيلة في محاربتها حتى لجأَت إلى الباب العالي إحدى قوى العالم الكبري آنذاك والمسيطرة على جل البلدان العربية وجزءاً كبيراً من بلدان العالم فاستعدوها على الدرعية وكثرت أَقاويلهم وأَحابيلهم ضدها وفتلوا لها في الذروة والغارب حتى انتدبت لحرب الدرعية وجهزت من تخشى انتفاضته ضدها بحكم تبؤوه عرش مصروهيمنته عليها وقوة شخصيته فرأَت أَن ترميه بحرب الدرعية لتضرب عصفورين بحجر رأَت أَن ترشح لهذه المهمة الخطيرة محمد علي

فكان ذلك وكان أن رمى بثقل مصر مع ثقل الدولة العثمانية لمحاربة الدرعية فجهز الجيوش تلو الجيوش والقوافل تلو القوافل وأصبح همه كله التجهيز ودفع المؤن والذخائر والقوى المختلفة التى لا عهد للجزيرة بها .. وغزا ضعاف النفوس من أهلها بالمال والرشى والاغراء .. ورغم مالاقاه من هزائم وما تعرض له من صد ودحر إلا أنه وقد غزا الدرعية بجنود لا قبل لها به من جيوش وذخائر واعتدة وأموال .. ولم يكن أمامه إلا قوى محدودة وسلاح بدائي وأعراب يميلون مع الأطماع ويتلونون مع المال وأصحاب النفوذ والغلبة .. من أجل ذلك هزمت الدرعية وهدمت وحرقت ومثل باهلها وقتلوا صبرا واجلي من اجلي عنها وفعل بها من المنكرات ما لم يفعله هولاكو ولا جنكيزخان واضرابهما .. كأنها لم تكن بلاداً اسلامية وكأن أهلها لم يكونوا ذوي غيرة على الدين والعرض والشرف وكأنها لم تكن قاعدة حضارة في قلب جزيرة العرب وكأنها لم تكن ردئا دون الإسلام والمسلمين في هذا الصقع من العالم .. أفرغوا فيها حقدهم وصبوا عليها غضبهم وتناهى عملهم فيها إلى مالا يتصوره متصورولا يتهور به متهور ..ولقد باءوا بغضب الله وعقابه وانقلبوا خاسئين خائبين وطواهم الهلاك والبوار وبقيت الدعوة تهزأ منهم ومن عملهم وتسمو على كل ظالم وباغ ومعاند

بقيت تتجدد في ظهورها وعزها وفخرها وبقيت الدرعية شاهد عدل على جور الطغاة وظلم الظالمين وهاهي ذي تتهيأ لمستقبل مشرق وحياة مثلى وعزوفخر وسمو .. تلك هي قصة الدرعية موجزة جدا وهذا هو فعل الظالمين بها وهذا الكتاب يحكي الخبر ويصف المعالم والأثر ويقف بالقاريء على ماضيها وولاتها وأحوالها ويعبر عن وصفها مزدهرة مزدانة متفوقة متطورة ويحكي وضعها يعيث بها الأعداء ويحرقونها ويهدمونها ويتركونها حمما بالية خالية ..

ولعل من العبرة والمثل أن يستعرض القاريء هذه الأحداث ويتدبر هذه الأوضاع ويقف منها على ما هو حري بالعظة والعبرة وتصريف الأحوال وتقدير الأمور ..

ثم لعل فيما حالت إليه حال الدرعية وانقلب إليه وضعها وبدلت بنعيمها بؤسا وبعزها ذلة وبازدهارها خرابا يبابا .. ما يعطينا بان حالا لا تدوم ونعيما لا يستمر وقوة لا تبقى وهذه سنة الله في خلقه وتدبيره في عباده ..

ثم إن المباديء والدعوات الصحيحة المثلى لا تبلى ببلاء الديار ولا تفنى بفنائها وانما تخبوا لظروف طارئة وتضمر لأحوال عارضة ثم تعود أقوى ما تكون وتبرز أظهر مما كانت .

وبعد ففي قلب جزيرة العرب وفي متوسط التكوين منها ..
قامت مدينة الدرعية قاعدة حضارية وعاصمة عربية إسلامية سليمة المعتقد بريئة الاتجاه طيبة العنصر .. بسطت نفوذها على جل الجزيرة العربية وحولت واقعها المرير وما تعيشه من قلق واضطراب إلى وحدة ذات كيان واحد وهدف واحد وعقيدة واحدة وراية واحدة .. فسلط عليها أعداء الدين والعروبة وعناصر السوءَ والفساد واذناب الجهلة والأغرار فاستباحوها وتركوها حطاما .. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسأَلون عما كانوا يعملون .

عبد الله بن محمد بن خميس

مقـــدمة

بقلم الأستاذ

حسن فتح البـــاب

هذا كتاب الدرعية . والإنسان والأرض هما موضوعه ومادته . فتاريخ مدينة من المدائن لا يعدو أن يكون رصدا لنشأتها وتطورها بأيدي أهليها أو فاتحيها ، وسجلا يصور رقعتها ومعالمها التى شكلتها عوامل الطبيعة ويد الإنسان معا ، ويواكب مسيرة الزمان فيها شروقا وغروبا ، وما صنع بأقوامها الذين أنشأوها أو نزحوا إليها وأقاموا على ترابها ، أو الذين أغاروا عليها ، وأثر أولئك وهؤلاء جميعا في تلك المسيرة الطويلة مدا وجزرا .

ولما كانت الدرعية نموذجا للمدن التى ثبتت على مدار الزمن ، واستطاعت أن تبقى رغم صراع الأحداث ، فهى الآن تجتاز مرحلة ازدهار حضاري روحى في القرن العشرين ، فإن منهج هذا الكتاب يتناول الماضى فيصاحب الأمس البعيد في محاولة للبحث عما قد يكون هنالك من حلقات مفقودة ، ليقيم جسرا بين ما كان والذي هو كائن ، ثم يتطلع إلى رسم صورة للمستقبل من منظور تلك الحلقات بعد أن تتكامل فيستوي بها البحث الموضوعى وتستقيم جادة الطريق .

والكتاب بذلك ليس مجرد صفحات من السرد التاريخي المدعم بالوثائق والأسانيد ، ولا هو شبه معرض ثابت من الصور ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون شريطا سينمائيا عن حياة مدينة خالدة قوامها المادة العلمية . فهو بمثابة إطار يضم خلاصة الدراسة التي أسفر عنها البحث القائم على الاطلاع والمشاهدة وإعمال الفكر استقراءً واستنباطا من طريق التعمق والتمحيص والمراجعة . أو هو بمثابة وعاء لهذه الدراسة ، أو قل إنه أشبه بصورة اكتملت ملامحها التفصيلية ملمحا بعد ملمح ،وتلاحمت أجزاؤها المتناثرة حتى برزت كيانا مجسدا للناظرين ، خافقا متألقا متدفقا بماء الحياة وظلها وألوانها .

وقد حاولنا ما وسعنا الجهد أن نقيم الميزان بالعدل بين شقي الموضوع الذي يصنف له الكتاب وهما الأرض والإنسان ، حتى لا يطغى جانب على آخر ، واضعين في إعتبارنا أنه لا يمكن الفصل التام بينهما بالنظر إلى وحدتهما العضوية . فليس تاريخ الأرض إلا تاريخ أهلها ، وليس تاريخ الإنسان إلا تاريخ أرضه ، وما الحضارة إلا ثمرة لقائهما وحصيلة تفاعلهما . فالعلاقة بين هذين العنصرين علاقة حميمة تقوم على التأثر والتأثير والترابط والتكامل . ومن ثم تغدو معالجة كل منهما بمعزل عن الآخر أمرا مجافيا للحقيقة التي هي عماد البحث ورائد الباحث ،

وهكذا تدخل مثل هذه المحاولة ـ بافتراض إمكانها ـ في باب التعسف ، فضلا عن مناهضتها للمنطق ومخالفتها لوقائع الأُمور مما يخرج بها عن المنهج العلمى الصحيح . ونظرا لأَن أَغراض البحث العلمى تقتضينا تصنيف موضوعات هذا الكتاب ، فلم يكن ثمة مندوحه لنا عن أَن نتناول ما يتعلق منها بالمكان أو الموقع في جزءَ قائم بذاته ، ثم نتبعه بما يتعلق من هذه الموضوعات بمسار الأَحداث حيث يبرز دور الإنسان وهو القادة والشعب والعدو ، دون محاولة متعسفة لمنع التداخل بين هاتين الطائفتين من الموضوعات .

ولقد كانت وراءَ هذا العمل العلمى عدة مقاصد دعت إلى تـأْليفه وحفزت إلى بذل الجهود في سبيل إتمامه . فالدرعية مدينة عامرة في الجزيرة يستوطنها أَبناؤُها . وما أَجدر كل عاشق لوطنه أَن يعرف تاريخ من يهوي إليه قلبه ، بل ما أَحب ذلك إليه . والعربي بطبعه وفيٌّ أَلُوف . فلا غرو أَن يقول شاعر أَعرابي قديم :

وكنا أَلفناها ولم تك مأْلفا
وقد يؤلف الشيءُ الذي ليس بالحسن
كما تؤلف الأَرض التى لم يطب بها
هواء ولا ماء ولكنها وطن

والدرعية وطن يطيب فيه الماءُ ويطيب الهواءُ ، فكيف لا نكلف نحن أَبناءَها إنفسنا مشقة التنقيب في آثارها واستنطاق أَحجارها ، وأَننا بهذا العناء لفرحون . وان هذه القيم الروحية التى ننعم بها اليوم لميراث من أَسلافنا الصالحين ومنهم رجال رجال الدرعية في العصر الإِسلامى ، فمآربنا منها ونوازعنا إِليها ، فما أَجمل تذكارها :

ولى وطن آليت ألا أَبيعه
وأَلا أَري غيري له الدهر مالكا
وحبب أَوطان الرجال إِليهمُ
مآرب قضاها الشباب هنالكا
إِذا ذكروا أَوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد أَلفته النفس حتى كأَنه
لها جسد إِن بان غودر هالكا

وإِذا كانت عروبتنا تهيب بنا على لسان شاعرها القديم قائلة :

ساعد بأَرض أَن كنت فيها .

فإِن الوطن أَولى بعون أَبنائه . وليس أَجل من نشر العلم بتاريخ

الوطن سبيلا إلى هذا العون مهما عظمت شواغل الواقع ، وزادت أَعباءَ الحاضر ،أَو بهرتنا أَضواءُ المدن والحواضر الجديدة فأَغرتنا بالتفرغ إليها طامحة في المزيد من العمران والتشييد والتمجيد :

وطنى لــو شغلت بالخــلد عنه

نازعتنى إليــه في الخــلد نفسى

والدرعية مدينة عريقة بإنسانها عراقتها بأَرضها . فكل حجر في بنيانها يمثل رمزا حيا لحقبة خصبة من الزمن . كما يحكى كل طلل باق عليها ملحمة من النضال عبر تداول الأَيام بين النعمى والبؤسى . ولقد كانت قاعدة لإقليم شاسع موفور الموارد من المياه والزروع والنخيل تحميه حصون مشيدة وجنود أَولو بأَس وإيمان . وقد أَرسيت فيها أَصول للحكم كما تفجرت ينابيع من الحكمة ، فكانت منار حضارة ومنبع هداية . ونحن إذ نحيى تاريخها الثري إنما نحيى بذلك تراثنا التاريخى والحضاري ، ذلك الإحياءَ الذي يكشف عن شخصيتنا ، ويؤكد عراقتنا ، ويدفعنا إلى المضى قدما بخطوات واثقة على الطريق ، لا ننظر إلى الخلف إلا لكى نستلهم الرؤية ، ونلتمس القدوة ، ونستمد العبرة ، ونستبين الغاية ، ونصل بين أَمسنا ويومنا .

فليس الوفاءُ للأَسلاف وحده هو الذي حدا بنا إلى إخراج تاريخ الدرعية من بطون الكتب ونقوش الآثار ، لأَن الوفاءَ

العربي في غنى عن تقديم الدليل ، فهو شيمة لنا وطبيعة ركزت فينا وهبة من الله أَودعها خلقنا فسرت فينا مسرى الروح في الأَوصال . أَو لسنا الذين أَنجبنا للانسانية الفاضلة أَبا العلاء المعري القائل بلساننا والمترجم عن وجداننا :

وقبيح بنا وإِن قدم العهد هوان الآباءِ والأَجداد

بل حدا بنا إلى إخراج هذا الكتاب القصد إلى إظهار تاريخ الدرعية على الناس ولا سيما أَبناءَنا من الجيل الناشيء ، ليعرفوا مواطن مجدهم وتجارب آبائهم الأَوائل وكفاح أَئمتهم في سبيل الحق والأَرض والإِنسان ، فيحفزهم ذلك إلى أَن يواصلوا مسيرتهم باسم الله علما وعملا :

نبنى كما كانت أَوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وليقدروا مواقع أَقدامهم قبل خطوهم ، ويستبينوا الأَمر في يومهم قبل أَن يفاجئهم به ضحى الغد .

ويجدر بنا أَن نشير إلى أَن انعطافنا إلى التعمق في استقصاء تاريخ الدرعية ، إذ نقدمه في هذا الكتاب كحلقة من تراثنا المجيد ، لا ينبثق عن نزعة تعصب للدرعية وإيثار لها على غيرها من مدائن الإِسلام والعروبة ، فالإِسلام عقيدة وشريعة للبشر كافة ، والأَرض كلها أَرض الله . هذا بالإِضافة إلى أَن

عالم اليوم قد غدا كما يعبرون ـ قرية واحدة كبيرة بفضل ثورة المواصلات ، فلا مجال للتفضيل بين مدينة وأخري ، وكلها تنتمى إلى عالم واحد تتلاشى فيه الفواصل يوما بعد آخر باطراد التقدم العلمى .

بيد أن هذه المقولة وإن صحت لا تعنى التعميم وإنكار الاختلاف القائم بين وحدات المعمورة من أمم ودول ومدن . بل إن التخصيص والتمييز بين بعضها وبعض أمر يحتمه الواقع . فلقد جعل الله الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا . ولو أنهم كانوا شعبا أو قبيلة واحدة لما كانت ثمة حاجة إلى إعلا نهذا الهدف الأسمى الذي شاءه الخالق سبحانه وهو التعارف . فمن البديهى أن الواحد لا يُعَرّف مع نفسه ، وإنما الجموع غير المتجانسة هى التى تتعارف وتتآلف . وقد خلق الناس متمايزين في العرق العرق والجنس واللغة والتاريخ والموطن ، ومتباينين فيما يعتقدون وما يتألمون أو يأملون .

ومن شأن هذا التمايز أن يتمخض عن منافع وعن مضار . فمنه يستقل كل قوم بخصائص وسمات معينة ، فيعملون على تأصيلها ودعمها وفي ذلك بقاؤهم وعمارهم وقوتهم . ولو أنهم تخلوا عن ذلك لذابوا في غيرهم وفنوا . وأما مضار التمايز فهى ما ينجم عن هذا الاستقلال والتشبث به والحرص عليه من

نفور بينهم وبين غيرهم من الأَقوم والجماعات بسبب اختلافها وانفصال كل منها عن الآخر . كما يؤدي هذا التشبث بالانفصال إلى المبالغة في الاعتداد بالنفس ونبذ التعاون ، وقيام التنافس كبديل له في سبيل السيادة أَو الاستعلاءَ أَو السيطرة ، الأَمر الذي قد يفضى إلى التنابذ والعداءَ ثم إلى الحروب وما تجلبه من محن وكوارث . لذلك كان التعارف بين الشعوب سبيلا إلى تبادل المنافع ومن ثم إلى منع الحرب واستقرار السلام .

ومن هذا المنطلق نقدم كتاب الدرعية لسانا يعرف بها ، ويدا تنبسط بالود والصداقة لتصافح شعوب العالم بصفة عامة والشعوب الإِسلامية والعربية بصفة خاصة ، تحقيقا للتعارف الذي يدعو إليه الحق سبحانه وتعالى ، وتنمية للتعاون في سبيل صالح الإِنسانية : « ولتكن منكم أَمة يدعون إلى الخير ويأَمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وليس أَولى من الدرعية بالاضطلاع بواجب تأَكيد هذه الرسالة المثلى ، والإِسهام بنصيب موفور في نشرها ، فلقد كانت موطنا للخير والمعروف مثلما كانت قلعة للعروبة . فإليها قصد أَكبر مصلح إسلامى في عصره ، ليبشر بدعوته ويدعو إلى مؤازرتها لإِحقاق الحق ورفض الباطل وتغيير المنكر باليد أَو باللسان أَو بالقلب ، كل بما وسعه :

على قدر أَهل العزم تـأْتي العــزائم
وتـأْتي على قدر الكرام المكارم

ومن الدرعية كان رجل العزم ومعدن المروءة والنجدة والمؤازر المقاتل بالحق في سبيل تلك الدعوة .

فـأَما المصلح الجليل فهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة السلفية التى قامت على أَصول الدين الحنيف ، ونفت عنه ما علق به من شوائب بسبب انتشار الجهالات بين الناس ، وتفشى الإِحن والأَطماع بين ولاتهم ، ودعت إلى القضاءَ على الظواهر السيئة التى تنافي الدين والخلق وتسىءَ إلى الإِسلام والمسلمين وتطمع فيهم الخصوم والحاقدين من أَعداءَ الدين . واستنت منهجا يقوم على بناءَ مجتمع جديد قويم على أَسس الشريعة الإِسلامية وما كان عليه السلف الصالح في صدر الدولة الإِسلامية على عهد النبى عليه السلام وخلفائه الراشدين .

وأَما المؤازر المقاتل بالحق والذي احتضن الدعوة السلفية الطاهرة وعمل على التمكين لها في الأَرض ، ونجح في نقلها من مرحلة الفكر إلى مرحلة التحقيق ، مدافعا عنها بكل ما ملكت يداه واهبا نفسه في سبيلها ، فذلكم هو الشيخ الامام محمد ابن سعود طيب الله ثراه .

ففي الدرعية طلع فجر الدعوة السلفية على الجزيرة ، ومن ثم كانت وما زالت مصدر إشعاع لا ينفذ زيته الذي يضيء . وعليها ثبتت أَركان حكم صالح عادل قام على أساس هذه الدعوة السمحة الأَصيلة ، وسعى إلى نشرها في الآفاق ، وانتصر تحت رايتها في معاركه ضد البغاة والمفسدين ، ذلك هو حكم اسرة آل سعود .

فليكن تاريخ الدرعية التليد ، كمسرح للبطولة وموئل للدعوة ، رفدا لمجدها الطريف ، وليدم قبسا من دعوة الحق يوحد ولا يفرق ، ينشر النور ، ويبدد الظلام ، ويهدي للتى هى أَقوم . وبالله التوفيق .

حسن فتح الباب

الباب الأول

نظـــرة الى اليمامـــة

يتوسط اليمامة (على ما يشمله مسماها قديماً) جبلها العملاق الممتد من الشمال إلى الجنوب بما تزيد مسافته عن ألف كيل وتنداح حدودها من الغرب إلى الشرق حول هذا الجبل شاملة سهولها وحزونها ورياضها وكثبانها بما يقدر بخمسمائة كيل وتشمل اليمامة عدة اقاليم هي اقليم العارض ويدخل فيه الخرج والشعيب والمحمل وضرما واقليم سدير ويشمل الغاط والزلفي وما حولهما واقليم الوشم وما يلحق به واقليم الفرع واقليم الافلاج واقليم وادي الدواسر واقليم العرض .

وفي اليمامة عشرات الأودية تتخلل رقعتها وتفيض عليها خصبا ونماءً بما فيها من نخيل ومزارع وعمار وحرث وبث عرف عنها منذ القدم [١] وفيها قـديما عيون جارية وأنهار وبحيرات فمن عيونها (الخضراءَ) و (هيت) و (عين جو) و (الهجرة) ومن أنهارها (سيح الغمر) و (سيح نعام) [٢] .

---

(١) الاخبار الطوال لابى حنيفة

(٢) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه

وكانت اليمامة تسمى (الخضراء) لخصبها ونمائها وكثرة أَشجارها وزروعها مما جعل الحيين الكبيرين طسما وجديسا يتخذان منها قاعدتهما وإلى زمن قريب أَدْرِكَتْ بها حصونهم وبتلهم [1] وتتوسط اليمامة قلب جزيرة العرب فهي واقعة بين الحجاز وسرواته وأَقاليمه من الغرب وبين (هجر) وامتداد خطه على ساحل الخليج العربي وما به من عمار واقاليم من الشرق وتحدها منطقة (القصيم) و (جبلى طيء) من الشمال ويحدها من الجنوب منطقة (الربع الخالي) .. فهي نقطة ارتكاز بين هذه المناطق الحية العامرة .. وملتقى طرق ومحط قوافل تجوب قلب الجزيرة العربية لهذه المناطق مقبلة مدبرة فهى قاعده تجارية مهمة . يصب فيها ويصدر منها طرق لا حبة تؤدي إلى العراق والشام واليمن وحضرموت والحجاز والخليج العربي وما ورائها وما بينها ..

وتحدثنا كتب الآثار والمنازل والديار عن حضارات عاشتها منطقة اليمامة وأَمم عمرتها وأَبقت من الآثار والصوى والمعالم ما يشهد لاممها بالقوة والمنعة وسعة النفوذ والقدرة الخارقة في الابداع العمراني وروعة الفن والتمكن الحضاري .. . [2]

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني

(٢) انظر بحثنا (طسم وجديسى) فى مجموعة بحوث الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الرياض .

ففي (الخضرمة) بالخرج من اليمامة (حصن الجون) الشهير الذي يقول فيه المتلمس :

الم تر أَن الجون أَصبح راسيا
تطيف به الأَيام ما يتأَيس
عصى تبعا أَيام أَهلكت القري
يطان عليه بالصفيح ويكلس

وفي (القريّة) (سدوس الآن) المسلة الشهيرة الفارعة اقيمت من حجر واحد ـ كما رواه بعضهم ـ وكانت مثال الروعة والإبداع .

ومن حصون اليمامة (بتيل حجر) و (معنق) و (الشموس) و (الثرملية) و (القصر العادي) و (مرغم) و (الهيصمية) يقول أَبو مالك شيخ الهمداني إنه أَدرك منها حصنا طوله مئتا ذراع في السماء ونقل أَن منها ما كان طوله خمسمائة ذراع . ومن أَحد هذه الحصون نظرت زرقاء اليمامة نظرتها الشهيرة [١]

ويطرز ساحة اليمامة تكوينات متعددة من الرمال الذهبية الفاقعة والصخور الململمة الجرداء والرياض الفيح الغناء

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني

والتلال وصفحات الجبال الفارعة البيضاء والقمم السامقة المتأبية والهضاب الملونة ذات الجدد البيض والحمر والسود الغرابيب ..وفيها الكهوف والمغارات والقلات والغدر والخبراوات

وتنبت أرضها من العظاة الطلح والسمر والسرح والسدر والسلم والطرفاء والمرخ ومن الحمض فصائله السبع والرند والعرار والقيصوم والشيح والجثجاث ومن العشب النفل والرقم والحوذان والاقحوان والحنوة والحرف والخزامى ومن كل من هذه الأصناف أنواع كثيرة وزهور مختلفة الأشكال والألوان والروائح ..

وتغنت الشعراء باليمامة وأشادت بذكرها قال عمرو ابن كلثوم :

تذكرت الصبا واشتقت لما
رأيت حمولها أصلا حدينا
فأعرضت اليمامة واشمخرت
كأسياف بايدي مصلتينا

ويقول يحيى بن طالب :

إذا ارتحلت نحو اليمامة رفقة
دعاك الهوي واهتاج قلبك للذكر

الاهل لشيخ وابن ستين حجة

بكى طربا نحو اليمامة من عذر

فياحزنا مما أجن من الهوي

ومن مضمر الشوق الدخيل إلى حجر

تغربت عنها كارها فتركتها

وكان فراقيها أحر من الجمر

ولامرأة يمامية تغربت عن اليمامة فتذكرتها وقالت :

تذكرني بلادا خير أهلي بها أهل المروءة والكرامة

الافسقى الإله أجش صوب يسح بدره بلد اليمامة

وقالت من قصيدة لها أخري :

سقى الله اليمامة دار قوم

بها عمرو يحن إلى الرواح

أما شاعرها الأعشى فيقول :

شاقتك من قتلة أوطانها

فالشط فالوتر فالحاجر

فركن مهراس إلى مارد

فقاع منفوحة فالحائر

ولشاعر يمامي يتغنى بيمامته :

معاهد لا ينسى حلاها دثورها
نلم بها تملي علينا سطورها
فللشعر ما يزور عنه رواحها
وللسحر ما يفتر عنه بكورها
وللمجد ما بنيت عليه قبابها
وللورد ما ضمت عليه ستورها
سقتها الغوادي كم بها من مرابع
يعطر أَنفاس النعامى عبيرها
من الشيح والقيصوم والبان نشرها
وما حاكه ودق السماء غميرها
إذا داعبتها السحب أَوجسها الصبا
تأَرج مغناها وراق غديرها
تعيث بحبات القلوب ظباؤها
وتفعل مالا يفعل السحر حورها
فكم في ربا حجر اليمامة مرتع
تغنى به ميمونها وجريرها
وفي الشم مما قد سما من هضابها
خورنقها أَن أعرضت وسديرها

وتردي بها قب الجياد شوامسا
تضج بها اكنافها وثغورها
عليها الكماة الصيد اما رباعهم
فنجد واما دارهم فظهورها
مصادمة الأَبطال في الروع عرسها
وتضريب أَعناق الملوك مهورها

ولجحدر اليمامي من قصيدة مطلعها :

لقد صدع الفؤاد وقد شجاني
بطاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بصوت أَعجمى
على غصنين من غرب وبان

ومنها :

أَليس الله يعلم أَن قلبي
يحبك أَيها البرق اليماني
واهوى أَن أَعيد إِليك طرفي
على عدواءَ من شغلي وشاني
ايا اخوي من جشم بن بكر
اقلا اللوم أَن لا تنفعاني

إذا جاوزتما سعفات حجر
وأَودية اليمامة فانعياني
وقولا جحدر أمسى رهينا
يحاذر وقع مصقول يماني
ستبكي كل غانية عليه
وكل مخضب رخص البنان

ويفتخر ازيرق اليمامة موسى بن جابر الحنفي فيقول :

وجدنا ابانا كان حل ببلدة
سوي بين قيس قيس عيلان والفزر
فلما نأَت عنا العشيرة كلها
أَقمنا وحالفنا السيوف على الدهر
فما أَسلمتنا بعد في يوم وقعة
ولا نحن أَغمدنا السيوف على وتر

وود الإِمام علي بن أَبي طالب رضي الله عنه حينما خذله قومه وقعدوا عن نصرته ودأَنه يلوذ بركن اليمامة كناية عن نجدة أَهلها وشجاعتهم فقال :

ولو أَني أُطعت عصبت قومي
إِلى ركن اليمامة أَو شمام

ولكنني إذا أَبرمت أَمــرا
منيت بخلف آراءَ الطغــام

أَما الفرزدق فيقول :

لعمري لقد سلت حنيفة سلة
سيوفا أَبت يوم الوغى أَن تصيرا
سيوفا بها كانت حنيفة تبتني
مكارم أَيام تشيب الحزورا
بهن لقوا بالعرض أَصحاب خالد
ولو كان غير الحق لاقوا لأُ نكرا
ولولا سيوف من حنيفة جردت
ببرقان أَمسى كاهل الدين أَزورا

وأَسهمت اليمامة في بناءَ المجد العربي والإِسلامي في شتى المجالات وأَنجبت أَعلاما في الزعامة والقيادة والشجاعة والعلم والشعر وخلفت تراثا في هذه المجالات وغيرها خلده التاريخ ووعاة الفكر العام من لدن العرب البائدة إِلى يومها هذا ..

فمن رجال الحديث من اليمامة : يحيى بن كثير ، وأَبو روق ، وضمضم الهفاني . وعكرمة بن عمار .

ومن علمائها : عثمان بن قائد ، وابن عطوة ، والعييني ،

والسلفي المصلح محمد بن عبد الوهاب وأَولاده وأَحفاده وآل معمر ، وآل عتيق ، وآل أَبي بطين ، وآل المنقور وجمع كبير من الفقهاءَ والعلماءَ والأَعلام ».

ومن شعرائها الأَعشى ميمون بن قيس ، وقتادة بن مسلمة والحطيئة ، والمرار العدوي ، وموسى بن جابر ، ونويب السلولى ، والفرزدق ، وجرير ، وذي الرمة ، ويحيى بن طالب ، وأَبو الجنوب ، وابن أَبي الجنوب ، ونعيم بن قعنب الملقب (الواقعة) والفند الزماني ، وبكر بن النطاح ومروان بن أَبي حفصة ، ويحيى بن أَبي حفصة ، والعباس بن الاحنف ، وعمارة بن عقيل ، ومروان الأَصغر ، ونصيب الأَصغر ، والأَغلب العجلي وعنان الناطفية ، وأَبو نخيلة ، وابن مشرف ، وابن عثيمين[1]

ومن مؤرخيها : ابن غنام وابن بشر ، وابن جريس ، وابن المغيرة ، والفاخري ، وابن بسام ، والمنقور ، وابن سلوم ، وابن لعبون ، وابن خنين ..

ومنها أَحمد بن ماجد الربان الشهير ..

ومن فتاكها : جحدر بن ضبيعة ، والفند الزماني ، ومنها زرقاءَ اليمامة وعرافها ..

---

(١) (من أعلام الشعر اليمامي) العمران . ذكر بعض هؤلاء الشعراء .

ومن أَعلامها وقوادها هوذة بن علي ، وثمامة بن اثال ، ومجاعة بن مرارة ، والرحال بن غنفوة ، ومالك بن مسمع ، وثعلبة بن حنظلة ، وعبيد الله بن زياد ، ومحكم بن الطفيل ، وصهبان بن شمر ، وشمر بن عمر ، ونجدة بن عويمر ، وأَبو طالوت ، وثعلبة بن حنضلة ، وأَبو دلف ، ونافع بن الأَزرق .

ومن أَشهر أَسر اليمامة قديما آل أَبي حفصة ، وآل ابن عربي ، وآل منقر ، وآل سعود أَهل الزعامة والمجد وأَعلام تميم وعامر وهزان وعنزة وزائد .. [١] .

وكما كان لأَقاليم جزيرة العرب الكبير أَسواق يؤمها القصاد من كل مكان لاغراض سياسية واجتماعية وأَدبية واقتصادية .. فكذلك لليمامة سوقها بحجر (الرياض الآن) تقوم فيها اجتماعاتهم وتكثر فيها مفاخراتهم ومنافراتهم ومساجلاتهم وخطابتهم ..

تبدأ هذه السوق من اليوم العاشر من شهر محرم وتستمر إلى نهايته ويجري فيها نحو مما يجري في عكاظ وكان الشاعر جرير ممن يتصدر هذه السوق وينشد فيها شعره [٢] .

---

(١) معجم اليمامة .

(٢) اسواق العرب .

وبمقتضى ما لليمامة من مميزات طبيعية وما بها من مؤهلات جغرافية ترشحها لبناء حضارة وتؤهلها لانتشار أَمة .. كانت مطمع الأُمم ومطمح المريدين ممن يملك النفوذ والقوة ويخطط لبناء حضارة واشادة مجد .. فكانت هذه الآثار الباقية والمعالم الموروثة أَدلة على قوة ومنعة من تبوأَ هذه المنطقة وبسط نفوذه عليها .. وما ثم من اثارة من علم تفيدنا عمن كان يسكنها من الأُمم البائدة قبل عهد هزان الوسطى وطسم وجديس وكل هؤلاء من العرب البائدة وترجح بعض المصادر أَن هزانا سبقت طسما وجديسا على تبوء هذه المنطقة إلا أَنما شاركاها سكنى الدار ثم أَخذ الضعف يدرك هزانا وأَخذ الجد والقبول يصحب طسما وجديسا فذابت هزان وانتهى تاريخهما [١] واستقلت طسم وجديس بالنفوذ وامتد تاريخهما وتعالت قوتهما وعمرا اليمامة قرونا متعاقبة .

ويري بعض المؤرخين ممن تحدثوا عن نسب هاتين القبيلتين انهما أَختان لثمود وأَن جد الثلاث واحد فيقولون : (ثمود) و (طسم) و (جديس) أَبناءَ إرم بن سام بن نوح [٢] .

---

(١) هزان هذه من العرب البائدة وليست القبيلة الربعية المعروفة الآن التى تسكن وادى نعام .

(٢) (الرياض عبر أطوار التاريخ) للاستاذ حمد الجاسر .

والمرجح أن هاتين القبيلتين بلغا ذروة نفوذهما وازدهارهما في القرنين الثاني والثالث الميلاديين [١] وقيل أن نفوذهما كان في القرن السادس قبل الميلاد [٢] وهناك أقوال أخري حول ذلك ..

ومعظم الآثار والمعالم الموجودة باليمامة من بقايا حضارة هاتين القبيلتين وقد مر بنا في مقدمة هذا البحث ذكر بعض آثارهم ومخلفاتهم الحضارية وقاعدة طسم من اليمامة (حجر) (الرياض الآن) وقاعدة (جديس) (الخضرمة) (جو الخرج) وقد شمل نفوذهما اليمامة كلها بل تجاوزها إلى مناطق أخرى كالأحساء وما حولها وبها (لهم حصن المُشَقَّر) .

وقد ذكر (الهمداني) ان من سكان حجر اليمامة آنذاك (الاتيون بن الحارث) من (قحطان) يساكنون طسما وجديسا بها وإلى ذلك أشار امرؤ القيس بن حجر فقال :

والحق آل اتيان بحجر ولم ينفعهم عـدد ومال

ولطسم وجديس باليمامة صنم يدعى (كَثْر) بقي إلى ظهور الإسلام وكسره(نهشل بن الربيس) [٣] .

---

(١) (تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي .

(٢) معجم اليمامة لمؤلف هذا الكتاب .

(٣) القاموس مادة (كثير) وتاريخ العرب قبل الإسلام .

وقد أَثر عن هاتين القبيلتين أَخبار وروايات كثيرة خصوصا بعد ما بلغتنا نهاية نفوذهما وبدأَ العداءَ يدب بينهما وقامت الحروب والمناوشات تترى بين قاعدتيهما (جو الخضرمة) قاعدة (جديس) و (حجر) قاعدة (طسم) وما كان من أَخبار هذه الحروب وما قيل فيها من أَشعار تبعتها أَخبار (حسان ابن تبع) وحروبه في اليمامة وأَخبار الزرقاءَ وما أَثر عنها من مرويات وأَشعار لا يتسع المجال هنا لبسطها [1] ونتيجة لهذا الخلاف المستحكم ولهذه الحروب الطاحنة باد هذان الحيان العظيمان شأَن كل أُمة يدب بينها داءَ التنازع والخلاف .

وبعد (طسم) و (جديس) سكنت اليمامة قبيلة عنزة ابن أَسد وكان لهم في اليمامة نفوذ وقوة وأَنتشر منها أُسر كثيرة متحضرة في انحاءَ اليمامة لا تزال باقية إلى اليوم .

ولما ضعفت عنزة وتضعضع شأَنها زاحمها على اليمامة بنو حنيفة وبقيت عنزة ممثلة في بني هزان في وسط اليمامة الجنوبي وادي (نعام) وهضبة (عليّة) وما حولهما حوالي قرنين من الزمان وكان لحنيفة النفوذ والقوة والعدد والعدة بسطوا نفوذهم على أَكثر اليمامة وعمروها وأَوجدوا فيها حضارة وعمرانا

---

(١) راجع مؤلفنا (معجم اليمامة) تجد فيه شيئا من البسط والاستيعاب.

وتغلبت دولتهم اسما وشهرة على من سواهم ممن سكن هذه المنطقة وعمرها ...

كما عاصر حنيفة من سكان اليمامة اشهر بطون (تميم) واكثرها وأكبرها وكانت منازلهم شمال اليمامة (الوشم) و (سدير) و (الزلفي) وما حول هذه المناطق وما بينها إلى (العرمة) إلى (الدهناء) و (الصمان) وما يليه شرقا وشمال شرق [1] .

كما جاور حنيفة بالحلف بطون من قبائل أَخرى كبني (جرم) من قضاعة وبني الحارث بن لؤي من قريش وأَسرة آل حسين الذين ينتمون إلى الإمام علي بن طالب رضي الله عنه ولا يزالون بجوارهم في (نعام) وهم من بقايا بني الأَخيضر العلويين حكام اليمامة في القرنيين الثالث والرابع الهجريين ..

ويجاور حنيفة في جنوب اليمامة قبائل عامرية وهم بنو (جعدة) و (بنو قشير) و (بنو كعب) و (بنو عقيل) و (بنو نمير) و (باهلة) القيسية وربما غير من ذكرنا إن سكان اليمامة كلهم قبائل عدنانية ما عدا قبيلة (جرم) القبيلة القضاعية القحطانية ..

---

(١) معجم اليمامة .

ويسود الحكم القبلي ذلك العهد وتستبد القوة بالنفوذ والتسلط وليس ثمة من يزاحم (حنيفة) النفوذ أو يدانيها في القوة . فهى تتربع من اليمامة على الجزء الأكبر والأشهر وهو ما يسمى الآن (العارض) وما جاوره ولها به ثلاث قواعد رئيسية وهي :

١ ـ (جو الخضارم) بالخرج وبه رأس حنيفة وحامل لوائها (هوذة بن علي) السحيمى الحنفي الذي كتب له النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب لكسري وقيصر (١).

٢ ـ (حجر اليمامة) (الرياض الآن) وبها بنو الدول من حنيفة وفيهم العدد والعدة وقوة النفوذ . ومن رؤسائهم ثمامة بن أثال .

٣ ـ عقرباء وبها بنو عدي من حنيفة ورئيسهم مسيلمة ابن حبيب (الكذاب) ومنهم نجدة الخارجى ، والعباس بن الأحنف الشاعر .

وحنيفة قبيلة وائلية ربعية نزارية عدنانية فهم بنو حنيفة ابن لجيم بن على بن بكر بن وائل .. وعنز بن وائل وبكر

---

(١) وهناك قول بأن مسكنه (قران) (القرينة اليوم) رستاق اليمامة قديما . في هذا خلاف بين المؤرخين .

ابن وائل اخوان فعنز تجتمع مع حنيفة في وائل . وعنز هذه غير عنزة بن أَسد بن ربيعة بن نزار . [1] .

وجاءَ الإِسلام وقوة حنيفة ونفوذها على اشدهما فلم توفق في أَول الأَمر لقبوله فلقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم لرئيسها هوذة بن علي السحيمي كتابا قال فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي : سلام على من اتبع الهدي واعلم أَن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فاسلم تسلم واجعل لك ما تحت يدك ..

ولكن هوذة نـأَت به كبرياؤه عن قبول الحق وشط به سلطانه وقوة نفوذه واخذته العزة بالإِثم فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ما أَحسن ما تدعو إليه وأَجمله وأَنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأَمر اتبعك ..

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم جوابه قال : لو سأَلني سيابة من الأَرض ما فعلت .. باد وباد ما في يديه ..

---

(١) الأعلام .

فلم تلبث الشقاوة به حتى هلك ..

ثم ان حنيفة شكلت وفدا من زعمائها وقادتها في السنة العاشرة من الهجرة للقدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مجاعة بن مرارة ، والرحال بن عنفوة ، ومسيلمة بن حبيب فقدموا على رسول الله فاحسن وفادتهم واكرمهم واعطاهم واقطعهم قطائع واجزل ..

ولكن الشقاء غلب على مسيلمة فبعد رجوعه إلى اليمامة ادعى النبوة وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فقد اشركت معك في الأمر فلنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون .

فكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .. أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .. والسلام على من اتبع الهدى .

ومضى مسيلمة في غيه وبغيه واطاعه من اطاعه من بني حنيفة . ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم جهز أبو بكر رضي عنه جيوشا متعاقبة آخرها جيش كثيف بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وبعد معارك عنيفة وملاحم ذهب فيها فئام من

الناس من الفريقين قتل مسيلمة وصالح بنو حنيفة خالدا على يدي مجاعة بن مرارة وانتهت فتنة اليمامة وانضمت إلى جماعة المسلمين وتحت رايتهم وممن وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام اعشى قيس الشاعر الشهير وقد اعد قصيدة عامرة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ولكن قريشا سمعت به فاغرته واغوته وصدته دون بلوغ النبي عليه السلام فلم يوفق للقائه وعاد فمات كافرا . ولذلك خبر طويل يوجد في مظانه ..

مما تقدم ومن غيره يدرك ما لليمامة من أهمية في نظر الإسلام حتى لقد رجح كثير من المفسرين أن هذه الآية : (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) نزلت في بني حنيفة ..

وكان بنو حنيفة يجيرون على الملوك وترهب سطوتهم حكام الجزيرة وأطراف العراق والشام .

وظلت اليمامة بعد عصر النبوة والخلافة من انبه وأشهر اقاليم جزيرة العرب تعاقب عليها الولاة الامويون والعباسيون .. إلا أن بعدها عن مراكز الخلافة من ناحية وحساسيتها وشدة مراس أهلها أعجز الخلافة عن حياطتها وحكمها حكما قويا نافذا خصوصا في العصر العباسي الثاني بل منذ العهد الأموي

بدأت اليمامة تتأبي على الحكم وتخرج على الولاة فقامت بها ثورات رغم الشدة التى يستعملها الولاة الأمويون كعلي بن المهاجر وإبراهيم بن عربي صاحب سجن (دوار) الذي أرهب به أهل اليمامة ورددت شعراؤهم ذكره ..

وبدأ نفوذ الخلافة العباسية ينكمش في اليمامة مع الضعف الذي اصابها والوهن الذي دب في أوصالها ومن ثم انفلت الزمام وسادت اليمامة شريعة الغاب حتى سنة (٢٥٣ هـ) حيث استقل بحكم اليمامة (بنو الأخيضر) وهم ـ كما قد سبق ـ علويون يرجعون في نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهم شيعة زيدية وقد نشروا المذهب الشيعي في ربوع اليمامة وحملوا الناس عليه بالقوة . وقد اتخذوا جو الخضارم بالخرج قاعدة لملكهم وبسطوا نفوذهم على كافة اليمامة وشكلوا حكم ارهاب وعسف وجور ورأوا أن القبلية في المنطقة مصدر تعب لهم وارهاق لحكمهم فركزوا على محاربة القبلية وحاولوا القضاءَ على العنصر العشائري بكل وسيلة واحتضنوا الموالي وقووا شأنهم واستعانوا بهم في ترسيخ حكمهم مما اضطر بعض القبليين ليخفوا قبليتهم ويندمجوا في سواد الناس ويبدو أن العنصر الخضيري المتكاثر في هذه المنطقة كان امتدادا لذلك العصر نسبة لبني الاخيضر سواءَ من اهمل قبيلته أو كان من الموالي ..

وقد اضطرت بعض قبائل اليمامة الكبرى كتميم وعامر وهلال وما تفرع منها إلى الهجرة إلى شمال افريقيا وبلدان المغرب العربي وبقيت فيها إلى اليوم تحتفظ بانسابها وعاداتها وتقاليدها وتحافظ على قبليتها .

وظل بنو الأَخيضر يحكمون اليمامة اكثر من قرنين من الزمان أَي منذ سنة (٢٣٥ هـ) إلى سنة (٤٦٧ هـ) والمرجح انها دالت دولتهم على يد القرامطة إبان امتداد نفوذهم على اقليم الخط (الأَحساء وما جاورها) وتجاوز ذلك إلى اليمامة وإلى السواحل الشرقية من جزيرة العرب ..

ثم ضعف الحكم في اليمامة وترنحت السلطة بين القرامطة والعيونيين والجبريين حكام الخط وبقى حكم اليمامة مهزوزا مترنحا .. ومن ثم عمى الكثير من حلقات تاريخها قرونا متعاقبة تحكمها القبلية وتسودها الفوضى والاضطراب حقبة مظلمة عمياءَ مجهولة التاريخ مفقودة الأَثر . ولقد زارها ابن بطوطة الرحالة المشهور سنة (٧٣٢ هـ) فقال عنها : ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة وتسمى حجرا مدينة حسنة خصبة ذات انهار وأَشجار يسكنها طوائف من العرب أَكثرهم من بني حنيفة وهي بلدهم قديما واميرهم طفيل بن غانم ومن كلام ابن

بطوطة هذا ومن كلام أيضا لابن فضل الله العمري ومن كلام أيضا لابن لعبون المؤرخ ندرك أن السلطة قد عادت إلى بني حنيفة في اليمامة على ضعف [1] وسوف يأتي أنه في منتصف القرن التاسع الهجري وفد (مانع المريدي) من مردة بني حنيفة على ابن عمه ابن درع صاحب حجر والجزعة فاقطعه (المليبيد) و (غصيبة) في قلب وادي حنيفة .. من هذا ندرك عود السلطة إلى بني حنيفة في هذه المنطقة من اليمامة واستئناف نفوذهم ومحاولة استعادة مجدهم . .

(١) راجع كتابنا معجم اليمامة مادة (حجر) ففيه مزيد من التفصيل حول ذلك .

الباب الثاني

الدرعية يبرز اسمها
في منتصف القرن التاسع الهجرى

الدرعية هذه المدينة التي برزت لتحكم قلب جزيرة العرب حوالي أَربعة قرون يتخللها مد وجزر وانبساط وانكماش وتطور وعمران وتجارة وتعليم ومجتمع فاضل وجهاد وتغيير مجرى تاريخ وأَساليب حكم ..

الدرعية تقف امام مجتمعات سادتها الفوضى وأَنهكتها ووقف بها واقعها المؤلم تجاه جهل مطبق وفقر مدقع وضعف ومتربة .. تتبدل حالها ويصلح حاضرها ومآلها وتسود وتقود وتصبح رمزا للقوة ونموذجا للحضارة ومثابة للقصاد ومنطلقا للرواد .

الدرعية تربة صالحة شطت فيها الدعوة السلفية وبسقت دوحتها وآتت اكلها وطوت ظلمات الخرافة والدجل وعبادة القبور واستدرار الرحمة وكشف الكربة وطلب الرزق والعون من جامد الصخر وباسق الشجر ومظلمات الكهوف وهياكل المهوسين والممرورين والمرتزقة ..

الدرعية : اسم منسوب إلى الدروع بطن من بني حنيفة يسكن جلهم وسط وادي حنيفة من اليمامة وتسكن فصيلة منهم في سواد الخط بين الأحساء والقطيف قامت لهم قاعدة هنالك سموا قصبتها الدرعية نسبة لهم (الدروع) وقد غمرت الرمال تلك المنطقة وبقيت من الدرعية هنالك اطلال ومعالم ونتوءات وتلول تشير إلى قوم كانوا هنا فبانوا ولا تزال تحمل اسمها إلى اليوم لدي من ابقى لهم طوفان الرمال هنالك مبوءات من هجر البادية أو دارات انقذها القدر فظلت مرتبعا ومسترادا ..

أما اهل الدرعية تلك فقد استوبأوا منطقتهم وربما كانت الرمال في ذلك الزمن قد بدأت تغزو هذه المنطقة ففكروا في أن ينضم الفرع إلى الأصل وتتحد القوى وتتواشح القربى وتكثر حزمة القوم .. فوفد رئيسهم مانع المريدي إلى رئيس بني عمهم في وادي حنيفة (ابن درع) فبثه شجنه وافضى إليه برغبته فاقطعه من ممتلكات قومه ما بين (المليبيد) إلى (غصيبة) من وسط وادي حنيفة ..

فهل نقل المهاجرون فيما نقلوا معهم اسم بلدتهم القديمة (الدرعية) إلى حيث حلوا من وادي حنيفة فسموا ما بين (المليبيد) و (غصيبة) باسم مدينتهم القديمة (الدرعية) هذا قول محتمل ..

والقول الثاني ان هذه النسبة تلاحق هؤلاءً الدروع فحيث حلوا سمى محلهم (الدرعية) وبقيت الدرعية الأَولى تحمل اسمها إلى اليوم وقامت درعية جديدة تحمل اسمها باعتبار اسم سكانها منسوبة إليهم .. وسيان كان هذا أَو ذاك فالدرعية منسوبة إلى الدروع بطن من بني حنيفة واحدهم درعي والتاءَ لتأنيث النسبة ..

تقع الدرعية ـ كما قلنا ـ في منتصف وادي حنيفة شمال غرب الرياض باعتبار قلب مدينة الرياض وإلا فقد زحف عمران مدينة الرياض الآن حتى شمل الدرعية أَو كاد ..

ولكي نعطي الصورة الحقيقية عن موقع مدينة الدرعية لنبسط القول جغرافيا عن وادي حنيفة منذ منشئه من مرتفعات (جبل طويق) الشمالية الغربية بالنسبة للرياض حتى مصبه في السهباء من جو الخرج جنوب شرق الرياض بما تقدر مسافته بمائة وخمسين كيلا .

ينحدر هذا الوادي ـ كما قلنا ـ من قمم عالية بعرض جبل اليمامة الشهير (طويق) فما سال من هذه القمم مشرقا فهو يكوِّن مبدأَ وادي (حنيفة) ووادي الوتر (صلبوخ) الآن ووادي (قران) (حريملاءَ الآن) وما سال مغربا فتتكون

منه أودية وشعاب تسيل على قاع (قرقرى) (ضرما) الآن ولكل من هذه الأَودية روافد كثيرة تمدها وتكون منها أودية ذات شأَن كبير حتى تصب في مدافعها .. ويأْخذ وادي حنيفة في اتجاه الجنوب الشرقي حتى مصبه وتنبسط في أَعلاه بعد أَن يتخلى عن الجبال رحاب واسعة هي رحبة أَباض (بوضة الآن) ورحبة (الهديدير) (الهدار قديما) ورحبة (مصيقرة) وما حولها وفي هذه الرحاب تتلاقى أَهم الروافد التى يتكون منها وادي حنيفة وهي (الخمُر) [1] وراوفدها . و (أَبو الهشم) و (بوضة) وروافدها الكثيرة و (الهديدير) و (حمران) و (أَم كثير) ..

هذه الأَودية تفيض كلها في هذه الرحاب ومنها يتكون (وادي حنيفة) ورحبة (أَباض) هذه لها ذكر في التاريخ والشعر ومثلها رحبة (الهدار) (الهديدير الآن) و (الأُحيسي) (الحيسية الآن) و (الأَبكين) وربما تعرضنا لاخبارها عند ذكر معالم هذا الوادي وأَعلامه .

ومن هذه الرحاب يتجمع سيل الوادي في مجرى واحد فوق بلدة (العيينة) وتسمى قديما (عيين بني عامر) من بني

(١) جمع خمُرة والمراد بها ملتف الشجر .

حنيفة كانت من ابرز بلدان هذا الوادي وأَغناها واخصبها ولها تاريخ حافل ولد بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة (١١١٥ هـ) ونشطت بها دعوته السلفية وبينها وبين الدرعية أَحداث طويلة (١) .

وبعد أَن يجتاز الوادي العيينة ويعانقه شعبا (الأَحيرش) من اليمين و (المجينينة) من اليسار يلم ببلدة (الجبيلة) حيث (عقرباءَ) قاعدة بني عدي من بني حنيفة وبها حديقة مسيلمة وتسمى (حديقة الرحمن) ولما قتل بها مسيلمة وجمع كبير من قومه ومن المسلمين سميت (حديقة الموت) وفيها يعانق الوادي شعبان هما (غالة) و (سلام) وللجبيلة أَيضا تاريخ حافل بسطناعنه القول في كتابنا (معجم اليمامة) (٢) .

ومن (الجبيلة) ينتظم الوادي (منطقة الوصيل) ممر متعرج بين جبلين يتوسطه مجرى الوادي وتقوم على عدوتيه المزارع والنخيل والحصون والآطام والسدود الجانبية لحفظ مياه سيول الشعاب الجانبية وفي منتصف القرن التاسع الهجري كانت منطقة الوصيل وما حولها لآل يزيد من بني حنيفة

---

(١) أنظر بحثا مستفيضا عن العيينة فى كتابنا (معجم اليمامة) الجزء الثانى حرف العين .
(٢) أنظر عقرباء والجبيلة فى مادتتهما من هذا المعجم .

ويعانق الوادي في منطقة الوصيل من الشعاب : شعب (الأَبيطح) رافد كبير عن يمين الوادي وشعب (أَبو السواكيف) من اليسار وشعبا (المناظير) و (أَبي خيسة) من اليسار أَيضا .
وبعد (الوصيل) تنفرج الجبال هناك عن رحبة واسعة تسمى (الملقى) وتسمى (المغيدر) وتسمى (عجران) فبأَيها سميت هذه الرحبة جازت التسمية .

وسميت الملقى مفعل اسم مكان أَي ملتقى لانه يتلاقي فيه ثلاثة أَودية هي (وادي حنيفة) من الشمال الغربي و (وادي العمارية) من الغرب و (قري عبيد) أَو الزلال من الشرق .

وسميت (عجران) لوجود قبة مبنية بالاجر الأَحمر كان طللها موجودا إلى زمن قريب تسمى قبة (عجران) ولايعرف من عجران هذا وهل الاضافة إلى المكان أَو إلى صاحبه .. ويرجح الأَستاذ حمد الجاسر أَن عجران هذا محرف من (العقير) المنطقة التي كان يسكنها (إبراهيم بن عربي) الوالي الأَموي باليمامة وان سجنه الشهير (دوار) كان هنا بالعقير .

وسميت (المغيدر) (والتسمية متأَخرة) وهي تصغير (مغدر) أَي غدير فكأَن ملتقى هذه الأَودية وما تحدثه من

حفر في الأَرض تستقر فيه المياه تسمى غديرا صغر لامر مافسمى مغيدرا على ما تقتضيه اللهجة المحلية .

ووادي العمارية الذي يدفع من جانب هذه الرحبة الجنوبي الغربي يعتبر أَكبر رافد من روافد وادي حنيفة وأَكثرها شعابا واوفرها سكانا .. ويسكنه قديما بنو عبد الله بن الدول من بني حنيفة ..

وإذا جاوز وادي حنيفة هذه الرحبة أَلم بمنطقة الدرعية من أَعلاها حيث حوض السد الذي بني هنالك لتخزين مياه السيول وامداد المياه الجنوبية بما يزيد مخزونها وهذا السد بني عام (١٣٩٥ هـ) ومنه يمر الوادي بقرية (العلب) ولعلها تسمى قديما (النعمية) وتحتها قرية أَخري تدعى (العودة) وهاتان القريتان من قري الدرعية . ومن قبلهما زحف جيش إبراهيم باشا لاحتلال الدرعية وعسكر حولهما وبدأَ يناوش الدرعية القتال على ما سيأَتي تفصيله إن شاءَ الله .

ويمر الوادي بعدئذ بقلب الدرعية متعرجا تبعا لطبيعة مجراه هنالك ولتكون الجبال التي تحيط به وتقوم الاحياءَ والنخيل والمزارع والعمران على عدوتيه من اليمين والشمال وتقوم بقية الاحياءَ والحصون والأَسوار على سطوح الجبال

وسفوحها وتكبر مساحة الدرعية عبر هذا الوادي من المساحة التي أَقطعها (ابن درع) لابن عمه (مانع المريدي) فلقد انداح عمرانها وكثر سكانها بما ضاعف مساحتها عن حدود الاقطاع ولنا عودة إلى هذا الموضوع عند وصف الدرعية إن شاءَ الله .

وتنحدر روافد تلتقي بالوادي في منطقة الدرعية هي تبعا لانحدارنا الوصفي مع هذا الوادي : (وادي الخسيف) ووادي (الحريقة) و (وادي غبيراءَ) و (وادي قصير) و (وادي صفار) و (وادي سدير) وفي كل من الثاني والثالث والخامس من هذه الروافد سدود لحفظ مياه السيول .

ومن (الدرعية) يمر وادي حنيفة بمنطقة (عرقة) (عوقة) قديما منطقة زراعية تتوسطها قرية تحمل اسمها (عرقة) ورد لها ذكر في التاريخ وفي أَحداث وحروب (الدرعية) ويسكنها قديما بنو عدي من بني حنيفة [١] ويسيل على منطقة (عرقة) من روافد وادي حنيفة شعب (دخين) و (قري عرقة) و (مهدية) و (أَبير) ..

وتحت عرقة بينها وبين (باطن الرياض) بني سد في

---

(١) ياقوت .

وادي حنيفة لحفظ مياه السيول يمتد حوضه إلى قرب قرية (عرقه) صعدا اقيم سنة (١٣٧٨ هـ)

ومن هذا السد يفضي الوادي إلى منطقة باطن الرياض ويترك قلب الرياض شماله باعتبار ما كان أَما الآن فيكاد يكون مجري الوادي في قلب الرياض بعد تبحر العمران ووفرة السكان وامتداده للضواحي التي كانت قبل قرى خارج مدينة الرياض (كمنفوحة) و (المصانع) .

ويدفع في منطقة باطن الرياض من روافد هذا الوادي (وادي لبن) (الخال قديما) و (وادي اليسن) و (وادي نمار) ووادي (البطحاءَ) (الوتر قديما) .

وبعد اجتياز منطقة الرياض ينحدر الوادي فيمر بمنطقة (الجزعة) ثم بمنطقة (المنصورية) ثم يلم بمنخنق بين جبلين يدعى (عريضا) وقبل أَن يصل سد منطقة الحائر يكون قد عارضه من الأَودية (وادي البواقر) و (وادي دعكنة) ووادي (الحفنة) .

ثم يفضي إلى سد منطقة الحائر وهو السد الرابع من السدود التي اقيمت على مجري وادي حنيفة والحائر معناه أَصلا الماءَ يجد أَرضا صخرية أَو صلبة مغطاة بطبقة خفيفة من قشرة

الأَرض فاذا تكاثر عليها الماءَ نبعت فيحير الماءَ فوقها فيسمى حائرا . وهو هنا علم على منطقة هنالك من وادي حنيفة بها بلدة ونخيل ومزارع ولها ذكر قديم وتبعد عن الرياض جنوبا نحو خمسة وثلاثين كيلا ويفرغ فيها من روافد وادي حنيفة (وادي لحا) ووادي (البعيجاءَ) .

ومن منطقة الحائر يفضى الوادي إلى منطقة رملية شجرة تنتشر حولها الأَبارق والتلول وتسمى هذه المنطقة (العفجة) وتعتبر امتدادا لمنطقة (الخرج) الشمالية الغربية ويصب في هذه المنطقة من روافد وادي حنيفة (وادي أَبو سدير) و (وادي الرمامين) و (السوق) .

ومن ثم يفضي وادي حنيفة إلى منطقة (الخرج) ويدفع فى (السهبى) حيث منحرق الأَودية الكثيرة من جبال اليمامة ومستقرها هنالك ومنها إلى التوضحية حيث تقف رمال الدهناءَ حاجزا دون مضي سيول هذه الأَودية باتجاه الخليج العربي وقد كانت تفرغ هنالك .

والاتجاه الذي يأَخذه وادي حنيفة في مجراه يغاير أَودية قلب جزيرة العرب إلى حد ما فانها تنحدر من الغرب إلى الشرق

أما هو فينحدر من الشمال إلى الجنوب بميل قليل نحو الشرق في بعض منعطفاته .

وقبل أن تسكن حنيفة هذه المنطقة ويضاف هذا الوادي إليها . كان يسمى (العرض) وعلى ذلك نص علماء المنازل والديار واللغة قال الأعشى :

ألم تر أن العرض أصبح بطنها

نخيلا وزرعا نابتا وفصافصا

وقال أبو عبيد السكوني : (عرض اليمامة) وادي اليمامة ينصب من مهب الشمال ، ويفرغ في مهب الجنوب (إلى أن قال) والعرض كله لبني حنيفة إلا شيئا منه لبني الأعرج من بني سعد بن زيد مناة بن تميم قال الشاعر :

ولما هبطنا العرض قال سراتنا

علام إذا لم نحفظ العرض نزرع

ويوم العرض من أيام العرب ، وهو اليوم الذي قتل فيه عمرو بن صابر فارس ربيعة قتله جزء بن علقمة التميمي وذلك قول الشاعر :

قتلنا بجنب العرض عمرو بن صابر

وخمران اقصدنا هما والمثلما ١ هـ

وقال نصر : العرضان واديان باليمامة وهما عرض شمام وعرض حجر ا هـ .

وقال يحيى بن طالب الحنفي وقد تغرب عن اليمامة مضطراً وتشوقها :

يهيج علي الشوق من كان مصعدا
ويرتاح قلبى أَن تهب جنوب
فيـــارب سل الهم عني فإنني
مع الهم محزون الفؤاد غريب
ولست أَرى عيشا يطيب مع النوي
ولكنه بالعرض كان يطيب ا هـ

أَما الهمداني فقد ذكر (العرض) وعدد مواضع مما ذكرناه آنفا ومواضع لم يعد لها ذكر ولا تعرف الآن ونستأَنس هنا بإيراد ماذكره إتماما للفائدة وتحقيقا لاسم هذا الوادي قديما وما له من شأَن ومكانة :

قال الهمداني : ثم نخرج من حجر مصعدا في العرض فأَول واد من العرض ـ وهو واد يجمع ثلاثمائة واد ـ فأَول ما يلقاك من عن يمينك (وهنا سقط) ففيشان والروضة تسمى حزنة ثم

تخرج إلى قرية بني عدي النقب ثم أَباض والجعاد وعقرباءَ .
وبها قتل جيش خالد بن الوليد يوم مسيلمة بن حبيب الحنفي ثم ظفر خالد وخربها آخر النهار ، وهي عدوية أَيضا ثم الهدار وهى ذهلية من ذهل بن الدول ، والهدار حصون ونخول وقصور عادية ، ثم تمضي بفرع العرض والعيين وهي لبني عامر [١] وعن يسارها ثنية الأَحيسى ثم تمضي في رأَس العارض ويحبس عليك العرض فترد (القرية) من وراءَ الابكين وهما قرنان جبيلان - قرية بني سدوس بن ذهل بن ثعلبة وهي قرية جيدة وفيها قصر سليمان بن داود عليه السلام مبني بصخر منحوت عجيب خراب وبقيت القصبة ..

وفي مكان آخر يقول : والعرض وهو واد اليمامة من أَعلاها إلى أَسفلها ، وفيه قرى ينزلها بنو حنيفة واسفله الكرش قرية بها بنو عدي من حنيفة ، وإلى جنبها قرية يقال لها منفوحة لبني قيس بن ثعلبة ، وفوق ذلك قرية يقال لها وبرة بها ناس من البادية وفوق ذلك قرية يقال لها العوقة [٢] فيها ناس من بني عدي بن حنيفة وفوق ذلك قرية يقال لها غبراءَ بها بنو

(١) لانجد هذه المواضع مرتبة حسب واقعها فهنالك تقديم وتأخير حسب خط سير الهمداني مصعدا في هذا الوادي .
(٢) هي عرقة الآن .

الحارث بن مسلمة بن عبيد ، وفوق ذلك قرية يقال لها مهشمة [1] والعمارية مقرونة بها بها بنو عبد الله بن الدول وفوق ذلك قرية يقال لها : فيشان بها بنو عامر بن حنيفة ، وفوق ذلك قرية يقال لها أَباض بها كانت وقعة خالد بن الوليد ومسيلمة لبني عدي بن حنيفة وفوق ذلك قرية يقال لها : الهدار بها بنو هفان بن الحارث بن الدول ، وفوق ذلك واد آخر يقال له وادي قران .. الخ .

وتكاد تجمع المراجع على أن (العرض) هو وادي اليمامة المعروف الآن بوادي حنيفة .

(١) لعلها أبو الكباش الآن .

الـوادي الخصيب

تكاد تجمع كتب المنازل والديار وكتب التاريخ والسير على أن اليمامة كانت على مستوى من الخصب ووفرة الإنتاج وجودة المحاصيل وكانت خضراءَ ممرعة ذات نخيل ومزارع وبساتين وخضرة ونضرة وكان بها أَنهار وعيون وبحيرات وكانت تمون بالميرة منطقة الحجاز وأَطراف الجزيرة وسواحلها وكانت تماكس حكام الاقاليم على تصدير الحبوب والتمور وسائر المنتجات الزراعية والحيوانية .. ولقد وقف رئيسها (ثمامة بن أثال) أَمام نفوذ قريش وسلطانها القوي متحديا مانعا تصدير الحبوب والتمور إلى الحجاز ما لم يأْذن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .. فاذن صلى الله عليه وسلم برا بالأَرحام ورفقا بالضعفاءَ والمساكين فعادت ميرة اليمامة إلى سابق عهدها تمد الحجاز وتغطى حاجته [1] ويقول ابن الفقيه : يقول أَهل اليمامة : غلبنا أَهل الأَرض شرقها وغربها بخمس خصال : ليس في الدنيا أَحسن الوانا من نسائنا ، ولا أَطيب طعاما من حنطتنا ، ولا أَشد حلاوة من تمرنا ، ولا أَطيب مضغة من لحمنا ، ولا اعذب من مائنا .. الخ [2]

---

(١) أسد الغابة .

(٢) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه .

ويضرب المثل بكثرة نخيلها وجودتها قال المعري : دخلت بغداد فوجدت العلماءَ بها أَكثر من النخل باليمامة ..

ولوادي حنيفة من هذه الخصوبة النصيب الأَوفى نذكر من عيونه التي لا تزال انفاقها وكظائمها وآثارها باقية :

١ – عين (أَباض) (مصيقرة الآن) تنطلق من قبل جبل (مصيقرة شمال منطقة) أَباض (وتقبل مارة بشرقي (بوضة) (اباض قديما) تلب بمجري وادي (الخمر) قبل أَن يلتقى بوادي (بوضة) بقليل وتفرغ في أَعلى (العيين) (العيينة الآن) لا يزال ردمها الترابي قائما ويبدو أَن منطقة (العيين) (العيينة الآن) سميت باسم هذه العين لانها تسقيها.

٢ – عين ظهر (سدحة) وهذه تنحدر من مياه السيول التي يجمعها سد هنالك أَثري يسمى الآن (سد ابن معمر) أَو (سد العيينة) يمد هذه العين بمائه فإِذا نضب ظلت جارية فترة من الزمن ثم تقف .

٣ – عين (حجر) وهذه تقع في (وادي البطحاءَ) (الوتر) قديما تشق مدينة الرياض وتفضي إلى منطقة (الخضرمة) خضرمة (حجر) لا خضرمة (الخرج)

وهذه لا يزال الكشف والحفريات والعمران تبرز مجراها وكظائمها . حتي الآن وتسمى قديما : (الخضراءَ) .

٤ ـ عين فرزان (الفرزة) قديما وهذه تنبع من جبال تلب بوادي حنيفة جنوبية من منطقة الخرج ادركتها تجري وتصب قبل بلدة (السلمية) من) الخرج) . وهذه أَقرب إلى مجري وادي حنيفة بخلاف عيون الخرج الأَخري .

وإلى جانب هذه العيون فهنا (حوائر) جمع حائر وهو الماءَ ينبع في منطقة من المناطق ويجري حينا ويتوقف حينا آخر وهو يكون عند تدارك الغيث وكثرة السيول أَشهر هذه الحوائر هذا الذي أَصبح الآن بلدا وعلما على هذه المنطقة وهو الذي يعنيه الأَعشى بقوله :

فقـــاع منفوحة فالحائر

وهناك حائر (صياح) لعله (سياح) قديما وحائر (العلب) أَعلى الدرعية . وحائر (الحداوي) باعلى العمارية من وادي حنيفة وحوائر (الحريقة) و (غبيراءَ) و (الثروي) من (مهدية) و (أَبير) و (نمار) .. الخ .

ويحدثنا ياقوت عن نخيل (أَباض) من هذا الوادي فيقول : انه لم ير نخل أَطول منها [١] .

كما يقول عن قرية بني سدوس المحاذية لرأَس وادي حنيفة يقول : وهي اخصب قرى اليمامة لها رمان موصوف..[١]

ويقول عن الخضرمة التي إلى جانب مدينة حجر (الرياض الآن) جنوبيها : والخضرمة بستان في ناحية اليمامة له خاصية في عظم البصل [١] .

لذا لم يكن بدعا أَن تقف اليمامة مدلة بخصبها متميزة بانتاجها ووفرة محصولاتها فتهدد قريشا في حجازها بوقف الميرة عنها ان هي خالفت ارادتها أَو تنكرت لها فحينما وقع ثمامة بن اثال رئيس بني حنيفة في أَسر طائفة من جنود رسول الله – ص – وأَبى أَن يدخل في الإسلام إلا عن قناعة وانقياد نفسى ولم يزل به النبي عليه السلام حتى استجاب ودخل في الإسلام عن حب وانقياد وطواعية ولما عاد منع الميرة عن قريش حتى توسط النبي عليه السلام في إعادة الميرة لهم رحمة بهم ورأَفة بضعفائهم ومعوزيهم . [٢]

---

(١) ياقوت .

(٢) الرياض عبر أطوار التاريخ .

فاعاد الميرة لهم واغتبطت قريش بهذا العطف من نبي الله وبهذه الاستجابة من ثمامة .

وسوق اليمامة من أكبر أسواق جزيرة العرب يفدون إليه من كافة الاقطار والاصقاع وتلتقى فيه قوافل الشام واليمن وهجر والحجاز وما بين ذلك بشتى المصنوعات والمنتوجات وتقام فيه المفاخرات والمنافرات والمكاثرات ويلتقي فيه الشعراء والأدباء والخطباء ..

تبدأ هذه السوق في اليوم العاشر من شهر محرم وتستمر حتي نهايته ويجري فيها قريب مما يجري في عكاظ [١] .

(١) أسواق العرب .

الباب الثالث

وقفات تاريخية

بين يدى نشأة الدرعية

حينما ظهر الإسلام كانت اليمامة تحت حكم بني حنيفة وكانت زعامتها في ثلاثة نفر من حنيفة هوذة بن علي السحيمي الحنفي وثمامة بن اثال الحنفي ومسيلمة بن حبيب (الكذاب) العدوي الحنفي . وهناك زعماء آخرون كمجاعة بن مرارة والرحال بن عنفوة وغيرهم . [1]

فأما هوذة بن علي فقد كان من رؤوس حنيفة وكانت له الصولة والحول والطول على قومه بني سحيم وغيرهم حتي قيل عنه : أنه أول معدي لبس التاج وخوطب بابيت اللعن وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب لكسري وقيصر [2].

فلقد كتب له النبي عليه السلام فقال : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يدك . ولكنه أبي واستكبر ورد على

(١) الرياض عبر أطوار التاريخ .
(٢) تاريخ ابن لعبون .

النبي عليه السلام بقوله : ما أَحسن ما تدعو إليه واجمله . وانا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأَمر اتبعك .

ولما بلغ النبي جوابه قال عليه السلام : لو سأَلني سيابة (أَي بلحة) من الأَرض ما فعلت . باد وباد ما في يديه .

وهلك هوذة بعد ذلك بقليل [1] .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم سليط بن عمرو إلى ثمامة ابن اثال وهوذة بن على يدعوهما إلى الله ..

وكان ثمامة قد قصد مكة معتمرا فوافته خيل لرسول الله - ص - فأَسرته وأَتت به رسول الله (ص) فامر بربطه في سارية المسجد وإذا مر به عليه السلام قال له : ماذا عندك ياثمامة . فيقول عندي خير . إن تنعم تنعم على شاكر وان تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط .

فأَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باطلاقه . وعند ذلك أَعلن إسلامه وذهب إلى مكة معتمرا ولما عاد إلى بلاده منع الميرة عن قريش فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ابن هشام .

يقولون : انك تأمر بصلة الرحم وانك قد قطعت ارحامنا قتلت الأَباءَ بالسيف والأَبناءَ بالجوع ..

فكتب عليه السلام إلى ثمامة أَن يخلي بين أَهل اليمامة وبين حمل الطعام إلى مكة .. [1] .

وفي السنة العاشرة من الهجرة جاءَ وفد بني حنيفة إلى رسول الله وفيهم مجاعة بن مرارة والرحال بن عنفوة ومسيلمة ابن حبيب فأَكرمهم صلى الله عليه وسلم وكتب لمجاعة كتابين أَحدهما يتضمن اعطاءَه مائة من الإِبل والثاني باقطاعه أَماكن في اليمامة ..

ولما رجع الوفد إلى بلادهم أَدعى مسيلمة النبوة وانقاد له الحنفيون وقوي أَمره بعد وفاة النبي عليه السلام . فسير أَبو بكر عكرمة بن أَبي جهل لغزو اليمامة وامده بشر حبيل بن حسنة ولكن عكرمة اسرع قبل وصول المدد إليه فهزم جيشه فوجه أَبو بكر خالد بن الوليد فقدم اليمامة في السنة الحادية عشرة من الهجرة فانضم إليه شرحبيل بن حسنة بجيشه فبلغ جيش المسلمين بضعة عشر أَلفا [2] .

---

(١) ابن هشام .

(٢) الرياض عبر أطوار التاريخ .

وكان جيش بني حنيفة قريبا من أَربعين أَلف على ما يروي ابن جرير [١] ثم بعث أَبو بكر بجيش ثالث بقيادة سليط ابن عمرو . تحسبا للأَمر .

وبعد مناوشات ومعارك حصلت وقعت (عقرباءَ) الحاسمة قتل فيها مسيلمة وأَربعة عشر أَلفا من قومه ومن الصحابة أَلف ومئتا شهيد منهم زيد بن الخطاب وكان مجاعة بن مرارة الحنفي أَسيرا في جيش خالد فقال خالد هلم لاصالحك عن قومي [٢] .

فصالحه على أَن يأَخذ ما لدي الحنفيين من ذهب وفضة وسلاح وأَن يأَخذ نصف السبي فذهب مجاعة إلى قومه ببادرة الصلح وأَمرهم أَن يلبسوا النساءَ السلاح وان يشرفن من الحصون فعاد إلى خالد مظهرا امتناعهم إلا بربع السبي فقبل خالد الصلح وكتب كتابا بذلك .

كان ذلك في السنة الثانية عشرة من الهجرة وبعد أَن رجع خالد ولى عليها سمرة بن عمر والعنبري وقدم وفد من بني حنيفة إلى الخليفة أَبي بكر مظهرين الطاعة والولاءَ وهكذا استتب

---

(١) ابن جرير .
(٢) الرياض عبر أطوار التاريخ .

الأمن في اليمامة وثابت وانقادت للخير مدة الخلفاء الراشدين .

وفي العهد الأموي كانت اليمامة مرتبطة إداريا بوالي العراق فهو الذي يعين ولاتها ويعزلهم غالبا وفي العهد العباسي كانت أحيانا مرتبطة بوالي مكة وأحيانا بوالي المدينة وربما استقلت في ولاية بعض الخلفاء ومعها عمان والبحرين .

ومن أشهر ولاة اليمامة في العهد الأموي يزيد بن هبيرة المحاربي وإبراهيم بن عربي الكناني وسفيان بن عمرو العقيلي ونوح بن هبيرة وزرارة بن عبد الرحمن ، والمهاجر بن عبد الله الكلابي وعلي بن المهاجر وحدثت ثورة داخلية في اليمامة فكان واليها المهير بن سلمي الحنفي وبعده عبد الله بن النعمان ، وبعده يزيد بن عبد الله الفزاري وهو غير يزيد الذي كان واليا لليمامة قبل هذا . (١)

أما في عهد بني العباس فاشهر ولاتها : داوود بن علي ابن العباس ، وزياد بن عبد الله بن عبد المدان ، والسري بن عبد الله بن الحارث ، وقثم بن العباس ، والفضل بن صالح ، وجعفر بن سليمان ، وعبد الله بن مصعب الزبيري . وسون القائد الخراساني ومحمد بن سليمان بن علي ، ثم استولى عليها

---

(١) مجلة العرب .

طاهر بن الحسين وداوود بن منجور واسحق بن إبراهيم ومحمد أَبو عون وسعيد بن صالح الحاجب ويارجوج ، موسى بن بغا فولاها عبد الرحمن بن مفلح وعباس بن عمرو الغنوي [١] .

وهكذا حتى ضعفت دولة بني العباس ولم تعد تقوي على إدارة شئونها في العراق فما بالك باليمامة مما جعل الحكم في اليمامة يترنح والولاية تضعف وتغلب على أَمرها مما هيأَ الفرصة لمحمد الاخيضر لينقض على اليمامة ويستولى عليها ويتخذ (الخضرمة) قاعدة لملكه وذلك حوالى سنة (٢٥٣) ه [٢] .

وبنو الأَخيضر أُسرة علوية من بني موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه .

قلت عنهم في (معجم اليمامة) :) وكتب التاريخ تكاد تجمع على أَن هؤلاءَ القوم ظلمة سيئو السياسة عنصريون مفسدون عملوا على اضعاف القبائل العربية في نجد وغيرها مما اضطرها إلى الهجرة إلى مصر والمغرب العربي وجوانب من افريقيا وسواد العراق وأَطراف الشام ويحدثنا الرحالة (ناصر خسرو) عن شيءَ من واقع اليمامة في عهد بني الأَخيضر قال :

---

(١) المصدر السابق .

(٢) معجم اليمامة .

بلغنا اليمامة بعد مسيرة أَربعة أَيام بلياليها من (الأَفلاج)
وباليمامة حصن كبير قديم . والمدينة والسوق (حيث صناع
من كل نوع) خارج الحصن وبها مسجد قديم وأَهلها (علويون)
منذ القديم ولم ينتزع أَحد منهم هذه الولاية إذ ليس بجوارهم
سلطان أَو ملك قاهر .

وهؤلاءَ العلويون ذوو شوكة فلديهم ثلاثمائة أَو اربع مائة
فارس ومذهبهم الزيدية وهم يقولون في الآذان :(محمد وعلي
خير البشر وحي على خير العمل) .)[1] .

ظل الأَخيضريون يحكمون اليمامة حوالي قرنين ونيف
يسود فيها المذهب الزيدي ويحكمونها حكما مجحفا ظالما .

والمرجح أَن القرامطة هم الذين هزموا دولتهم ولم يزالوا في
ضعف حتى ذابوا في قبائل المنطقة .

ومنذ عهد الأَخيضريين واليمامة في ضعف وفوضى لم تقم
ولاية قوية بل انتقلت السلطة والسيطرة إلى شرق الجزيرة
(الأَحساءَ) وما حولها تحت حكم القرامطة والعيونيين
يحكمونها حكما مهزوزا مترنحا بقدر ما يحققون اطماعهم
ورغائبهم ..

---

(١) معجم اليمامة .

ومضت عليها قرون متعاقبة مظلمة الحكم فيها للقوة والنفوذ لمن قويت شوكته وحصلت له السيادة وتفرق النفوذ في أَهلهـا بين القبائل والأَسر وقامت سوق الغارات والثارات والإِحن والمحن .. فلقد زارها الرحالة ابن بطوطة سنة (٧٣٢ هـ) ومن كلامه ومن كلام لابن فضل الله العمري حيث يعدد مساكن العرب في كتابه (مسالك الأَبصار) ويذكر بعض من يسكن اليمامة في القرن الثامن أَن جلهم من بني حنيفة ومن كلام للمؤرخ ابن لعبون .. من هذه النصوص ندرك أَن السلطة قد عادت لبني حنيفة في هذه القرون المتأَخرة .. ولكن بضعف وتخلف . (١)

وفي منتصف القرن التاسع وفد مانع المريدي من بني حنيفة على ابن عمه ابن درع صاحب (حجر) و (الجزعة) وفد عليه من قريته (الدرعية) قرب القطيف فاقطعه (المليبيد) و (غصيبة) وما بينهما الذي هو مكان الدرعية الآن فسمى من يومئذ بالدرعية نسبة إلى هؤلاءَ الدروع أَو نقلا لمسمى قريته التي كان يسكنها هناك وانحصرت ممتلكات آل يزيد من بني حنيفة في (الوصيل) من الدرعية حتى أَعلى الوادي .

(١) معجم اليمامة .

ومانع المريدي هذا هو الجد الثالث عشر للملك عبد العزيز رحمه الله ولم يزل نفوذ ذرية مانع يقوي وعددهم يكثر حتى أَصبحت لهم الصدارة وتلاشى الآخرون في ظل نفوذهم .

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري ونفوذ آل يزيد في تقلص واضمحلال فقد باعوا بلدة العيينة في سنة خمسين وثمانمائة على حسن بن طوق جد آل معمر (١) وانتقل إليها من (ملهم) وعمرها حتى أَصبحت انبه بلاد في المنطقة ..

وليس ثمة من يد طائلة تحكم نجداً أَو تهيمن عليها .. فلكل بلاد صغيرة زعامة تحكمها حكما مهزوزا وتقوم بينها وبين جيرانها ثارات وحزازات وفتن لا تهدأ .. وللبادية بما لها من تجمع قبلي ونفوذ مسيطر لها اليد الطائلة والزعامة النافذة وكان يسكن اليمامة وسرة نجد قبائل شتى من عامر وفروعها عقيل وهلال وقشير وجعدة والحريش . وكانت قبيلة عنزة تسكن جانبا منها وكذلك قبيلة الظفير وقبيلة بني لام وحاضرة تميم وبني خالد ومطير .. وغيرهم وكان النفوذ الأَقوى آنذاك لعامر وفروعها فهي تحتل ما بين الخرج إلى الأَفلاج إلى السليل ووادي الدواسر إلى سرة نجد وعاليته إلى أَطراف الحجاز .

---

(١) الفاخري .

ثم أخذ نفوذهم ينكمش وقوتهم تضمحل وهاجر من هاجر منهم إلى شمال افريقيا وتفرقوا في البلدان حاضرة وبادية .. وحل محلهم بنو لام فاصبحت لهم صولة وجولة وقوة نفوذ وهيمنة على اكثر بلدان نجد مدة من الزمن تقول امرأة ابن عروج رئيس بني لام :

ثور من العارض ركيب يهيف
يتلون ابن عروج مقدم بني لام
ياما انقطع في ساقته من عسيف
ومن فاطر تأخذ على الجيش قدام
حر شهر من ماكره له رفيق
طلعه بعيد من ورى نقرة الشام

وتقول ابنة عجل بن خنيثم رئيس آل مغيرة من بني لام .

ألا يا بلاد جنب تيما [1] مقيمة
ما دامت الشعرا هيام قليبها
أخذنا على ولد الشريف بن هاشم
على الحوض حقة من وردها يجيبها

---

(١) تيماهنا هضبة بجانب بلدة الشعرا في عالية نجد .

فهم يأخذون على ورد الماءَ ناقة لمن ورده عليهم وكانو يسكنون فقارة نجد آل مغيرة في العالية وآل فضل وآل كثير في اليمامة وما جاورها وكما جلت قبائل عامر وهلال عن نجد لكثرة جدوبها فكذلك جلت قبيلة بني لام ما عدا نزائع من حاضرتها بقوا حيث نخيلهم ومزارعهم وذلك في القرن الحادي عشر (١٠٨٥) هـ [١] قال مقبل الذكير في تاريخه : انحدرت بوادي الفضول من نجد إلى العراق حيث الخصب وطيب المرعى فأ اعجبتها فاستقرت هناك حتي الآن وغالبهم تحضروا ولم يعرف لهم بادية موجودة على عاداتها لا في نجد ولا في العراق ومنهم قبائل (الغري) على الضفة الغربية من الفرات من الناصرية إلى الخضراءَ .

ولقد كان لهم في البلدان التي هاجروا إليها نفوذ وقوة وهيمنة في العراق وشرق الجزيرة وإيران زاحموا من هنالك من الحكام وبسطوا نفوذهم على كثير من البلدان [٢] .

وحلت محلها قبيلة عنزة فكانت بمالها من كثرة ووفرة ونفوذ ذات سلطة ونفوذ وقوة فترة طويلة .. ثم رغبت في

---

(١) صحيح الأخبار .

(٢) انظر الامارة الطائية في بلاد الشام .

الهجرة إلى أَطراف العراق حول المياه وطيب المرعى ووفرة المعيشة إلا أَن أَميرهم (مشعان بن هذال) رغب الحيلولة بينهم وبين تنفيذ فكرتهم وأَكثر المشورة عليهم فاستجابوا له فترة ولكن غلبتهم النزعة وقادهم الهوى لقد قال مشعان في ذلك :

يالله يالمطلوب ياخير معبـــود
يا عز عبد بالخفيـــة شكا له
ياخير مدك على الناس ماجود
ولا خاب عبد كل يوم يساله
ترثي لقلب به مجاريف ولهود
ومن الرفاقة ضيق الهم باله
عزي لربع طاوعوا شور محمود
مدري بلاهم غيظ وإلا جهالة
والله يمين الحق مشهود منشود
اني مـــدور عزكم بالعـــدالة
والافلالي من هوى النفس مقصود
إلا معزتكم على كل حاله
يا مشير بالفرقي طلت وجهك السود
درب المراجل ما عليها كفالة

وهي قصيدة طويلة اجتزأنا منها هذه الأَبيات [١]

وحل محل عنزة في نجد قبيلة مطير فقد صادفها قبول ونمو وتربعت على سرة نجد فترة من الزمن يشير إلى ذلك محسن الهزاني في إحدي قصائده فيقول :

شدوا لها من فوق وثنات الاجمال
فوق اشقح زين المناكب صعيني
نصوا سهوم بين أَبانات والخال
حامينها بمذلقات العريني
يرعى بتسعمية وتسعين خيال
ناحين عنه الدوسري والحسيني [٢]

ثم انزاحت قبيلة مطير إلى شرقي شمالي الجزيرة بمنازع جديد استقبلته نجد بكثرته ووفرته وقبوله استقبلت قحطان التي غمرت نجد أَو انتشرت في هضبتها واخذت تطوي نفوذ مطير طيا لتقول شاعرة مطير موضي البرازية من برزان مطير :

نجد خذيناها من الاد وايل
واليوم عدونا سكن وادي الراك

(١) من أحاديث السمر .
(٢) المجاز بين اليمامة والحجاز .

أما حميناها بضرب السلايل

وإلا عطينا الشاه ذولا وذولاك

والمراد بسكن وادي الراك قحطان لانهم قبل في أَودية الحجاز وتهامة حيث الراك ومنابت الشجر ..

ثم أَدرك قبيلة قحطان ما أَدرك القبائل التي قبلها وبليت بمنازع جديد هي قبيلة (عتيبة) فلم تلبث هذه حتى تكاثرت وقويت شوكتها وانبسط نفوذها ودارت رحى الحرب بين عتيبة وقحطان تذكيها الثارات وتؤججها الأَشعار وتزيد على مر الأَيام قوة وعنفوانا [1] وتبوأت عتيبة سنام نجد واخذت تغير على قحطان تارة وعلى مطير تارة أَخري وعلى حرب ثالثة وبلغت ذروة مجدها في عهد رئيسها (محمد بن هندي بن حميد) الذي عاصر محمد بن رشيد وشطرا من عصر الملك عبد العزيز آل سعود ..

بعد هذا نجد أَن شاعرا من عتيبة بعد أَن ضحك لهم الزمان وواكبهم السعد وأَزاحوا قحطان وغيرهم عن سنام نجد يقول هذال الشياني :

(١) المصدر السابق .

واد الرشا مهوب ورث من قديم
إلا لمن ساق الجمل ثم احتماه

خلوه من بعد القسا بني مضيم
راحت شرايدهم بصبحا والحصاه

وعنه الدويش منزحينه للقصيم
واليوم حربي نفخ ذربه يباه

ويقول :

واد الرشا بنت عليها عيره
ما تلبس إلا القز والسبهان

على قرارة نجد مني عيرة
من زيد بن شفلوت والصعران

ويقول ضيف الله بن حميد ـ العفار .

يانجد ما والله نزلناك بسلوم
ولا انتي بورث جدودنا بالقدايم

خذناك عقب مدارك العمر بالسوم
سوم يخسر لابسات العثايم

ويا نجد أخذنا منك حق ومرسوم
وصفا جنابك عقب نطل العمايم

وحتى الآن وقبيلة عتيبة تتربع على قلب هضبة نجد ـ
وادي الرشا وما جاوره ـ وكما اديل لها فكذلك يدال عليها
لولا أن الله انقذ هذه الجزيرة بامن ضارب بجرانه وحكم
لا يترك قبيلة تمس الأُخري بأي اذى ترتع كل قبيلة أنىَّ
شاءت وتشرب ـ حيث ارادت وتسير ظعينتها كيفما اتفق
لا تخشى إلا الله . (١)

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز .

الباب الرابع

آل سعود

(أ) نسبهم

(ب) قبل دعوة ابن عبد الوهاب .

(ج) بين يدي الدعوة .

أ ـ تكاد تجمع المصادر على أن مانع المريدي هو جد هذه الأُسرة وهو من المردة من الدروع من بني حنيفة يقول ابن عيسى : وفيها (أي في سنة (٨٥٠ هـ) قدم مانع ابن ربيعة المريدي ـ من بلد الدروع المعروفة بالدرعية من نواحي القطيف ومعه ولده ربيعة ـ على ابن درع رئيس الدروع أهل وادي حنيفة وكان بينهم مواصلة لان كلا منهما ينتسب إلى حنيفة فاعطاه ابن درع (المليبيد) و (غصيبة) لآل يزيد من بني حنيفة .. الخ [١] .

---

(١) تاريخ بعض الحوادث : لابن عيسى .

ووافق ذلك قول ابن بشر عن المؤرخ محمد بن سلوم عن المؤرخ راشد بن خنين [1] .

ويقول الفاخري : وفيها أي في سنة (٨٥٠) قدم مانع ابن ربيعة المريدي على ابن درع صاحب حجر والجزعة من بلده القديمة وهي الدرعية التى عند القطيف وهو من قبيلته فاعطاه (المليبيد) و (غصيبة) .. الخ .

وهذه الكتب هي عمدة تاريخ نجد وأهل نجد يذهب المؤلفون ويعودون إليها أما ما ورد عن سليمان الدخيل صاحب جريدة (الرياض) التي كانت تصدر بالبصرة وكذا ما ورد عن أمين التميمي في شجرته لنسب إلى سعود من انتسابهم إلى ذهل ابن شيبان فليس في كلام الرجلين ما يؤيده من نقل أو واقع ..

وكذا ما ورد في كتب ممن كتبوا عن تاريخ هذه البلاد أو تاريخ آل سعود فانهم متتابعون على قول مقلد لا يركن إلى حقيقة ولا يعتمد على صواب فلقد كثر قولهم واضطرابهم بين عنز وعنزة ..

يقول المستشرق الانكليزي (دوتي) أن بني حنيفة في واد يحمل اسمهم منذ زمن النبي ـ ص ـ وهم عرب قدامى من

---

(١) ابن بشر .

عنزة وجدهم المشترك هو وائل . فهو يدخل حنيفة كلها في عنزة مطلقا هذا الاسم الأَخير على كل من كان من ولد وائل .

ويقول الريحاني : إن أَبناءَ بكر بن وائل سواءً كانوا من عنز أَم من حنيفة هم أَبناءَ عمومة .

أَما الأَمير عبد الله بن عبد الرحمن فيقول حسبما ينقل عنه العجلاني : نحن حنفيون .

قال العجلاني وهو يخاطب الأَمير عبد الله : (وقصة عنزة) ؟!

فقال سموه : ان كانت عنزة عند بعضهم مرادفة لربيعة او وائل فيمكن القول تجوزاً أَننا من عنزة بمعنى أَننا من ربيعة (١) .

وإذاً فنسب آل سعود : هو محمد بن سعود بن محمد ابن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي .

وقال العجلاني : هذه هي سلسلة النسب التي نجدها في كل كتاب يبحث في تاريخ الدولة السعودية لانها قريبة العهد .

---

(١) تاريخ البلاد العربية السعودية .

وأما ما فوق مانع من الآباءَ فبعض المؤلفين يهمله وبعضهم ينتقص منه والبعض يغلط فيه ولكن المؤلفين يجمعون على أنه يتحدر من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان .

(إلى أن قال) : ولو أنك سألت كثيرا من أفراد آل سعود عن أسماءَ أجدادهم بعد مانع لعجزوا عن تسميتهم لك لأن أسماءَهم أو طائفة منها بقيت غير مدونة لأسباب مختلفة من الهجرات والحروب وقلة العناية بالتدوين وتقادم العهد . (ثم قال) : وهذا غير مستغرب فاسماءَ آباءَ النبي – ص – فوق جده الأعلى عدنان بقيت مجهولة لنفس الأسباب ١ هـ

ولهذا أثر عنه صلى الله عليه وسلم قوله : لا تطروني فوق عدنان .

ويختم العجلاني قوله بهذه الخلاصة : ان المؤرخين – وإن اختلفوا في بعض الطرق – متفقون في كثرتهم على أن آل سعود من وائل من ربيعة من عدنان .

أما نسبتهم إلى عنزة فليست نسبة بنوه ولا نسبة قرابة – مع ان القرابة قائمة ولكنها بعيدة – وانما هي نسبة سياسة فقد توسعت عنزة كثيرا بما انضم إليها من القبائل والاسر والأفراد فاصبحت شعبا كبيرا جدا أو (اتحاد قبائل) ولم يعد

الانتساب إليها يعنى حتما قيام صلة نسب بين كل فرد من أَفرادها وبين شيخ القبيلة الأَول .

أَن النسبة العنزية أَشبه بالجنسية القومية أَو السياسية منها برابطة النسب والدم .

وكان يرجى للنسبة القبلية أَن يعظم خطرها ، ولكن قيام الدولة العربية الحديثة ومساعيها الموصولة في سبيل تحضير البدو ووضع الحواجز أَمام تنقلهم من دولة إلى دولة كل ذلك من شأَنه تفكيك الروابط القبلية والاكتفاء برابطة الامة والوطن والاسرة [1] . ١ هـ

والرابطة التي تربط عنز بحنيفة اجتماعهم في وائل فهم بنو عم يجمعهم وائل .

ب ـ قبل دعوة ابن عبد الوهاب :

بين محمد بن سعود الذي خرج محمد بن عبد الوهاب في عصره وبين مانع المريدي ستة عشر وال من هذه الأُسرة في مدة ٢٨٩ (سنة أَي منذ) ٨٥٠ هـ) وهي السنة التي انتقل فيها مانع المريدي إلى الدرعية إلى (١١٣٩ هـ) وهي السنة التي

---

(١) تاريخ البلاد العربية السعودية .

تولى فيها محمد بن سعود إمارة الدرعية يتخللها فترات لم يثبت التاريخ أَسماءَ ولاتها من هذه الأُسرة كما يتخللها فترة خرج الحكم فيها من هذه الأُسرة إلى غيرهم وهي من سنة (١١٠٧ هـ) إلى سنة (١١٢١ هـ) حكم فيها سلطان بن حمد القبس ويذكر فيلبي أَنه من بني خالد من الأَحساءَ فقتله أَهل الدرعية وتولى مكانه اخوه عبد الله فقتل للعام التالي لولايته وبذلك عادت الولاية إلى سلسلة النسب المريدي .

على ان الإمارة في الدرعية يتنازعها فرعان هما آل ربيعة الذين يسمون (آل وطبان) وآل مقرن فقد حكم الدرعية بعد محمد بن مقرن بن مرخان حكمها مرخان بن وطبان بن ربيعة وبعده حكم إدريس بن وطبان وكان ضعيفا فانتقل الحكم منه إلى سلطان القبس كما اسلفنا ومنه ومن أَخيه عبد الله عادت الإمارة إلى موسى بن ربيعة بن وطبان وبقي في إمارة الدرعية خمسا وعشرين سنة وفي سنة (١١٣٢ هـ) ثار عليه أَهل الدرعية وعلى رأَسهم سعود بن محمد بن مقرن وخلعوه من الإمارة ونفوه إلى العيينة حيث بقي لاجئا لدي ابن معمر وفي سنة (١٢٣٩ هـ) أَصابته رصاصة طائشة فمات .

ونستطيع أَن نسرد حكام الدرعية منذ مانع المريدي إلى محمد بن سعود على هذا النحو :

١ ـ مانع المريدي اختلف الرواة هل مانع هو الذي بدأ الكتابة إلى ابن درع يطلب إليه الانتقال والبقاء حوله أو ان ابن درع هو الذي بدأه بالكتابة وعرض عليه الزوح ليكون بجواره وايما كان فقد صادف ذلك هوي في نفس مانع واستعدادا للهجرة من بلاده المحمة المستوبأة إلى حيث الدرعية طيبة المناخ سليمة الأجواء . ولم تمدنا المراجع بشيء مستوفى عن ابن درع هذا غير أنه رئيس لطائفة من الدروع في وادي حنيفة وربما أن ابن درع أراد أن يتكثر ببني عمه من الدروع وأن يدرأ بهم في نحور آل يزيد من بني حنيفة الذين يملكون الوصيل وما فوقه من هذا الوادي بينما يملك ابن درع حجر والجزعة وما فوقهما إلى محادة آل يزيد ..

هاجر مانع باولاده ورجاله واتباعه إلى حيث أقطعه ابن عمه ابن درع (المليبيد) و (غصيبة) وما بينهما وهي منطقة ضيقة لا تتجاوز مساحتها خمسة أكيال في عرض الوادي ..

ولكن هذه الهجرة صادفت قبولا ـ كما يقول ابن بشر ـ فبورك لمانع في المال والولد والبث والحرث فأخذ النمو والتطور يزدادان يوما بعد يوم حتى أصبحت الدرعية الجديدة واسطة عقد هذا الوادي ..

وما ذكره الريحاني وسليمان الدخيل و (الليدي بلنت) من أَن مانعا هذا كان له نفوذ على الأَحساءَ والقطيف وعمان وغيرها وانه جد الموانعة المعروفون في تلك الجهة كل ذلك لا أَساس له من الصحة ولم يكن من الحقيقة في شيءَ .

٢ ـ ولما توفي مانع خلفه ابنه ربيعة الذي صحبه من القطيف وكان عونا له في تأَسيس إمارته وبناءَ نفوذه فاستفاضت شهرته وقوي نفوذه واستتب له الأَمر بعد أَبيه .

٣ ـ وكان ابنه موسى ابن ربيعة ذا جد ومجد وطموح تولى قيادة الغزوات ومزاحمة الجيران وغيرهم في عهد والده ربيعة وأَصبحت الشهرة والمكانة له وصار ـ كما يقول ابن بشر ـ أَشهر من أبيه ولكنه كان عاقا متبلد الاحساس تجاه والده فقد احتال على قتل أَبيه ربيعة فهجم عليه وجرحه جراحات بليغة ولكنه استطاع الفرار من قبضة ولده فلجأً إلى حمد بن حسن ابن طوق رئيس العيينة فأَجاره وأَكرمه ..

ولم يكتف موسى بذلك بل جمع كل من حوله من قومه المردة والموالفة فصبح بني عمه (آل يزيد) من بني حنيفة في بلادهم (النعمية) و (الوصيل) وقتلهم قتلا ذريعا حتى لانه يضرب المثل بهذه الغارة فيقال : (صبحهم صباح الموالفة لآل

يزيد) وبالطبع فقد ضم ممتلكاتهم إلى ملكه وأصبحت هذه المنطقة كلها تحت نفوذه وامرته .

ويقال أن من أكبر الأسباب التي دعت إلى هذه المعركة الخلاف على مياه وعيون هذا الوادي حيث كان آل يزيد يعلون الموالفة والمردة في هذا الوادي ويسيطرون على الماءَ .

٤ ـ ومات موسى وخلفه في الحكم ابنه إبراهيم وكان له ذرية كثيرة العدد ومنهم تشعبت فروع وقبائل فكان له عبد الرحمن وعبد الله وسيف ومرخان . فمن ذرية عبد الرحمن آل عبد الرحمن أهل ضرما ونواحيها المعروفون بالشيوخ . وأما عبد الله فمن ذريته الوطيب وآل حسين وآل عيسى وأما سيف فمن ذريته آل يحيى أهل بلد أبا الكباش وهم غير آل يحيى الذين لهم أملاك في أبي الكباش الآن فهؤلاءَ من الفضول .

وسبب نزوح آل عبد الرحمن وآل سيف ان الدرعية ضاقت بهم فالتمسوا أماكن يبثون فيها ويحرثون ويطلبون الرزق في اكنافها ومناكبها .

وبقي مرخان محتفظا بالإمارة وبموروثات الآباءَ والأجداد وتابعه على ذلك أخوه عبد الله في البقاءَ في الدرعية دون الإمارة فهي من اختصاص مرخان وذريته الذين كثروا واشتغلوا بالغزو

ومصادمة الطامعين والغزاة . فانحصرت الإمارة فيهم خصوصا في ربيعة ومقرن . فربيعة هو الابن الأكبر وهو الذي يسمى وطبان وله ذرية كثيرون .

وعرفت ذرية مقرن بآل مقرن .

٥ ـ لما توفي مرخان خلفه ابنه ربيعة بن مرخان وهنا فترة لم تذكر المصادر حكامها ولا شيئا عنها .

٦ ـ ويقال ان مرخان بن مقرن بن مرخان تولى إمارة الدرعية بعد عمه ربيعة .

٧ ـ يقال ان أبناءَ ربيعة لم يرضوا بولاية مرخان وعدوه مغتصبا للإمارة لأَن الولاية للأَكبر فالأَكبر وأَكبر منه وطبان ابن ربيعة فقاموا عليه وقتلوه وحل محله وطبان بن ربيعة .

٨ ـ ويقال أَن محمد بن مقرن قام بثأَر أَخيه مرخان فقتل وطبان بن ربيعة وتولى مكانه .

٩ ـ اختلفت الروايات في ناصر بن محمد فيقال أَنه حكم الدرعية خلال حياة أَبيه ويقال أَن محمد بن مقرن تخلى عن حقه في الولاية لابنه ناصر ولم تذكر الروايات إلا أَن ناصر ابن محمد أَمير الدرعية قد قتل عام (١٠٨٤ هـ) .

١٠ ـ بعد مقتل ناصر تولى الإمارة محمد بن مقرن بن مرخان وبقي فيها حتى سنة (١١٠٦ هـ) .

١١ ـ بعد وفاة محمد بن مقرن انتقلت إمارة الدرعية إلى آل وطبان فتولى الإمارة كبيرهم مرخان بن وطبان بن ربيعة . ونشبت خلافات بين آل وطبان أدت إلى قتل مرخان بن وطبان من قبل أَخيه إبراهيم بن وطبان وتولى الإمارة مكانه أَخوه إدريس بن وطبان ولكنه لم يستطع التغلب على الفتنة في بيت آل وطبان وكان ضعيفا أَيضا فخرجت ولاية الدرعية إلى حكم أَجنبي حيث تولاها سلطان بن حمد القبس ومن بعده أَبنه عبد الله بن حمد القبس حيث قتل الأَول عام (١١٢٠ هـ) وقتل الثاني (١١٢١ هـ) .

١٢ ـ وتولى إمارة الدرعية بعد آل القبس موسى بن ربيعة ابن وطبان كبير فرع آل وطبان وبقي في إمارتها خمسا وعشرين سنة . ثم ثار عليه أَهل الدرعية عام (١١٣٢ هـ) وخلعوه ونفوه منها وكان الذي تولى قيادة الثورة سعود بن محمد ابن مقرن .

١٣ ـ تولى سعود بن محمد بن مقرن ولاية الدرعية وبقي حتى سنة (١١٣٧ هـ) وقد خلف سعود هذا أَربعة أَولادهم محمد وثنيان ومشاري وفرحان .

١٤ ـ وبعد وفاة سعود تولى زيد بن مرخان كبير آل وطبان إمارة الدرعية فترة .

١٥ ـ ولما كان زيد هذا ضعيفا تولى الإمارة مقرن بن محمد حيث انتزع الإمارة من زيد انتزاعا وهو اخو سعود بن محمد فحكم الدرعية . ويقال انه بدا له مصالحة زيد فطلب منه أن يزوره فخافه زيد وقال لا آتيك حتى يكفلك محمد بن سعود ومقرن بن عبد الله بن مقرن فكفلاه فأتاه زيد في جماعة فهم مقرن بقتله وبدت منه بوادر الغدر فوثب محمدبن سعود ومقرن ابن عبد الله وحملا عليه فالقى بنفسه فادركوه وقتلوه وردوا زيدا مكانه .

وكانت العيينة قد حل بها وباءَ كبير هلك فيه خلق كثير منهم رئيسها وأكثر رجالها المدافعين عنها فلم تعد قادرة للدفاع عن نفسها فجمع جموعهوهم بمهاجمة العيينة وكان أميرها محمد بن معمر الملقب (خرفاش) فأرسل ابن معمر إلى زيد بن مرخان وقال له : لماذا تجمع البادية وتقرر مهاجمة العيينة اترك البادية يذهبون وأنا اعطيك ما تريد فصادف ذلك قبولا من زيد فجاءَ إلى العيينة في أربعين من جنده واستقبلهم ابن معمر واجلسهم في مكان معد من قبل ثم تركهم فجأة و إذا برجال خرفاش يصوبون بنادقهم إلى نحر زيد فيقتلونه .

وكان محمد بن سعود في الأربعين الذين جاء بهم زيد فالتمسوا مكانا أمينا فتحصنوا فيه ولم ينزلوا حتى جاءتهم الجوهرة بنت عبد الله بن معمر وأمنتهم فعادوا إلى الدرعية .

١٦ – بعد ذلك اتفق أهل الدرعية على مبايعة الأمير محمد ابن سعود على إمارة الدرعية عام (١١٣٩ هـ) وبقي رئيسا لها قرابة عشرين سنة قبل هجرة الشيخ محمد إلى الدرعية .

ج – بين يدي الدعوة :

المتتبع للأحداث في هذه الفترة التي سبقت لقاء الأمير والشيخ يجد فلولا متنافرة واحداثا متتالية واضطرابات لايحكمها نظام ولا تربطها روابط .. لنأخذ أمثلة مما مر بنا في هذه الفترة الطويلة من حكم الدرعية وحكامها .

حينما ولي إمارة الدرعية إبراهيم بن موسى وكان له أربعة من الولد ضاقت الدرعية عن أن تستوعب هؤلاء النفر وذريتهم فنزح منهم طائفة إلى (ضرما) ونزحت أخري إلى (أبي الكباش) طلبا للسعة وحبا في الانتشار وطلب الرزق .. فهذا يعطينا دليلا على ما لهذه الإمارات من وضع مختنق لا يقوي على سعة عمران ولا امتداد تطور ولا مجال رقي يؤهل هذه البلدة للامتداد ومواجهة التطور والتنور ..

وتصور زيادة أَسرتان أَو أَكثر تؤثران على وضع البلدة وتساعدان على اختناقها . وهب أَن هناك أَسبابا أَخري ساعدت على نزوح هؤلاءَ إلى خارج بلادهم إلم يكن في وسعهم أَن يمتدوا وينتشروا مع بقائهم في بلادهم ..

وحادثة أَخري هى حينما أَصاب العيينة ما أَصابها من وباءَ هلك فيه رئيسها وكثير من رجالها المدافعون عنها وأَصبحت في حال يرثي لها ومحل شفقة ورحمة وعطف .. يجر الطمع نفس زيد بن مرخان فيجمع جموعه من البادية والحاضرة ليهاجم العيينة ويستولي على ما بها من أَموال ومتاع بدلا من العطف عليها وحمايتها ومساعدة أَهلها بحكم الجوار والعروبة والغيرة.. لولا ما أَدى أَمير العيينة من حكمة جعلته يتصرف تصرفا أَنقذه ..

أَن هذه الحادثة تعطينا أَدلة واقعية على ما وصل إليه ذلك الزمن وأَهله من أَوضاع سيئة ومن تدني في نفوس أَهله إلى درجة هي مثل الإنحطاط وغياب المثل العليا عن تلك النفوس .

ثم ما عزم عليه موسى بن ربيعة من قتل والده والاستئثار بحكم الدرعية فجرح والده جراحات بليغة ولكنه نجا بمعجزة والتجأَ إلى ابن معمر ليكرمه ويطيب مثواه ..

إن هذه الأَحداث تعطينا ما لذلك الزمن من حقيقة مرة ومن وضع هو الغاية في انحلال الاخلاق وضياع القيم واستبداد الموروثات المتدنية الوضيعة ..

وإذا كان هذا يقع بين الوالد وولده والجار وجاره فكيف به بين المجتمعات أَن صح أَن هناك مجتمعات بمعناها الصحيح.
وإذا فأَي فضيلة تنشأً في هذا الوسط وأَي رابطة تحكمه أَو تزينه أَو تسوده .. إذا كانت الاخلاق متدنية والمثل مفقودة والصلات هابطة إلى أَقصى الحدود .

نقول هذا لنقارن بين ما كانت عليه الحال قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما كانت عليه بعدها .. لنجد أَن وازع الدين والتمسك بمبادئه ومثله هى المقياس الحقيقي وهي القاعدة المثلى لانشاء المجتمعات والرفع من قيمة البشر والسمو بالأَوساط إلى ما يعليها ويغليها وأَن دعوة ابن عبد الوهاب لم تكن جاءَت لتصحيح العقيدة فقط وتطهيرها من الأَدناس والأَرجاس .. ولكن جاءَت لتبني مجتمعا مثاليا يسوده حب الخير وتحكمه الروحانية المثالية العالية .

ان ما يقال عن وضع سبق دعوة الشيخ محمد له صفته ودالته في الشريعة والخلق والمعاملة يقوم به رجال العلم وينهض

به امراءَ ذلك الزمان في رحاب الفضيلة والخير .. كل ذلك لا حقيقة له ولا أَساس له من الصحة وليس ثمة دليل على صحته وأَثره إذا كنا نجد في هذا الحيز الضيق من المكان واهله ما تحدثنا عن بعضه .

الباب الخامس

الفصل الأَول

الحياة العلمية قبل دعوة الشيخ

لم تكن الحياة العلمية باحسن حالا من الجوانب الأُخري في المدة التي سبقت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما عدا بعض العلماءَ المتخصصين في مذهب الإِمام أَحمد بن حنبل بحكم أَنه المذهب السائد في نجد والذي عليه القضاءَ والافتاءَ وهؤلاءَ العلماءَ قل ان تجد لهم مجالات في سائر العلوم ما عدا فقه هذا المذهب . فالحياة في خشونتها ونصبها وعدم توفر السبل للطلب والتحصيل كل ذلك يحول بين الطلبة وبين فرص التعلم والتعليم لهذا تجد العلماءَ قلة وإِذا وجدوا فعلومهم مقتصرة على فقه مذهبهم وهم يعولون في تعليمهم على علماءَ الشام ودمشق والقاهرة أَمثال منصور البهوتي وموسى الحجاوي ومرعي بن يوسف وشهاب الدين العسكري ..

وإِذا اضفنا إِلى هذا ما ذكره الشيخ عبد الله بن بسام في مقدمة كتابه (علماءَ نجد) من أَن جهلنا بعلماءَ نجد هو جزءَ من الجهل العام بتاريخ المنطقة كله والتبعة على العلماءَ حيث لم

يدونوا تاريخهم ولم يترجم المتأخر منهم لمن قبله حتى عفا الزمن على اسمائهم فضلا عن أخبارهم وحياتهم [1] .

وهناك مدينتان في نجد اشتهرتا بعلمائها هي : أُشيقر وقد تكاثر بها الفقهاء حتى قيل أنه يوجد بها في وقت واحد أربعون فقيها كلهم يصلحون للقضاء .

والمدينة الثانية العيينة قال ابن بسام : حدثني والدي وهو من حفظة التاريخ أن بها أكثر من ثمانين عالما يدرسون العلم في جوامعها في وقت واحد .

ومن علماء نجد المشتهرين أحمد بن عطوة صاحب الجبيلة المتوفي بها عام (١٩٤٨ هـ) ومن أقرانه عبد الله بن رحمة وعبد القادر بن بريد .. وكان بن عطوة متمكنا في المذهب الحنبلي وقد سافر إلى دمشق ودرس على شهاب الدين العسكري وعلى علي بن سليمان المرداوي مؤلف الأنصاف والشيخ يوسف بن عبد الهادي وله مؤلفات في المذهب منها (التحفة البديعة والروضة الانيقة) و (درر الفوائد) وله تلامذة من بينهم أحمد بن مشرف [2] ومحمد بن إسماعيل وسليمان بن علي .

---

(١) علماء نجد .
(٢) الدكتور العثيمين في كتابه الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ومن له باع في الفقه وغيره على غير المألوف من علماء نجد عثمان بن قائد المولود بالعيينة فكانت له مؤلفات وبحوث في مجالات متعددة ومن بينها (نجاة الخلف في اعتقاد السلف) وتوفي بالقاهرة عام (١٠٩٧ هـ) [١] .

وعلى طريقة ابن قائد الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل والشيخ سليمان بن علي بن مشرف والشيخ منيع بن محمد العوسجى [٢] .

ومن علماء نجد الذين تلقوا العلم عن علماء الشام الشيخ أبو نمي بن راجح تلميذ الشيخ مرعي بن يوسف مؤلف الغاية والشيخ زامل بن سلطان تلميذ الشيخ موسى الحجاوي مؤلف الاقناع .

وعن طريق هؤلاء وغيرهم انتشر المذهب الحنبلي في نجد وأخذ به عامتهم ولكن هؤلاء العلماء لا تدعمهم قوة تزع العامة عن جهلهم وغوايتهم وتردع أصحاب البدع والضلال عن التهوك فيما يخالف الشرع وينأي بالامة عن مهاوي الردى والطرق الملتوية الخبيثة بل أن بعض هؤلاء العلماء يزينون

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن بسام .

للعامة صنيعهم ويمدون لهم في غيهم ويسلكون بهم الطرق المعوجة فأصبح كل يعمل على شاكلته وكل حزب بما لديهم فرحون ..

بل أن بعض هؤلاء العلماء ليتكسبون بعلمهم ويتخذونه سلما للوصول إلى أغراضهم ومطامعهم مما نجد أثره في أشعار بعض الشعراء وأخبار بعض الكاتبين .

كما أن سلطة الحسبة تكاد تكون مفقودة وغيرة العلماء لا أثر لها في ردع أصحاب البدع والخرافات والدجل واتخاذ الأولياء والأشجار والأحجار اندادا من دون الله ..

يحدثنا ابن غنام في تاريخه عما يجري في عرض وادي حنيفة من بدع وشرك واستباحة لمحارم الله وتعد على حدوده عند قبر زيد بن الخطاب وشجرة الذيب وعند (قريوه) في الدرعية وفي شعيب (غبيراء) وفي شعيب (البليدة) وشجرة في (الطرفية) من الدرعية و (غار بنت الأمير) و (الولي تاج) [1]. وغير هؤلاء بما يعطينا أنه لا أثر للعلم والعلماء في ذلك الزمان إلا بمقدار ما يفتون لمن جاءهم أو يقضون له فقط وما سوى ذلك فأمره إلى أهله وحبله على غاربه .

---

(١) ابن غنام .

ومثل هذا لا يسمى علما صحيحا يعتمد على القول والعمل والجهاد في سبيل ثمرة العلم وما أَخذ الله الميثاق على أهله ليبينوه للناس ولا يكتمونه ويحققون معنى قوله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة

الفصل الثاني

محمد بن عبد الوهاب

نشأته تعلمه ابتداء دعوته اعداء الدعوة

أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من المشارفة من الوهبة من تميم فهو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد ابن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف .

وكانت أسرة آل مشرف ذات شهرة ومكانة في العلم انجبت عدة علماء كان لهم اليد العليا في العلم والتحقيق والديانة منذ القرن العاشر الهجري فمنهم القاضي عبد القادر بن بريد بن مشرف وأحمد بن محمد بن مشرف وسليمان بن علي مرجع علماء نجد في كثير من المسائل وكذلك ابنه عبد الوهاب وإبراهيم وأحمد القصير [١] .

ولد الشيخ محمد عام (١١١٥ هـ) في بلدة العيينة وحفظ القرآن الكريم قبل بلوغه السنة العاشرة من عمره - كما يقول ابن غنام - ثم أخذ في دراسة الفقه الحنبلي على ابيه وكان إلى جانب ذكائه وسرعة خاطره وقوة ذاكرته كان طموحا مقبلا

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدكتور العثيمين .

على التحصيل إقبالا منقطع النظير وكان مقام أسرته المادي والعلمي مشجعا له على مواصلة الدرس والانقطاع له بين اقرانه من أفراد اسرته الذين مجال التنافس في تحصيل العلم بينهم واضح وكانت دار والده ملتقى طلبة العلم كما كانت محل القضاء والفتيا مما جعل الغلام يستفيد ويستزيد من هذه الظاهرة حتى لقد قال الأب استفدت من ولدي محمد فوائد من الاحكام قبل بلوغه [1] وقال عنه : (ان له فهما جيدا ولو يلازم لظهر في الحفظ والاتقان آية) .

ولقد حج في سن مبكرة وسافر للمدينة وبقي بها مدة شهرين تقريبا يختلط بعلماء المدينة والوافدين إليها وربما كان من ضمن من اجتمع به الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف شيخه في المستقبل .

ولقد عاد بعد هذه الرحلة إلى العيينة أكثر شوقا وتحفزا لمواصلة العلم فاكب إلى جانب دراسته للفقه الحنبلي على كتب التفسير والحديث والتوحيد وكانت هذه فاتحة عهد جديد بالنسبة لتفرده بدراسة هذه الكتب والاكباب عليها وبدأ يتحدث عما فهمه وينشده في من حوله ولكنه لا يجد أذنا

(١) المرجع السابق .

صاغية وما يقوم به في ذلك الوقت لا يعتبر دعوة وإنما عرض وتشويق وتحسين .

ثم بدا له أن يغادر بلده العيينة لاستكمال تحصيله وربما وجود جو من الحرية والجهر أرحب وأقرب .

يبدوا أن حجته الأولى رغبته في إعادة الكرة ليحج ثانية ويجتمع بمن يجتمع به من العلماء والفضلاء هناك من علماء الحرمين وغيرهم ممن يفدون إلى الحج.. لقد حج ثانية ومكث في مكة ما شاء الله ثم واصل سيره إلى المدينة حيث وجد الجو العلمي مهيئا هنالك في كثير من العلوم والفنون وكان يستقرئ حلق العلماء ويعب من مناهل العلم ويأخذ عن علي الداغستاني وإسماعيل العجلوني ولكنه ركز على الشيخين عبد الله بن سيف ومحمد حياة السندي فلقد تأثر بهما واثرا في حياته العلمية ومستقبله العلمي والاصلاحي ولقد اجازه في كل ما حواه عن عبد الباقي أبي المواهب الحنبلي قراءة أو تعلما وتعليما وكان إعجابه بالإمام ابن تيمية سببا في تأثر تلميذه به وكان على علم تام بما عليه الحال في نجد [1] .

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور العثيمين .

أما محمد حياة السندي فكان من السلفيين الموهوبين وكان محاربا للبدع والخرافات وكان ميالا إلى فقه السنة والأحاديث النبوية وتخرج عليه عدد من العلماء في هذا المجال وغيره ممن أصبحوا أعلاما في كثير من البلدان الإسلامية وكان ضد التعصب للمذاهب الفقهية (١) .

ولقد عاد الشيخ إلى العيينة مقتنعا من منهجه راضيا عن سلوكه مستمدا من الله العون على مواصلة دربه في قراءة كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والجهر بما لديه نوعا ما فكانت هذه الارهاصات وهذه البحوث والمحاجة تقدمة لما سوف يكون ولكن بعد أن يستكمل استعداده ويتسلح بسلاح قوي مدعوما بالحجة والمنطق .. لقد قرر السفر أيضا إلى جهة أخرى بعد أن مكث في العيينة قريبا من سنة .. ولقد سمع بمدرسة في دمشق تدرس الفقه الحنبلي ولكنها على منهج ومشرب ابن تيمية فلماذا لا يأتيها ويتزود بما لديها فسافر على أساس هذه الرغبة ولكن ظروفه لم تمكنه من السفر إلى الشام ووجد في البصرة ما جعله يرغب الاقامة فيها خصوصا وقد وجد بها شيخا على مشرب مشائخه في المدينة هو الشيخ محمد المجموعي الذي درس عليه علوم اللغة العربية وتمكن منها . .

(١) المرجع السابق

وطاب له هنالك أن يجهر بدعوته نوعا ما لاسيما وان ذلك الوسط الذي يعيش فيه كان مشحونا بالبدع والخرافات لايطيب العيش لطالب علم أمثال الشيخ محمد أن يراها ويسكت عليها فهو يقول عن نفسه : (كان ناس من مشركي البصرة يأتون إلي بشبهات يلقونها علي فاقول وهم قعود لدي لا تصلح العبادة كلها إلا لله فيبهت كل منهم) .

وكانت الأحساء مدينة علمية يكثر فيها العلماء من شتى الجهات وبها مدارس للتحصيل وتعليم العلم كما أن بها أناسا من أهل نجد ومن قبيلة الشيخ محمد فلذ له أن يزور الأحساء ويتزود من علمائها ما يمكنه من التزود ويبحث معهم ويعرض لهم مذهب السلف الذي هو اسلم واقوم من غيره ومن علمائها الذين اجتمع بهم واخذ عنهم وناقشهم عبد الله بن فيروز وعبد الله بن عبد اللطيف ومحمد بن عفالق . .

وقد بلغ الشيخ أن والده قد عزل من قضاء العيينة (عام ١١٣٩ هـ) فانتقل إلى حريملاء فاتجه ابنه إلى حريملاء لاحقا بوالده والمرجح أن عودته إلى نجد كانت بين سنتي (١١٤٤ هـ و ١١١٩ هـ) فبقي مع والده في حريملاء قرابة ثلاث سنوات وقد وقع بينه وبين والده خلاف ربما عند تصلب

الابن في الدعوة أو عند ما يتقاضاه الوالد من أجر على القضاء وقد قام في هذه الاثناء بتأليف كتابه (كتاب التوحيد) وهو لب دعوته وثمرتها وقد لقي رواجا وحماسة واتتشارا .. وبعد وفاة والده اتجهت الأنظار إليه ووفدت عليه الوفود واشتهر امره أكثر من ذي قبل وممن استحسن الدعوة ومال إليها عثمان ابن معمر أمير العيينة ..

ويقال ان شدته في الدعوة وحماسته أثارت عليه بعض الجهات وحملت اناسا في حريملاء يقال لهم (آل حميان) على الاعتداء عليه ومحاولة اغتياله . لكن الدكتور العثيمين لا يري أن تلك كانت سببا في هجرته إلى العيينة [1] .

ولكون العيينة مسقط رأس الشيخ ولكونها أرحب وأجدر باستقبال دعوته ولكونها أكبر مدينة في المنطقة وأقواها مما يجعلها إذا استقبلت الدعوة تروج وتنتشر بسرعة وبكثرة ولكون أميرها استقبل الدعوة ورحب بها .. كل ذلك حمل الشيخ على الهجرة إليها وكان انتقاله إلى العيينة عام(١١٥٥ هـ)

وحينما قدم الشيخ العيينة استقبله ابن معمر ورحب به وانعقدت بينهما رابطة الألفة واستجاب ابن معمر لكل أوامر

---

(١) العثيمين .

الشيخ وفي النهاية زوجه الجوهرة بنت عبد الله بن معمر وكانت امرأة ذات منصب ومكانة اجتماعية وقوة شخصية .. فاجتمعت للشيخ وسائل القوة والنفوذ والاستعداد ووجد مهمته وسيرورة دعوته يسيرة سهلة . .

وكان أول ما بدأ به الجد في إزالة مظاهر الاعتقادات الفاسدة والشرك وتعظيم الأولياء والتبرك بهم من أمثال الشجرة التي يسمونها شجرة الذئب والقبة المبنية على قبر زيد بن الخطاب كانت مقصد الجهال ومحط أفئدة كثير من أهل المنطقة وكان للشيخ انصار في مدينة الدرعية شرعوا في إزاحة مالديهم من المحذورات .

ومما زاد الاستجابة لدعوته أن هذه الأعمال التي قام بها والتي كان يظن أنها ستضره لم ينله منها أذى .. ولم تقتصر دعوته على هذا فحسب بل أراد من مجتمع العيينة أن يكون نقيا صالحا بعيدا عن كل ما يشينه أو يدنسه فكان يجمع الناس على صلاة الجماعة وقد اعترفت لديه امرأة بالزنى وتوفرت شروط الرجم فرجمها .. وبدأ يراسل العلماء ويشرح لهم دعوته وكان قاضي الدرعية عبد الله بن عيسى واسطة بينه وبين علماء الرياض وعلماء منفوحة وكان رجلا صالحا فاضلا قال عنه

الشيخ : (ما نعرف في علماءَ نجد ولا علماءَ العارض ولا غير أَجل منه) (١) .

ولم تكن هذه الدعوة لتظهر وتسود المجتمع وتنفي ما كان عليه من غواية وانحراف دون أَن تلقى مقاومة ومصادمة وسلبيات من علماءَ هذا المجتمع فهم إذا قبلوها وانقادوا لها بدون معارضة إما قاصرون في معلوماتهم وادراكهم عن أَن يفهموها ويطبقوها ويدعو الناس إليها .. وإما أَن يكونوا على علم بها ولكنهم قد اغفلوا علمهم بها وكتموه وتركوا الناس يتهوكون في الضلال وكلا الأَمرين كبير وخطير ..فكثير منهم أَخذته العزة بالإِثم وناصب الدعوة العداءَ وقابلها بالرد والصد والانكار ..

ومن هؤلاءَ عبد الله المويس قاضي بلدة حرمة وسليمان بن سحيم قاضي منفوحة وعبد الله بن عيسى قاضي الدرعية الذي كان الشيخ يثني عليه قبل . وعبد الوهاب بن عبد الله بن عيسى وغيرهم . وأَشد المناوئين والمعارضين عبد الله المويس وسليمان بن سحيم فلقد كان سليمان بن سحيم ممن استجاب للدعوة في مبدأَ الأَمر وانقاد لها ثم مالبث أَن تنكر لها وقاومها

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب لابن عثيمين .

وهذا ما أضعف مركزه حينما أخذ يبث الرسائل ويجري الاتصالات ضد هذه الدعوة ولكن مع ذلك فقد وجدت رسائلة أذنا صاغية واستجابة من الحكام والعلماء والأفراد خارج نجد وداخلها ويبدو أنه استجاب للدعوة قيل من باب المجاملة والمواربة ظنا منه أن هذه الدعوة سوف تنحصر في نطاق ضيق وسوف لا تبلغ ما بلغت ولئلا ينهض للمقاومة وحده ولما رأى من المويس ومن ابن عيسى وغيرهم المعارضة نكص وقلب ظهر المجن وأعلن العداء السافر .

أما المويس فكان على خط واحد في العداء والمنابذة والرد حتى قال عنه الشيخ : (اقطع أن كفر من عبد قبة أبي طالب لايبلغ عشر المويس وأمثاله) .

ويبدو أن قوة الحق التى يتمسك بها الشيخ ونصاعة مايدعو إليه وحجته القائمة فيه جعلت من أسلوب الشيخ الذي يعامل هؤلاء به. فيه شيء من القسوة والرد . أحيانا فهو يقول لقاضي (الدرعية) أنتم ومشائخكم ومشائخهم لم يفهموا دين الإسلام ولم يميزوا بين دين محمد صلى الله عليه وسلم ودين عمرو بن لحي .)

وقوله : (من زعم من علماء العارض أنه قد عرف معنى

لا إله إلا الله أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت أو زعم مشائخه أن أحدا عرف ذلك فقد كذب وافترى) .

ولكن ألم يكن ابن سحيم في صفاقته وتهوره وكذبه ، وافترائه يقول عن الشيخ لعلماء البصرة والأحساء حسبما يرويه عنه ابن غنام . (إن هذا الشخص مبتدع جاهل مضل ضال من بضاعة العلم والتقوي عاطل) .

وعلى كل فقد بلغت هذه الرسائل مبلغها خصوصا لدى سليمان بن محمد بن عريعر حاكم الأحساء فكتب إلى عثمان ابن معمر أن يبعد عنه هذا الرجل الذي هو محمد بن عبدالوهاب واغلظ في الكتابة وهدده وتوعده . ويبدوا أن وراء الأمر لدى ابن عريعر ما هو أعظم إذ يخشى أن تتطور هذه الدعوة فتهدده في امارته ــ كما حصل ــ وابن معمر على صلة بحاكم الأحساء قوية إذ أن العيينة تعتمد في وارداتها على الأحساء تجارة ومعاملة كما أن حاكم الأحساء يمد أمير العيينة سنويا بمبلغ من المال .. مما حدا بعثمان بن معمر ان يتلطف إلى الشيخ ويطلب منه النزوح حتى ينظر في أمره .

وكما قلنا قد لا تكون رسائل ابن سحيم هي التي احكمت الأمر إلى هذا الحد ولكن نظر ابن عريعر إلى مستقبل الأيام هو الذى حدى به إلى تصرفه هذا .

الفصل الثالث

لقـــاء الدرعية

لما لم يكن عثمان بن معمر قد وفق للمحافظة على مبدئه مع الشيخ والتضحية بصداقة ابن عريعر ، وبما عسى أَن يناله منه مصالح أَو يتعرض له من تنكيل أَو منابذة وربما اهانة .. فقد أَفضى إلى الشيخ بان يفارقة وقتا ما حتى تزول غضبة ابن عريعر وحتى تسفر المسأَلة عما تسفر عنه وقد كانت الدرعية بها عدد من الانصار والأَعوان الذين يكاتبون الشيخ ويأْتون إليه ويلبون دعوته ومنهم ثنيان أَخوا الأَمير محمد ومشاري وابنه عبد العزيز وآل سويلم كان ذلك سنة (١١٥٧ هـ) .

وكانت الدرعية على جانب من القوة والاستعداد . وكان العداءَ بينهم وبين ابن عريعر قائما فقد صدوا هجمة قام بها سعدون بن محمد رئيس بني خالد على بلدتهم سنة (١١٣٩ هـ) وكان لديهم تفكير في مهاجمة العيينة وكانوا خير معين لدهام ابن دواس في توطيد حكمه في الرياض وإذا فمن البواعث التي جعلت محمد بن سعود يستقبل الشيخ محمد أَن ابن عريعر كان طرفا في اخراجه من العيينة [١].

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور العثيمين .

لقد سار الشيخ محمد من العيينة في حماية رجال ابن معمر فحل ضيفا على بيت محمد بن سويلم العريني وزاره فيه بعض أَنصاره وأَعوانه واقتضى نظرهم أَن يوسطوا المرأَة الكريمة موضي بنت أَبي وهطان من آل كثير زوجة الأَمير محمد وكانت ذات عقل وبعد نظر .. فذهبوا إِليها واخبروها بمكانة الشيخ وسمو قدره وسلامة ما يدعو إِليها .. فوقر في قلبها من أَول وهلة محبة الشيخ وما يدعو إِليه ..

ففاتحت زوجها الأَمير محمد في الأَمر وقالت له أَن هذا خير ساقه الله إِليك وقد حل ضيفا عندك فاكرمه وعظمه واستجب لما يدعو إِليه .. فشرح الله صدر الأَمير محمد بن سعود لذلك واستجاب بدون تردد وذهب إِليه بنفسه في بيت ابن سويلم فسلم عليه وقابله مقابلة حسنة وقال له : ابشر ببلاد خير من بلادك وابشر بالعز والتمكين . .

فرد الشيخ قائلا : وأَنا ابشرك بالعز والتمكين فهذه كلمة (لا إِله إِلا الله) من تمسك بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد.. وأَفاض الشيخ محمد بما أُوتي من حجة ومنطق وحسن أَداء بشرح مالديه وكله يؤمن عليه محمد بن سعود ويستجيب له . ولقد عقب محمد بن سعود على شرح الشيخ المسهب وقال : أَريد من الشيخ موافقتى على مسأَلتين هما :

١ - في القيام بنصرتك والجهاد في سبيل الله وبما يفتح الله علينا في سبيله نخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا .

٢ - لي على أهل الدرعية شيء أخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تمنع هذا .

فقال الشيخ : أما المسألة الأولى فابسط يدك الدم بالدم والهدم بالهدم .

وأما الثانية فلعل الله أن يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير من ذلك .

فبسط محمد بن سعود يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد في سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١)

وهكذا يتم اللقاء بين الأمير محمد بن سعود وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب لقاء الخير والبر والفضيلة لقاء الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة العدل ودحض الخرافات والتألية وطلب النفع ودفع الضر عند من

---

(١) تاريخ البلاد السعودية للعجلاني .

لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .. لقاء بناء الدولة وبسط النفوذ وتحرير الأرض وخلود الدعوة والدعاة .. لقاء العلم والإيمان والمصحف يؤيده السيف والحجة ترد الكبرياء والزيغ .. وإن أصابها ما أصابها من تقهقر وعنت .

فلها في النهاية الغلب وحسن العاقبة .

التغيرات بالدرعية :

بدأ الشيخ من أول يوم أسلوبه التعليمى وبدأ الناس يتجمعون حوله ويتابعون دروسه وتوجيهاته وعلى رأس هؤلاء أنصاره الأول وهم اخوة محمد بن سعود ثنيان ومشاري وفرحان والشيخ أحمد بن سويلم والشيخ عيسى بن قاسم ومحمد الحزيمي وعبد الله بن دغيثر وسليمان الوشيقري ومحمد بن حسين واخوه ..

وبدأت الهجرة من البلدان والأقاليم الأخرى بما فيهم بعض رجال العيينة حتى لان عثمان بن معمر أمير العيينة قدم بنفسه إلى الشيخ وطلب منه العودة إلى العيينة وبايعه على السمع والطاعة ووعده النصرة والدفاع ولكن الشيخ قال ليس هذا إلي ولكنه للأمير محمد بن سعود فعرض ذلك على محمد ابن سعود ولكن محمد قال أرح نفسك ما إلى هذا من سبيل .

ولما تكاثر الطلبة والمهاجرون مما ليس في وسع إمارة الدرعية أَن تقوى على استقبالهم وإسكانهم والقيام بشئونهم أَخذ الشيخ يستدين ويؤمن لهم السكن وبعض الحاجيات حتى لأَنهم يأَخذون الأَجرة ليلا ويواصلون حضور مجالس الشيخ نهارا .

وخصص درسا في التوحيد صباح مساءَ للرجال والنساءَ والصبيان فاجمع أَهل الدرعية كلهم على هذه الطريقة وواصلوا دورسهم حتى فقهوا التوحيد واستناروا فيه .

ولم تمض مدة حتى بدأَ الشيخ أَسلوبا آخر هو توجيه الكتب والرسائل إلى أَهل البلدان بلغتهم التي يفهمونها مرشدا ومبلغا ومحذرا ومنذرا فاقبل الناس على هذه الكتب والرسائل فمنهم من هداه الله من أَول وهلة ومنهم من تردد حتى حين .

وكان محمد بن سعود وأَولاده وحاشيته يقومون بزيارة الشيخ صباح مساءَ وقد خصص لهم درسا في التوحيد وكانوا معه في غاية الأَدب والاحترام والتجلة فتمكنوا من معرفة التوحيد وفرقوا بينه وبين ما سواه مما كانوا عليه قبل .

وبهذا تغير أَسلوب الحياة في الدرعية ودب فيها النشاط والحركة على غير ما عهد فيها . فقد نشطت حركة التعليم وأَصبح له أَعوان يدرسون ويتولون الحسبة ويقومون بواجباتهم

الدينية . وكانوا يتلقون القرآن درسا وحفظا وكتابة وكذا غيره من مبادئ العلوم وكانت أصول الإسلام تدرس في اعقاب الصلوات وهدمت القباب والمعابد واحرقت الأشجار وعطل ما كان يلتجأ إليه أو يعاذبه أو يتبرك به من دون الله . ولم يمض زمن على هذا الأسلوب حتى عقل الناس دينهم واستجابوا لأوامر ربهم وبدأوا يطبقون الإسلام قولا وعملا وكان الجهاد في سبيل الله – وهو ذروة سنام الإسلام – أهم ما كان الشيخ يدعو إليه ويأمر به ويشجع عليه فلن تقوم دعوة لا يصحبها قوة تشد أزرها وتحمى ظهرها وتدافع عنها وتحمل الناس عليها .

دعا المصطفى دهرا بمكة لم يجب
وقد لان منه جانب وخطاب
فلما دعا والسيف صلت بكفه
له أسلموا واستسلموا وأنابوا

فالجهاد في سبيل الله أس متين من أساس دعوته جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا كثير منهم بالكره ثم انصاعوا واستجابوا واحبوا وجاهدوا وهكذا سبيل الإسلام ونهجه .

ولم يمض على الدرعية كثير وقت حتى أَصبحت قاعدة عظمى لتجهيز الجيوش وتوجيه الدعاة واركاب الركبان لخرص الثمار وجباية كوات والاستنفار للغزو والاقبال والادبار والحركة الدائبة ..

ردود الفعل أمام حركة الجهاد :

فرق بين الدعوة يقبلها من يقبلها ويصدف عنها من يصدف عنها فرق بينها وبين أَن تشهر السلاح وتحمل الناس على الحق حملا لا خيار لهم فيه ولا تحديد إرادة .. فهذا الأَسلوب حمل بعض الناس على تغيير موقفه والتنكر لما استجاب له سابقا فقد قامت ثورة في حريملاءَ سنة (١١٦٥ هـ) وثورة في منفوحة سنة (١١٦٦ هـ) وثورة في ضرما سنة (١١٦٧ هـ) وتنكر الأَمير عثمان بن معمر لهذه الدعوة بعد أَن كان قائدا في جيوش الدرعية اثيرت حوله بعض الشبهات حتى قتل على أَيدي بعض المتحمسين للدعوة من جماعته سنة (١١٦٣ هـ) [1]

ولم يزل أَعداءَ الدعوة ومعارضوها يحيكون لها الدس والمؤامرات سرا وعلنا في نجد وفي غيرها فقد سجن فريق من انصار الدعوة في مكة المكرمة سنة (١١٦٢ هـ) .

الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور العثمنين :

وكان أخ الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ممن تولى كبره وجاهر ضد الدعوة فقد كتب رسائل وبعث بكتب وأبدى نشاطا ملحوظا حتى أن الشيخ أمر بقتل حامل هذه الرسائل من حريملاء .

وممن جاهر بالعداء أيضا مربد بن أحمد التميمي من حريملاء فلقد سافر إلى اليمن سنة (١١٧٠ هـ) يحمل مبررات المعارضة إلى الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني الذي قد بعث بقصيدة يؤيد فيها الشيخ محمد ويثني عليه .

ولكن هذه الأنشطة كلها قد باءت بالفشل وتخاذلت أمام هذه الدعوة التي تزداد كل يوم انصارا وأعوانا وتتمكن بالفكر وبالسيف في ربوع نجد وغيرها .

ومن العداء بالفكر وتجنيد القلم للردود والحجج والرسائل وما إليها إلى العداء العسكري وتجنيد القوى والمواجهة وجها لوجه ..

ولم يكن ذلك من نجد وأهل نجد فقد ظلت الدرعية تبني نفسها قرابة ثلاثة عشر عاما جعل المعارضة داخل نجد تتخاذل وتقف موقف المهزوم .. ولكن خطرا يهدد الدرعية ويترقب الفرص لغزوها ذلكم هو الأحساء وحكامها آل عريعر والحجاز

وحكامه الأَشراف وكلا الفريقين حاقدوموجع القلب من حكومة الدرعية وخطر الأَحساءَ وأَهلها أَقرب من حكومة الحجاز وأَكثر خطرا لغزو الدرعية . ولكن خلافا قد نشأَ بين أَسرة آل عريعر آخر ما كان متوقعا لغزو الدرعية .

وحينما سنحت الفرصة لحاكم الأَحساءَ عريعر بن دجين سنة (١١٧٢ هـ) لغزو الدرعية هو ومن انضم إليه من معارضي الدعوة من أَهل نجد فوجه حملته ولكنها فشلت وتخاذلت زاد أَهل الدرعية قوة ونشاطا بل لم يقفوا عند هذا الحد فوجهوا حملة للأَحساءَ سنة (١١٧٦ هـ) وقام زعيم نجران حسن بن هبة الله المكرمى بتوجيه حملة إلى الدرعية ويبدو أَن هدف هذه الحملة سياسي لا ديني وقد نجحت هذه الحملة واحدثت شرخا في صفوف جيش الدعوة مما حدا بالزعيم الخالدي ليزحف على على الدرعية منتهزا فرصة هزيمتها ولكن رغبته فشلت هو ومن كان معه من أَعداءَ الدعوة مثل دهام بن دواس مما اضطره لطلب الصلح مرة أَخري ودفع مال مقابل نقضه عهد الدرعية .

ولم يزل دهام من نقص في نقص حتى سنة (١١٨٧ هـ) حيث انهزم ليلا لا يلوي على شيءَ واحتل الرياض عبد العزيز ابن محمد بن سعود بدون مقاومة .

وبسقوط الرياض في أَيدي آل سعود انفتح لها الطريق لضم بلدان الجنوب إِليها كالخرج والحوطة ونعام والحريق .. ولكن زيد بن زامل وهو خصم قوي حاول مرة أَخرى أَن يستنجد بالمكرمي ويدفع إِليه مبلغا من المال ليعيد الكرة في مهاجمة الدرعية ففعل ولكن المكرمي هذه المرة فشل وأَصيب بمرض حال بينه وبين الجد في مهاجمة الدرعية من ناحية ومن ناحية أَخرى فقد ازدادت الدرعية قوة واستعدادا .

بعد ذلك لم يبق لدى أَساطين العداءَ إِلا الاستسلام والانقياد للدرعية فقد وفد إِليها كل من أَمير الدلم زيد بن زامل وأَهل الزلفي ومنيخ وسليمان بن عبد الوهاب أَخو الشيخ وغيرهم (١) .

وأَصبحت الأَحساءَ مهددة بالسقوط في أَيدي السعوديين ولهذا فقد أَمن جانب الأَحساءَ والجنوب ..

أَما العدو الثاني وهو الحجاز ومن ورائه السلطنة العثمانية فالجو بينهما وبين الدرعية معكر والوضع مستتب ونظرة الحجاز إِليها نظرة العدو والحذر وفي سنة (١١٨٥ هـ) طلب الشريف أَحمد من أَهل الدرعية أَن يبعثوا من علمائهم من يشرح لهم

(١) الدكتور العثيمين .

واقع العقيدة ولب الدعوة التي يدعو إليها الشيخ محمد فبعثت الدرعية الشيخ عبد العزيز الحصين ومعه رسالة من الشيخ محمد إلى الشريف أَحمد وقد شرح الحصين عقيدة الشيخ وحقيقة ما يدعو إليه .

وهكذا استمر الوضع متأَرجحا مدة إمارة الشريف أَحمد وخلفه الشريف سرور أَما الشريف غالب فقد طلب إيفاد عالم يباحث علماءَ الحجاز ويبين لهم مالديه فبعث الشيخ الحصين أَيضا ولكن علماءَ مكة رفضوا مباحثته ولا يؤمن أَن يكون هذا الرفض بايعاز من الشريف غالب . فلقد أَفتى علماءُ المدينة بقتال النجديين ولقد وجه الشريف غالب حملة لقتال النجديين عام (١٢٠٥ هـ) لكنها باءَت بالفشل ولم تزل الدرعية آخذة بزمام المبادرة مع الشريف ومع غيره والقبول يصحبها مع كل عدو يحاول النيل منها أَو مهاجمتها من أَي جهة كانت .

الفصل الرابع

عقيدة الشيخ محمد

عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي عقيدة السلف أَهل السنة والجماعة المورد العذب الذي لم تكدره البدع ولم ترنقه الخرافات والخزعبلات ولم تشتبه فيه الأَقوال أَو يماري فيه الجهال . اعتقاد الفرقة الناجية ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأَصحابه وخلفاؤه من بعده وسلف هذه الأَمة الذين أَخذوا العقيدة صافية وساروا بها على نهج واحد ومبدأ لا تشوبه الشوائب ولا تتفرق به الاهواءَ .. حتى مكنهم الله وأَعزهم وأَظهرهم على من خالفهم وبلغوا بهذه العقيدة أَطراف الدنيا فتحا ونشرا وهداية .. وهذا ملخص عقيدته رحمه الله كما كتبها بيده : يؤمنون بالله وبما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل وأَنه ليس كمثله شيءَ وهو السميع البصير . فهم وسط في أَفعاله تعالى بين القدرية والجبرية ووسط بين المرجئة والوعيدية وبين الحرورية والمرجئة والجهمية وهم وسط في أَصحاب رسول الله بين الروافض والخوارج ..

ويعتقدون في القرآن أَنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأً وإليه يعود وأنه تكلم به حقيقة وانزله على عبده ورسوله وامينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده . نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ويؤمنون بالقدر خيره وشره وحلوه ومره وأَنه تعالى فعال لما يريد ولا يكون في ملكه شيء إلا بارادته ولا يخرج عن مشيئته وليس شيء في العالم يخرج عن قدرته ولا يصدر إلا عن تدبيره ولا محيد لاحد عن القدر المحدود ولا يتجاوز ماخط له في اللوح المحفوظ .

ويعتقدون بكل ما أَخبربه النبي صلي الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر ونعيمه وبإِعادة الأَرواح إلى الأَجساد فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا تدنوا منهم الشمس وتنصب الموازين وتوزن بها أَعمال العباد وتنشر الدواوين فآخذ كتابه بيمينه واخذ كتابه بشماله .

ويؤمنون بالحوض ويؤمنون بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الاذن والرضى ويؤمنون بالصراط وبالجنة والنار مخلوقتان وان المؤمنين يرون ربهم لا يضامون في رؤيته . وبأَن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين ولايصح

ايمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته . وأَن أَفضل أُمته خلفاؤه الراشدون ثم علي ثم بقية العشرة ثم أَهل بدر ثم أَهل الشجرة أَهل بيعة الرضوان ثم سائر الصحابة رضوان الله عليهم .

ويعترفون بالفضل والسبق لصحابة رسول الله وذكر محاسنهم والترضى عنهم والاستغفار لهم والكف عن مساوئهم والسكوت عما شجر بينهم واعتقاد فضلهم . ويترضون عن أَمهات المؤمنين المطهرات من كل سوءٍ ويقرون بكرامات الأَولياء وما لهم من المكاشفات إلا أَنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيء ولا يطلب منهم ما لايقدر عليه إلا الله تعالى . ولا يشهدون لاحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرجون لمحسنهم ويخافون على مسيئهم ولا يكفرون أَحدا من المسلمين بذنب ولا يخرجونه من دائرة الإسلام .

ويعتقدون باستمرار الجهاد مع كل إمام بر أَو فاجر وصلاة الجمعة خلفهم والجهاد ماض أَبدا إلى أَن يقاتل آخر هذه الأَمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . ويعتقدون وجوب السمع والطاعة لأَئمة المسلمين مالم يأَمروا بمعصية الله ومن ولي أَمر المسلمين واجتمع عليه الناس ورضوا به وجبت طاعته وحرم الخروج عليه .

ويرون هجر أهل البدع حتى يتوبوا ويحكمون عليهم بالظاهر ويكلون سرائرهم إلى الله ويعتقدون أن كل محدثة في الدين بدعة .

ويعتقدون أن الايمان قول باللسان وعمل بالاركان واعتقاد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهو بضع وسبعون شعبة أعلاها : لا إله إلا الله . وادناها أماطة الأذي عن الطريق .

ويعتقدون وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشعريعة المحمدية الطاهرة .

قال الشيخ : فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندي والله على ما نقول وكيل .

وهي عقيدة – كما ترون – سالمة من الشوائب مصدرها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا مجال فيها لقول فلان ولا علان متبعة غير مبتدعة قائمة على الدليل مستندة إلى النص واقفة عند حدود الله ملتزمة بشرائعه .

التوحيد في دعوة الشيخ :

التوحيد هو لب اللباب وهو موضع دعوة الأنبياء مع أممهم وهو الذي هدى الله له المهتدين فأخذوا به صافيا من كل شائبة

نقيا من كل هوى خالصا من كل كدر فبروا وأبروا وكانوا هم الفرقة الناجية والأَمة التي أَراد الله لها الخير والسلامة ..

وزاغ عنه أَمم كثيرة وأَصبحوا فرقا واحزابا وشيعا وأَمما كل حزب بما لديهم فرحون .

ودعوة الشيخ تريد أَن يكونوا من الفرقة الناجية تريد منهم أَن يتحدوا في عقيدتهم لكي يتحدوا في جهادهم ويتحدوا في نهجهم لكي يتحدوا في عملهم تريدهم يكونون كما كان سلفهم الصالح سادوا وشادوا وبلغوا ما بلغوا بعقيدة واحدة وبمشرب واحد فكانوا خير أَمة أَخرجت للناس بعيدين عن التأَويل والتحريف والاهواء متمسكين بكتاب ربهم وسنة نبيهم قولا وعملا واعتقادا . .

ولهذا وقف الشيخ امام التوحيد شارحا ومبينا ومستدلا ومحررا ووقف امامه مصلحا وداعيا ومرشدا .. فبصلاح هذا الجانب واجتماع الناس عليه تصلح لهم أَمورهم ويتحد نهجهم وتستقيم وحدتهم .. ولهذا ركز الشيخ على هذا الجانب وأَفاض فيه ..

فالتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أَقسام :

أَ ـ توحيد الربوبية .

ب ـ توحيد الالوهية .

جـ ـ توحيد الأَسماءَ والصفات .

فتوحيد الربوبية هو الاقرار بان الله رب كل شيءَ ومليكه وخالقه ورازقه وانه المحيي المميت النافع الضار المتفرد باجابة الدعاءَ عند الاضطرار الذي له الأَمر كله وبيده الخير كله .

ويدخل في هذا القسم الإيمان بالقدر خيره وشره وحلوه ومره .

وهذا القسم هو الذي أَقر به المشركون بنصوص القرآن .

وأَما توحيد الالهية فهو إخلاص التأَله لله من المحبة والخوف والرجاءَ والتوكل والدعاءَ وجميع العبادات ظاهرها وباطنها وان لا يعرف منها شيء لغيره لا لملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عن غيرهما .

وهذا هو أَول واجب على المكلف وهو الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وأَممهم وهو الذي قصد الشيخ بيانه وابدى فيه واعاد وحقق مسائله وابدي خفاياه وقال عنه الدكتور منير

العجلاني في كتابه (تاريخ البلاد العربية السعودية) قال :
(تلك طائفة من أَقوال الشيخ في التوحيد والعبادة والشرك قد تبدو لغير الواقفين على أَحوال نجد والبلاد الإِسلامية في زمن الشيخ أَقوالا هادئة لا تثير اعصاب مسلم . ولكنها كانت في زمانها وبعد فترة من زمان الشيخ لغم هائل من متفجرات (الديناميت) أَو قنبلة ذرية وضعها الشيخ في أَسس المعتقدات والعادات المنتشرة في تلك الأَيام لتهدمها وتجعلها أَثرا بعد عين ذلك أَن كثيرا من أَهل نجد كان دينهم هذا الذي يقول الشيخ أَنه الكفر بكل دين وكانت عبادتهم هذه التي يقول الشيخ أَنها عبادة الأَوثان لا عبادة الله) ا هـ .

وأَما توحيد الاسماءَ والصفات فهو الاقرار بان الله على كل شيءَ قدير وبكل شيءَ عليم وانه سميع بصير وحي قيوم لا تأْخذه سنة ولا نوم وهو الايمان بما جاءَ في الكتاب والسنة من الاسماءَ والصفات واعتقاد ذلك على حقيقته من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل وهو لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أَفعاله .

فهذا يقرون بجنسه وان أَنكر بعضهم بعضه جهلا أَو عنادا .

وفي كتاب التوحيد أَبرز الشيخ رحمه الله حقيقة دعوته

وبيان أَدلته من الكتاب والسنة وبين ما كان شرما وما كان رياءً يؤدي إلى الشرك وما له علاقة بالشرك وحقق التوحيد ونفى ما سواه بالأَدلة والبراهين (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وبين فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب وان من حققه دخل الجنة وبين الخوف من الشرك والدعاءَ إلى شهادة أَن لا إله إلا الله وبين تفسيرها وتفسير التوحيد وان من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لدفع البلاءَ أَو رفعه وكذا ما جاءَ في الرقى والتمائم ومن تبرك بشجرة أَو حجر أَو نحوهما وبين الذبح لغير الله وما يذبح لله بمكان يذبح فيه لغيره وبين النذر لغير الله والاستعاذة بغير الله والاستغاثة وأَورد الأَدلة في قوله تعالى : (ايشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أَنفسهم ينصرون..) وقوله تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير .) وبين الشفاعة وقوله تعالى : انك لا تهدي من أَحببت ..

وعلى وجه العموم فقد أَتي على كل شيءَ فيه شرك أَو يؤدي إلى الشرك فيما يزيد على مائة باب مفصلة مبوبة مرتبة بمايصون به جناب التوحيد ويحفظه مما لم ينزل به الله سلطانا .

قال ابن بشر عن هذا الكتاب : (ما وضع المصنفون في فنه أَحسن منه) وقال الدكتور العثيمين : (ولا يزال كتاب

التوحيد حتي الوقت الحاضر الكتاب الذي يشد أنظار طلاب العلم أكثر من غيره من كتب الشيخ محمد) والف الشيخ محمد رحمه الله غير كتاب التوحيد مؤلفات منها :

١ ـ كشف الشبهات .

٢ ـ ومفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد .

٣ ـ والأصول الثلاثة وادلتها .

٤ ـ ورسالة في بيان شهادة ان لا إله إلا الله وبيان التوحيد .

٥ ـ والأربع القواعد .

٦ ـ والمسائل الخمس الواجب معرفتها .

٧ ـ وتفسير كلمة التوحيد .

٨ ـ ستة أصول عظيمة .

٩ ـ قصص الأنبياء .

١٠ ـ مسائل الجاهلية .

١١ ـ مختصر سيرة الرسول .

١٢ ـ مختصر زاد المعاد .

١٣ ـ التفسير لبعض سور القرآن .

١٤ ـ أصول الايمان .

١٥ ـ فضل الإسلام .

١٦ ـ كتاب الكبائر .

١٧ ـ نصيحة المسلمين .

١٨ ـ فضائل القرآن .

١٩ ـ مجموع الحديث على أبواب الفقه .

٢٠ ـ آداب المشي الى الصلاة .

٢١ ـ ابطال وقف الجنف .

٢٢ ـ أحكام الصلاة .

٢٣ ـ مختصر الانصاف والشرح الكبير .

هذا عدا الرسائل المطولة والخطب والنصائح فحياته (رحمه الله) كلها جهاد ونضال في سبيل اعلاء كلمة التوحيد وصيانتها من شعوذة المشعوذين ودس الدجالين وسدنة القبور وأرباب المصالح الدنيوية والمأولين واتباع الطرق والغلاة الذين الحقوا بهذا الدين ماليس منه وركبوا أهواءهم ومفترياتهم افتراء على الله فقد ضلوا واضلوا وهلك بسببهم أمم وأجيال فحسبنا الله ونعم الوكيل .

مسائل لج فيها الخصوم :

وقف الخصوم لدي مسائل نادي الشيخ ببطلانها ونص على أنها من أبرز ما يدعو إليه ومن أعظم المسائل التي ابتليت بها هذه الأمة وتشبث بها أولياؤها وسدنتها ومريدوها وقامت الخصومة حولها وهي :

١ ـ تقديس الأولياء والقبور فما ابتليت الأمة المحمدية بشيء مثلما ابتليت بهذه الظاهرة المؤسفة التي ابتليت بها عامتها وفتن بها خاصتها إلا من عصم الله وهذه والعياذ بالله من الأسباب التي جعلت الأمة تنحدر إلى مستوى من الجهل والسذاجة والخرافة لا مزيد عليها .. فهذا الاغراق في إقامة القباب حول الاضرحة والقبور والصلاة فيها واقامة المباخر وطلب الشفاعة من أصحابها هذه كلها ينكرها الإسلام وينهى عنها فليس في الإسلام وسيط بين الإنسان وربه وليس هناك من يشفع عنده إلا باذنه فلقد أصبحت هذه ثغرة في الإسلام يلج منها أعداؤه وقد تبناها سدنة القبور واحلاس القباب الذين جعلوها مصدرا لرزقهم وأداة لاعظامهم واحترامهم وقد حاكوا لها كثيرا من الحكايات

واختلقوا لها كثيرا من الأَحاديث وابتكروا كثيرا من الطرق التي يجتذبون بها السواد الأَعظم إليهم ضاربين بالنصوص الوعيدية التي جاءَت تنعى على من يعمل هذا العمل صنيعه عرض الحائط.

ولقد ذكر الشيخ ابن غنام نقلا عن ابن تيمية وغيره أَشياءَ لا حصر لها في البلدان الإسلامية . كما يفعل في مكة المكرمة عند قبة أَبي طالب وعند قبة أَحمد البدوي في مصر وعند قبة (منجي الغارقين) في اليمن مما حدا ببعض المفتونين أَن يصنفوا في ذلك كتبا سموها : (مناسك حج المشاهد) ويحكون عن بعض المشائخ منامات وأَباطيل وحكايات موبوءَة فيقولون عن بعضهم ، (كل خطوة إلى قبر حجة) (١) .

وذكر ابن غنام أَشياءَ مهولة عما كان في وادي حنيفة من هذه المشاهد والقباب والقبور والأَشجار والأَحجار قبل خروج الشيخ محمد بن عبد الوهاب كقبة زيد بن الخطاب وشجرة الذئب وغار غبيراءَ وشجرة الطرفية وقريوة وغار بنت الأَمير وغيرها .

---

(١) تاريخ البلاد السعودية .

فهل جاءَ بهذه نص صحيح صريح يبيح لهؤلاءَ هذه المواقف المخجلة المخزية .

وهل عملها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وسلف هذه الأمة الصالح .

بل لقد جاءَت النصوص من الكتاب والسنة وأقوال العلماءَ العاملين بردها ودحض مفترياتها وتطهير جناب التوحيد منها وبراءَة الصالحين من فتنتها .

التوسل والشفاعة :

ومن المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الشيخ وخصومه مسألة التوسل والشفاعة فالشيخ رحمه الله يدعو إلى الاتباع وترك الابتداع فالذي شرعه صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور أنها تذكر الآخرة والاحسان إلى الميت بالدعاءَ له والترحم له والاستغفار..فبدل هؤلاءَ الدعاءَ له بدعائه والشفاعة له بالاستشفاع به وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله عليه وسلم إحسانا إلى الميت قصدوا بها سؤال الميت وخصوا بقعته بالدعاءَ والتضرع أمامه .

فكيف يكون دعاءَ الميت وطلبه النفع واستدفاع الضر مشروعا وتصرف النظر عنه القرون المفضلة في صدر الإسلام

وسلامة منهج هذه الأَمة فيه ثم يوفق له ، الخلق أَهل المبتدعات والفتنة في العبادات قال الشيخ حمد بن ناصر بن معمر في رده على علماءَ الحجاز : قال صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاءَ الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأَمور فإِن كل بدعة ضلالة . إلى أَن قال : فالذي نعتقده وندين الله به أَن من دعا نبيا أَو وليا أَو غيرهما وسأَل منهم قضاءَ الحاجات وتفريج الكربات .. أَن هذا من أَعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين حيث اتخذوا أَولياءَ وشفعاءَ يستجلبون بهم المنافع ويستدفعون بهم المضار قال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاءَ شفعاؤنا عند الله .) ا هـ

فالشفاعة الحقة هي التي تطلب من الله وتكون بإِذنه ولمن يرضى قوله وعمله . قال تعالى : من ذا الذي يشفع عنده إلا بإِذنه وقوله تعالى : قل لله الشفاعة جميعا . وقوله تعالى : وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أَن يأْذن الله لمن يشاءَ ويرضى .

فبدون هذه الشروط التي نص الله عليها في كتابه وأَثبت أَدلتها لا شفاعة وكل ما يأْتونه مبتدعات ما أَنزل الله بها من سلطان .

الشفاعة ودعاء الاولياء

قال ابن القيم : وقد قطع الله الأَسباب التي يتعلق بها المشركون جميعا قطعا يعلم من تأَمله وعرفه أَن من اتخذ من دون الله وليا فمثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أَوهن البيوت لبيت العنكبوت .

فالمشرك انما يتخذ معبوده لما يحصل له الله من النفع والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأَربع . أَما مالكا لما يريد عابده منه فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا فإن لم يكن معينا له ولا ظهيرا كان شفيعا عنده . فنفى سبحانه المراتب الأَربع نفيا مرتبا منتقلا من الأَعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك وأَثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك والشفاعة بإذنه فهو الذي يأَذن للشافع وأَن لم يأَذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه .

وهذا هو معنى قوله تعالى : قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأَرض ومالهم

فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أَذن له .) ١ هـ .

القتال والتكفير :

قام جدل طويل بين الشيخ وبين خصومه حول هذا الموضوع فخصوم الشيخ يقولون أَن كثيرا من نصوص الإِسلام جاءَت لحماية المسلم من الكفر ومن القتال ما تشبث بلا إله إلا الله ويستدلون بحديث : أَمرت أَن اقاتل الناس حتي يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءَهم وأَموالهم .

وبحديث : اسامه الذي اشتد غضب النبي عليه السلام عليه حينما قتل رجلا بعد ما قال : لا إله إلا الله .

ويقولون أَن الآيات التي أَنزلت في عبدة الأَوثان لا يمكن أَن تؤخذ دليلا على تكفير المسلم أَو قتاله .

ويجيب الشيخ أَن هذه الأَحاديث التي تدل على أَن من نطق بالشهادتين دخل الإِسلام وعصم دمه وماله تشير إلى اولئك المشركين الذين لم ينطقوا بالشهادتين ونطقهم بها يؤخذ دليلا على أَنهم دخلوا الإِسلام لكن بعد الدخول في الإِسلام قولا ينظر واقعه عملا فان طبق تعاليم الإِسلام ونصوصه والتزم بمبادئه

فهو ولا شك مسلم وإلا فإن مجرد الشهادة لا تدخله في الإسلام عملا والتزاما وتطبيقا .

ويقول الشيخ عن هذه النصوص ان الأَحكام الموجودة في القرآن خالدة وقابلة للتطبيق في كل زمان ومكان فهذه النصوص يجب أَن تطبق على كل قوم بما في ذلك من انتسب إلى لإسلام ومجرد الانتساب إلى الإسلام ليس كافيا لمنع أَي إنسان أَن يصبح مشركا . كما أَنها ليست كافية لحمايته من الكفر والردة . (١)

ويستدل الشيخ بحال المنافقين زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما أَخبر عنهم القرآن من أَنهم في الدرك الأَسفل من النار وبقتال أَبي بكر للذين منعوا الزكاة وبقتاله لبني حنيفة اتباع مسيلمة وبتحريق على ابن أَبي طالب لمن غلوا فيه وموافقة الصحابة على كفرهم ووجوب قتالهم .

ووصف القرآن بعض الصحابة بالكفر لانهم قالوا أَشياءَ في حق الرسول رغم انهم أَدعوا انهم قالوها عن طريق المزح وقتل

---

(١) ابن عثيمين .

الجعد بن درهم لأنه خالف في بعض الصفات واستحسن التابعون قتله رغم صلاحه واستقامته [1] .

وأورد الشيخ عشر مسائل كلها تعتبر نواقض للإسلام .

فهل بعد هذا يؤاخذ الشيخ على التزامه بنصوص الإسلام وتطبيقه لها قولا وعملا واعتقادا .

---

(1) ابن عثيمين

الفصـــل الخامس

ما قاله المنصفون عن هذه الدعوة

لم يخل زمان ولا مكان من قائمين لله بالحجة وداعين إلى صراطه المستقيم وهو طريق الفرقة الناجية طريق السلف الصالح ففيه مصداق لما أَخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من أَنه لا تزال طائفة من أَمته على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم .. الحديث وقد ظلت هذه الدعوة تتنقل من جيل إلى جيل ومن مصر إلى مصر ويندلح نورها وتقوى شوكتها حينا ويدركها الفتور والضعف حينا آخر .

وقد كان لها في مستهل القرن الثامن ثورة عارمة ، على على يدي علم من أَعلام الله ومجاهد من رجال السنة هو شيخ الإسلام أَحمد بن تيمية ثم تلميذه ابن القيم مما جعلها تقوى وتنتشر ويتبين لكثير من المسلمين حقيقة هذه الدعوة وفضلها .. فينصاعوا إليها ويتفانوا في سبيلها . رغم مالقيه ابن تيمية واتباعه من عنت وارهاق وبؤس وتنكيل . ولكن هكذا شأن الجهاد والمجاهدين في سبيل الله لابد لهم من مصائب وارزاءَ تواجههم : (أَلم : احسب الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمنا

وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

ولكن ابن تيمية صبر وصابر حتى أظهره الله على من ناوأه وترك لاهل هذه الدعوة سلاحا ماضيا انتقاه من دائرة الوحيين .

وقد كانت هذه الدعوة معدومة في جزيرة العرب حتى لقد ركب الناس رؤوسهم وعبدوا الأحجار والأشجار من دون الله إلى جانب سيل من الخرافات متلاطم حتى تداركها الله بالمجدد العظيم والزعيم الإسلامي الكبير شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب فاعادها في بضع سنين بيضاءَ نقية لا شائبة فيها ولا كدر ..

وقد ناله ما نال صنوه ابن تيمية من التكذيب والكيد والدس واستعداءَ الحكام وإثارة حفائظهم ..

ولكنه المجاهد الصبور الذي يعتبر كل ما ناله في سبيل انهاض هذه الدعوة مفخرة وأجرا حتى انتشرت هذه الدعوة . ليس في جزيرة العرب فحسب بل في عموم أقطار العالم ولاتزال في الظهور والانتشار حتى تعود بالمسلمين عموما إلى دينهم الخالص إن شاءَ الله .

ومن أجل ذلك لم يتردد قادة الفكر وحملة الأَقلام في العالم الإِسلامي - وفي القرن العشرين على الأَخص - قرن تحفز الأُمة الإِسلامية لاعادة مجدها وسؤددها . .

لم يترددوا في أَن هذه الدعوة هي السبيل الوحيد لانهاض المسلمين واعلاءَ كلمتهم مما جعل الدكتور طه حسين يقولها صريحة لا غبار عليها يقول :

(ولولا أَن الترك والمصريين اجتمعوا على حربها ، وحاربوها في دارها بقوى وأَسلحة لا عهد لاهل البادية بها ، لكان من المرجو جدا أَن توحد كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما وحد ظهور الإِسلام كلمتهم في القرن الأَول ولكن الذي يعنينا من هذا المذهب أَثره في الحياة العقلية والأَدبية عند العرب ، وقد كان هذا الأَثر عظيما خطيرا من نواح مختلفة فهو أَيقظ النفس العربية ووضع أَمامها مثلا أَعلى أَحبته وجاهدت في سبيله ..

قلت أَن هذا المذهب الجديد قديم معا في حقيقة الأَمر لأَنه ليس إِلا الدعوة القوية إِلى الإِسلام الخالص النقي المطهر من شوائب الشرك والوثنية هو الدعوة إِلى الإِسلام كما جاءَ به النبي (صلى الله عليه وسلم) خالصا لله وحده ، ملغيا كل واسطة بين

الله وبين الناس ، هو إحياءٌ للإسلام العربي وتطهير له مما أَصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب) ا هـ [1]

أَما الأَستاذ محمد حسن الزيات فيقول : (ان العقيدة الخالصة والفطرة السليمة لاتزالان في الحجاز وفي هضبات نجد) .

ويقول أَيضا في مجلة الرسالة : (ولولا أَن محمد علي واضرابه خضدوا من شوكة هذه الدعوة لانتشلت المسلمين في هذا العصر مما هم واقعون فيه) ا هـ .

ويقول الأَستاذ محمد قاسم : (كان الوهابيون في عقيدتهم ومذهبهم على طريقة أَهل السنة والجماعة ، والأَساس الأَصيل لمذهبهم هو توحيد الله أَما آدابهم فهي على صفاءٍ ونقاءٍ إذ يحرمون الموانع المسكرة وكل المواد المخدرة ويحرمون جميع أَنواع الفجور والفسق والعدول عن الحق والانصاف والعمل بالحيل والخداع والاغتصاب والمقامرة . أَما في شهامة التعصب الحقيقي للدين فانهم يغارون على كل صغيرة مخلة بالدين) ا هـ [2]

---

(١) الحياة الأدبية في جزيرة العرب .

(٢) تاريخ أوربا ج ٢ ص (١٢٨) .

أَما الاستاذ منح هارون فيقول في رده على (كونت ويلز) :

ولما اتسعت حركات السعوديين في ذلك الحين وأَخذت تهدد العراق والشام والحجاز واليمن لم تر السلطة العثمانية أَو السياسة الغاشمة بدا من أَن تعمل لصرف قلوب العرب عن هذا الأَمير (المراد به الأَمير عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية) الطامح لاسترداد مجد العرب فاوعزت إلى بعض علمائها من المشائخ فأَخذوا يدسون على الشيخ ابن عبد الوهاب أَقوالا ما أَنزل الله بها من سلطان ويتخذون من المسائل الخلافية بين مذهب أَحمد ابن حنبل وبين المذاهب الإسلامية الأَخري وسيلة للطعن على الوهابية الذين الصقوا بهم هذا الاسم تضليلا للرأي العام الإسلامي واتهامهم بانهم ذوو مذهب جديد غير معترف به مع انهم لم يخرجوا في شيءَ عن مذهب الامام أَحمد الذي هو مذهب السلف الصالح ولم يقولوا شيئا مبتدعا في الدين ، وكل ما قاله الشيخ ابن عبد الوهاب قال به غيره ممن سبقه من الأَئمة الاعلام ومن الصحابة الكرام . ولم يخرج في شيء عما قاله الامام أَحمد وابن تيمية . اهـ

أَما الالوسي فيقول في كتابه (جلاءَ العينين) : أَن ابن تيمية لم يقل شيئا إلا وهو مأَخوذ من الكتاب والسنة ، ومن

أقوال أئمة المذاهب كالشافعي والحنفي والحنبلي ، فلم يكن ابن تيمية مبتدعا ومثله ابن عبد الوهاب . على أننا لو نظرنا في آراء علماء المسلمين المحققين اليوم وفي كل زمان من جميع الأقطار الإسلامية لوجدناها متفقة مع رأي من يسميهم الناس وهابيين ..

(واذن فعلماء المسلمين المحققون كلهم وهابيون) ا هـ [1]

أما عمر أبو النصر فيقول في كتابه (ابن سعود) عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما هذا نصه :) والواقع أن دعوة ابن عبد الوهاب ليست غير دعاية صالحة موفقة لنبذ البدع والمفاسد التي لحقت بالدين الإسلامي والتيعمل بعض المشائخ على الترويج لها وذيوعها وانتشارها بين الناس ..

وإذا ذهبنا نبحث الدعوة في مصادرها ونتولاها بالنقد والبحث والتحقيق وجدنا أنها لا تختلف عن مذهب الإمام أحمد بن حنبل وهي دعوة قد عادت بالنفع العظيم على الحجاز ونجد إذأ ماتت كثيرا من البدع وقضت على ألوان من الضلالات

(١) كتاب ابن سعود ترجمة كامل صموئيل عن الانكليزية .

وليس للوهابين مذهب خاص يدعى باسمهم بخلاف ما يقول بعض الحاملين عليهم ، وإنما مذهبهم مذهب الإمام أَحمد بن حنبل . وليس فيما يطلبونه ويدعون إليه ما ينافي السنة ولا يتفق مع القرآن الكريم . وهم ينكرون هذا التضليل الذي يحاوله بعض الشيوخ وغير الشيوخ وهذا الاغراق في اقامة القباب حول الاضرحة والقبور والصلاة فيها وإقامة المباخر وطلب الشفاعة من أَصحابها والإسلام ينكر هذا وينهى عنه وليس في الإسلام وسيط بين الإنسان وربه ، وليس هناك من يشفع عنده إلا بإذنه .

وقد كتب شيخ من شيوخهم سئل عن عقيدة الوهابية يقول : أَننا ندعو الناس إلى إقامة الصلوات في الجماعات على الوجه المشروع ، وإيتاءَ الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت ونأَمر بالمعروف وننهى عن المنكر وهذه هي كل شعائر الإسلام وما عداها فباطل وتضليل) اهـ [١] .

ويقول الأَستاذ مصطفى الحفناوي عن (وليمز) و (ارمسترونج) من كتاب لهما عن ابن سعود : (كذلك لما شاع الفساد في بلاد المسلمين قام في جزيرة العرب محمد بن

---

(١) ابن سعود لعمر أبي النصر .

عبد الوهاب يحارب البدع ويدعو إلى جمع الصفوف لإعادة مجد الإسلام وعبادة الله بقلب سليم .. ولكنه كغيره من المصلحين اضطهدوا واتهم بالإلحاد والزندقة) [1] .

أما الكاتب الإسلامي محمد كرد علي فيقول في كتابه (القديم والحديث) :

(وما ابن عبد الوهاب إلا داعية هداهم من الضلال ، وساقهم إلى الدين السمح ، وإذا بدت شدة من بعضهم فهى ناشئة من نشأة البادية ، وقلما رأينا شعبا من أهل الإسلام يغلب عليه التدين والصدق والاخلاص مثل هؤلاء القوم . وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الإسلام قيد غلوة) [2] .

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) المنبع الذي صدرت عنه الحركتان : حركة ابن تيمية وحركة ابن عبد الوهاب واحد هو مذهب بن حنبل .

ولكن ابن عبد الوهاب تأثر كذلك بحركة ابن تيمية ، وقرأ كتبه ورسائله وفتاواه وتفهمها وأخذ عنها وترسم خطاه

---

(١) ابن سعود ترجمة الحفناوي .

(٢) (القديم والحديث) .

عولنا على كتاب العطار (محمد بن عبد الوهاب) في نقل هذه النصوص .

وأخذ بآرائه كما تأثر كذلك بكتب تلميذه ابن القيم الجوزية وآرائه . ومما يثبت هذا كله أن بعض رسائل ابن تيمية الموجودة في المتحف البريطاني مكتوبة بخط محمد بن عبد الوهاب . فهي مما كان ينسخه لنفسه ، وهو في رسائله التي كتبها لشرح دعوته أو لمناقشة معارضه يعتمد كثيرا على اراءَ ابن تيمية وابن القيم الجوزية ويستشهد بأقوالهما) .

هذا ما قاله العقاد عن دعوة ابن عبد الوهاب ويرجع العقاد نجاح دعوة ابن عبد الوهاب واشتهارها وعدم ظهور دعوة ابن تيمية إلى أن دعوة ابن تيمية لم ترزق بقوة تسندها وتؤيدها بل أن خصوم دعوته قد تغلبوا عليها بخلاف دعوة ابن عبد الوهاب .

وللعقاد رأي في مسألة التكفير يخالف فيه الشيخ محمد ويرى غير رأيه ويستدل بكتاب (الصواعق الإلهية) المنسوب للشيخ سليمان بن عبد الوهاب أخي الشيخ .

ويقول الدكتور العجلاني عن أحمد أمين في حديثه عن محمد عبده : وينهي أحمد أمين بحثه بالتحدث عن أثر الوهابية في الحركات الإصلاحية الحديثة فيقول على سبيل المثال :

في مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبدالوهاب تملأ الجو ، فرجع إلى هذه التعاليم في أصولها من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية إلى عهد بن عبد الوهاب ، وكان أكبر أمله أن يقوم في حياته بعمل صالح فاداه اجتهاده وبحثه إلى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن بن عبد الوهاب تعاليمه وهما :

١ ـ محاربة البدع ، وما دخل العقيدة الإسلامية من فساد باشراك الأولياء والقبور والأضرحة مع الله تعالى .

٢ ـ فتح باب الاجتهاد الذي أغلقه ضعاف العقول من المقلدين [1] .

ويقول عبد الكريم الخطيب في كتابه (محمد بن عبد الوهاب .. العقل الحر والقلب السليم) : ان الدم الذي اريق في سبيل الدعوة الوهابية غريز على الاسلام والمسلمين

غير أن الحروب الوهابية .. قد كان جانب الربح فيها أكثر من جانب الخسارة ، فيما عاد على الإسلام والمسلمين بسببها من خير كثير ..

---

(١) تاريخ البلاد العربية السعودية .

لقد ايقضت هذه الحروب مشاعر الأَمة الإِسلامية التي كانت قد خمدت وفتحت منها العيون التي عاشت زمنا طويلا طويلا في وطأَة نوم ثقيل ..

كانت الحروب الوهابية معركة رأي فما قاتل أَصحابها وما قتلوا إلا دفاعا عن رأيهم الذي يحتمله العالم الإسلامي يومئذ فرماهم بالكفر والمروق عن الدين ورموه بالكفر والمروق عن الدين أَيضا .

ولقد برئت الدعوة الوهابية من أَن يختلط بها هوى أَو يطيف بها زيف أَو تمويه أَنها دعوة باسم الدين وللدين ما كان صاحبها ولا كان مناصروه يطمعون في شيءٍ أَكثر من تحرير العقل الإسلامي وتنقية العقيدة الإسلامية من شوائب الشرك والضلال .

إلى أَن قال : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الدعوات الناجحة بغير شك إذا كان مقياس النجاح مقدرا بالنتائج التي تجنى ، والثمرات التي تقطف دون نظر إلى الأَخطاء التي وقعت عبر الطريق إلى الغاية .

إذ خلقت في المجتمع الإسلامي وعيا كان ضائعا ونبهت إحساسا كان خامدا وفتحت بصائر كانت مغلقة ...

ثم أَن الدعوة الوهابية من جهة أَخرى حملت الناس على أَن يقلبوا وجوه الرأَي وان يرجعوا إلى ما خلف السلف من آراءَ وسنن فكان أَن انتهوا آخر الأَمر إلى الينابيع الأَولى للإسلام يصدرون عنها جميعا فبدأَت وجهات النظر تتلاقى على حين أَخذت شقة الخلاف تضيق حتي صار الأَمر إلى ما نراه اليوم وحدة تتلاقي عندها جميع الأَنظار ..

وغير خفي أَن الدعوة الوهابية قد اشتطت كثيرا في حملتها على جمهور المسلمين وفي تسفيه كل ما كان عليه المجتمع الإسلامي عما يتصل بالعقيدة ..

ونستطيع أَن نقول أَن هذا الشطط ربما كان شيئا لازما ، بل ربما كان أَمرا مقصودا دعا إليه الحال التي بلغها المسلمون يومذاك ، وربما كان صاحب الدعوة قد أَدرك أَنه إذا أَخذ بدعوته طريق الاعتدال لم ينتبه إليه أَحد ممن غشيتهم الغفلة وران عليهم الجهل .

وانه لكي يلفت أَنظار المسلمين في كل مكان ، كان عليه أَن يبالغ في مقررات الدعوة .. وأَن يشتط في تغليظ البدع والمنكرات .. [1]

---

(١) تاريخ البلاد العربية السعودية للعجلاني .

ويقول الأَستاذ (أَمين سعيد) في كتابه (هذا هو كتاب سيرة محمد بن عبد الوهاب) : حققت الدعوة لنجد آمالها وقد بدأَت في محيطها أَول ما بدأَت فانشأَت لها مجتمعا إسلاميا سليما ، يؤمن بالتوحيد ، ويعظم شأَنه ، ويسير على هداه ، ولا يدعو مع الله أَحدا .. ولا يزال هذا حاله لم يتبدل ولم يتغير منذ عهد الشيخ حتى يومنا هذا فهو يصدع بالحق ويؤمن به .. وانبعثت عن هذا المجتمع دولة عربية كريمة نشأَت في ظل الدعوة وآمنت بها ، فكانت أَول دولة عربية كبرى يؤسسها العرب في داخل جزيرتهم بعد دولة الخلفاء الراشدين فاتبعت طريقهم ، وترسمت خطاهم ، فسادت وشادت [1] .

ويقول (بولس سلامة) في ملحمة عيد الرياض :

كان في غرة الزمان إمـام
زلزلت من بيانه الأَقلام
هز مصرا فعضه القيـد فيها
وتولت خنـق الأَسير الشآم
ابن(تيمية) يثور على الأَوهام

---

(١) المصدر السابق .

فالحبر في الطروس ضرام
وأشد الثورات في خاطر الأَجيال
حرب وقــودهــا الافهــام
قال أَن التوحيد وحي وإلهــام
وفــوق التفلسف الا لهــام
علماءَ الكلام عشاق الفا ظ
وديــن المظللين كلام
بريءَ الدين والتصوف من قوم
بغير الإله والذين هامــوا
نــزوات جنسية ستروهــا
ولقــد يستر الغرور قتــام
انما يفضــح الضمير لسان
ينتحي حينما يكــون الغرام
يخــدع الذهن نفسه ويظل
القلب يملي فظله نمــام
ويــورون عن إله بخمــر
أَو كعاب أَو توصف الارام
أَو بهيفاءَ قــد ثراءَت لمحي الدين

حسنا لله فيه مقام

من تجلى له الإله بانثى

فسواءَ اخلاقه والجذام

* * * *

مات ما مات في الغيابة شيخ

لقحت من يراعه الأَيام

بابن عبد الوهاب عاش دفين

صاح هبوا يا أَيها النوام

فاستفاقت (درعية) من كراها

واظل (المحمدين) الذمام

فابن عبد الوهاب وابن سعود

وحدة مالها الحياة انفصام

وتشد النفوس قربى وداد

اين منها في الاقربين التؤام

يجمع الخلق بين قاص ودان

وكثير المعامع الارحام

نزل الوافد المكرم دارا

دونها في المناعة الآجام

كل صدر للضيف درع دلاص

كل زنــد للمستجير حسام

في الحمى وائــل وآل سعود

فسلام للنــازلين ســلام

ومضى ينشر الضياءَ لقــوم

ضيعوه فالنــور فيهم ظلام

أَزعجوا في (جبيلة) قبر زيد

وشكى الذبح والسجود الرغــام

طفح الرمس من دماءَ الاضاحي

الثــأر أَبيــدت الأَغنــام

أَو بين الرفات والاكبش الصرعى

ذحــول قديمــة وخصام

أَم ترى الأَعظم الرميمة ظمأَى

أَم هــو الروح ساغب نهام

أَو يشقى الأَيتام في طلب الخبز

وللقــبر زفــة وطعــام

عجبــا يهمــل الإِله وينسى

وتحــابي وتستجــار العظــام

حــز في نفسه الطهيرة أن

يطوى كتاب وتنشر الاثام

فكأن الرســول مازف وحيــا

زلزلت من نزوله الأصنــام

بعثت جاهليــة واستجــدت

وعلا نصبها وساد الرخــام

يعبــدون الأشجار فالدوحــة

العليــا شفيع والكهف بيت حرام

سل (بمنفوحة) [1] إذ النخل يؤتي

وعلى فحله الفتى ازدحــام

إذ تحج العوانس إليه أفواجا

وفي النفس للزواج أوام

فتقول الهيماءَ يا فحل هذا النخل

أدرك فقــد براني الهيــام

* * *

آلم الشيخ رقصة عند طبــل

وزمور تمجهــا الأنغــام

(١) الصحيح أن فحل النخل يوجد بشعب البليدة بالدرعية لا منفوحة .

والدراويش كالحسان تثنى
وتلــوي كما يميل الخزام
الذكر إلا له أَم ذكر طــه
تفترى فرية ويودى احتشام
جل عن رقصة الدراويش رب
وتعالى النبي والإســلام
بدع اجها الهوي فاستطارت
ولها نزوة الجسوم دعــام
وإذا غلب الضلالة ميــل
غار في لذة الرحيق السمام
إنما الدين كالشعاع المصفى
فلم الظل حوله والغمــام
اية النهر نبعه ويشوب الماءَ
في دورة الثنايا الركام
جوهر السيف حده ونجاد
السيف حمل يمله الصمصام
رب نص طغت عليه الحواشي
والنفايا والوضع والاقحــام

يفتك السوس بالجذوع العوالي
ومن النمل تحدث الأَورام

للنبيين في الصدور احترام
ومن الله وحده استرحام

الصلاة الصلاة خفقة قلب
يرتضيها المهيمن العــلام

غاية الدين أَن يكون بسيطا
فكتـــاب وسنة واعتصام

ولكم بابن حنبل مورد صاف
وشرع وحكمـــة وائتمام

ويقول ملا عمران بن رضوان :

إن كان تابع أَحمد متوهبا
فأُنا المقر بانني وهـــابي

انفي الشريك عن الإله فليس لي
رب سوى المتفرد الوهاب

لا قبة ترجى ولا وثن ولا
قبر له سبب من الأَسباب

والابتـــداع وكل أَمر محدث

في الدين ينكره أَولو الأَلباب

وامر آيات الصفات كما أَتت

بخلاف كل مؤول مرتاب

فأَنت ترى أَن هذه النماذج التي التقطناها من بين كتابات من كتبوا عن هذه الدعوة كلها أَو جلها يؤمن بانها دعوة سليمة قوية ايقظت الشعور الإسلامي في جزيرة العرب وحررت الافكار والمفاهيم والعقول مما ران عليها وقعد بها عن مزاولة حقوقها الإسلامية في هذا العالم الصاخب المضطرب الذي يغلي بالمبادىء والأَفكار والاتجاهات فهذه الدعوة السليمة التي ترجع بالإِسلام والمسلمين إلى عقيدتهم الصافية السليمة تسندها قوة دفاعية مؤمنة مستبسلة في سبيل نشرها وإِعادة مجد الإِسلام والعرب عن طريقها .. تسلطت عليها القوي الجاهلة والافكار المترنحة والاتجاهات الضالة من كل صوب فعملت على اخمادها أَو قل على الحد من نفوذها وسيرورتها لئلا تبلغ ما تبلغ بالمسلمين من رفعة وقوة واتحاد كلمة ..

هكذا نصت هذه النقول ونكاد نقول أَجمعت ..

وتناولت أَيضا هذه الخرافات والخزعبلات والاتجاهات المريضة التي لحقت بالعالم الإِسلامي وفرقته شيعا وأَحزابا

وجعلته منغمسا في ظلمات الجهالات حول الأَضرحة والقبور وتعظيم الأَولياء وطلبهم النفع والاستدفاع بهم الضر هذه المخدرات وهذه الموبقات قعدت بالمسلمين عن حقيقة دينهم قعدت بهم عن الجهاد في سبيل الله قعدت بهم عن أَن يعيدوا لهذه الأُمة عظمتها ومجدها حينما كانت تسلك عقيدة صافية وتعب من معين خالص من الشوائب والمكدرات لتتفرغ لما خلقت له وما هيأَها الله للأَخذ به .

ونصت هذه النماذج على أَن من سلطوا على هذه الدعوة وفتنوا بمعاداتها ليسوا يصدرون عن حق أَوثق ولا يرمون إلى سلوك سبيل أَحق في وحدة متكاملة واتجاه سوي سليم وانما هي نزعات هوجاء وتكالب عن الحق وأَغراض خاصة تؤيدها قوي بعيدة عن العرب عن الدين بعيدة عن المفاهيم الإسلامية السليمة لا لشيء من قبل هؤلاء وأَولئك إلا للقضاء على هذه الدعوة ليس إلا أَما البديل أَما جمع هذه الأُمة على السبيل السوي أَما الغيرة على واقع هذه الأُمة الهزيل المترنح المضطرب . أَما توحيد كلمتها تحت راية واحدة وتحت مفهوم واحد وتحت هدف سوي سليم .. فهذ ما لم يكن في حسبانهم ولم يكن مقصودا لهم ..

يقضى على المرءَ في أَيام محنته

حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

ولسنا نزعم بـهذا أَنه باطل انتصر وحق قضى عليه إلى الأَبد فتلك جولة للباطل تمادت ثم خمدت وهذه الدعوة حية متحفزة لتعيد الكرة والكرات وها هي سائرة في سبيلها ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز .

الباب السادس

الفصل الأَول

محمد بن سعود

هو محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع .

ولد عام (١١٠٠ هـ) تقريبا بالدرعية وترأَس بها سنة (١١٣٩ هـ) وتوفي سنة (١١٧٩ هـ) ومدة حكمه (٤٠) سنة نصفها قبل عهد الشيخ محمد ونصفها الثاني معه وقيل أَن الشيخ وفد عليه بعد توليه بتسعة عشر عاما .

له من الولد الذكور أَربعة هم فيصل وسعود وقد استشهدا في حياته في الغارة التي قام بها دهام بن دواس على أَطراف الدرعية سنة (١١٦٠ هـ) وله أَيضا الإِمام عبد العزيز ، وعبد الله .

له زوجتان هما : موضي بنت أَبي وهطان من آل كثير وابنة الإِمام محمد بن عبد الوهاب .

تولى إمارة الدرعية بعد زيد بن مرخان الذي طاب له أن يغزو العيينة بعد الوباء الذي نزل بها وأهلك منها خلقا كثيرا بما فيهم أميرها عبد الله بن محمد بن معمر وتولى بعده ابن ابنه محمد بن حمد بن عبد الله بن محمد بن معمر الملقب (خرفاش) .

فجمع زيد من حوله من البادية والحاضرة وغزا العيينة ولكن ابن معمر خدعه وقال له لماذا تهاجم العيينة بالبادية يخربون فيها ويفسدون تعال اليّ لاعطيك ما تطلبه بدون حرب ولا فساد وإفساد .. فصدقه زيد وأخذ أربعين من قومه بما فيهم محمد بن سعود فلما أجلسهم في مكان معد من قبل قام بسرعة وأمر جنده أن يطلقوا الرصاص على زيد فيردوه قتيلا مع من قتل من صحبه أما البقية فقد اعتصموا في مكان ولم ينزلوا إلا بتأمين (الجوهرة) بنت عبد الله بن معمر التي أمنتهم حتى الدرعية .

ولما وصلوا الدرعية التف الناس حول محمد بن سعود وبايعوه رئيسا عليهم وظل هذه المدة رئيسا على الدرعية وهي كغيرها من البلدان لا يعرف لها تاريخ ولا يثبت لها تحقيق .

كان الأمير محمد بن سعود حكيما موفقا في سياسته مع

جيرانه وغيرهم على الرغم من الفتن التي تغلى في المنطقة وعلى الرغم من العداءَ المستمر بين أَهلها فكان جيرانه الموالون له من الشمال ابن معمر في العيينة ومن الجنوب دهام بن دواس في الرياض .. وكان قد زوج ابنه عبد العزيز من ابنة أَمير العيينة عثمان بن معمر مما يدل على انسجام الأَحوال واستقامة الأَمور بين البلدين .

أَما دهام ابن دواس فكان مدينا لمحمد بن سعود الذي شد أَزره وناصره أَمام كراهية أَهل الرياض لدهام ومحاولتهم تنحيته فبعث له طائفة من الجنود قووا معنويته وثبتوا إمارته واخضعوا الثائرين عليه فاستقر له حكم الرياض .

فيعتبر محمد بن سعود آخر أَمراءَ الدرعية وأَول الأَئمة من آل سعود وكانت سنة (١١٥٨ هـ) سنة تحول خطير في حياة محمد بن سعود حيث وفد عليه الإمام محمد بن عبد الوهاب فارا بدينه ملتمسا النصرة والتأَييد والتعضيد مؤملا في شخصية محمد بن سعود ما هوله أَهل من حسن الاستقبال وطيب اللقاءَ والوعد والعهد على بناءَ مستقبل مشرق وتحقيق هدف سام فكان ذلك كان لقاءَ الفكر والعزم لقاءَ المصحف والسيف لقاءَ دعوة غريبه وهزة في مجتمع لا عهد له بمثل هذه الدعوات لقاؤها

بعزم مستحصد وهمة متوثبة وفكر طموح لا يبالي ماذا تردده الخواطر والأقاويل والتكهنات ..

إذا هم ألقى بين عينية عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانبا

فكان اللقاء وكانت البيعة وكان العمل وكان الاخلاص والتفاني ثم كان النمو وكان التطور وكان التجمع وكانت الهيبة وقيام نواة دولة هزت الشرق والغرب وهيمنت على الكثير من جزيرة العرب ..

وبدأ الجهاد في سبيل الله متدرجا وبدأت الدعوة تصحب الجهاد وانتقل مجتمع الدرعية من مجتمع خامل إلى مجتمع مجاهد متطور يقوده محمد بن سعود وأحيانا ابنه عبد العزيز بكل صلابة وقوة واستعداد ..

وسفر المجتمع عن أعداء الداء في حضن الدعوة ناصبوها العداء وقاوموها بكل ما يملكون من قوة فقد كان دهام بن دواس ممن تولى كبره وجاهر بالعداوة ووقف شجا في تقدم الدعوة وتطورها ..

وفي سنة (١١٧٢ هـ) واجهت الدعوة عدوا جديدا هو

(عرعر بن دجين) تـألب معه كثير ممن ناصبوا الدعوة العداءَ من أهل الوشم وسدير والخرج وغيرهم جاعلين الدرعية هدفهم والقضاءَ على الدعوة سبيلهم وزحفوا فكانت (الجبيلة) لهم بالمرصاد فكان اللقاءَ الأول معها فصدت جمعهم وفرقت حزمتهم وانفضوا خائبين فعاد ابن دجين وعجمانه الذين معه على أمل العودة فمالبثوا أن استصرخوا بني عمهم أهل نجران وشكوا إليهم ما حل بهم من هزيمة فجمع السيد حسن بن هبة الله المكرمي جموعه من الوعلة وغيرهم وزحفوا على الدرعية فكان اللقاءَ الأول في الحائر وكان قائد المواجهة الأمير عبد العزيز ابن محمد فحلت الهزيمة بأهل الدرعية ونال منهم العجمان ما نالوا ولكنه قرح ما لبث أن انقشع وهزيمة مالبث أن عادت بالقوة والعزيمة على أهل الدرعية لقد واجهه الشيخ بهذه الآية الكريمة : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون أن كنتم مؤمنين ، أن يمسسكم قرح فقدس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس . الاية .

وكانت خطة المكرمي يلتقي مع عريعر بن دجين بعد هذه الهزيمة وكان موعدهم الدرعية فاختلفوا في الميعاد وظل ابن دجين في رقبة حليفه . إلا أن هبة الله قد نكص على عقبيه وعاد لبلاده فانكفأ ابن دجين راجعا .

أما دهام ابن دواس فقد ظل على عدائه حتى سنة (١١٧٧هـ) حيث أرسل إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد ابن سعود يطلب المصالحة والمبايعة على دين الله ورسوله والسمع والطاعة فكان ان استجابوا له وبايعوه طلبا لهدايته وطمعا في رجوعه إلى الحق .

وفي سنة (١١٧٨ هـ) أرسل ابنه للاشتراك في الغزو تحت أمرة الأمير عبد العزيز بن محمد إلى جراب .

وهذه هي أهم الأحداث التي وقعت في عهد محمد بن سعود :

كان دهام بن دواس خصما عنيدا وكان ذا مرة وبأس شديد وكان أعداء الدعوة يجدون فيه سندا وعونا لهم ويجد منهم شدا لازره وقوة تعضده .. وإذا فلا غرابة أن يكون عهد الإمام محمد بن سعود حافلا بالمواجهات الحامية بينه وبين دهام بن دواس .. فمنذ سنة (١١٥٩ هـ) إلى سنة (١١٧٧ هـ) والحرب بينهما قائمة على قدم وساق والقتل بين الطرفين مستمر .

وفي سنة (١١٥٨ هـ) تمت مبايعة عثمان بن معمر ومعه أهل العيينة وأهل حريملاء تمت مبايعتهم للإمام والشيخ على

الأنقياد .. والاستجابة لداعي الحق .

وفي سنة (١١٥٩ هـ) هاجم دهام بن دواس أَهل منفوحة لانهم اعتنقوا دعوة الشيخ وحرق نخيلها وقتل من أَهلها مقتلة كبيرة فرد محمد بن سعود على دهام بغارة دخل فيها الرياض واضطر دهام للالتجاءَ بقصره فحاصره مدة من الزمن .

و سنة (١١٦١ هـ) هاجم الأَمير عبد العزيز بمن معه من الجنود أَهل ثرمدا وبعد مناوشات انهزم أَهل ثرمدا وقتل منهم نحو سبعين رجلا .

وفي سنة (١١٦٢ هـ) حبس شريف مكة مسعود بن سعيد عددا كبيرا من حجاج نجد ومات بعضهم في سجنه .

وفي سنة (١١٦٣ هـ) قتل عثمان بن معمر أَمير العيينة في المسجد بعد صلاة الجمعة من قبل أَناس من قومه هم حمد بن راشد وإبراهيم ابن زيد الباهلي وموسى بن راجح .

وفي سنة (١١٦٤ هـ) نقض إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن رئيس ضرما نقض العهد مع الدرعية وقتل معلمي الدعوة وحصلت فتنة أَثر ذلك فانتدب لها عبدالعزيز بن محمد وقضى على الفتنة وولى عليها عبد الله بن عبد الرحمن .

وفي سنة (١١٦٥ هـ) أغار فيصل بن صويط ومعه أهل منيخ والزلفي والوشم وعرب الظفير على (رغبة) ودمروها ونهبوا كل ما فيها . وفيها توفي العالم المجدر محمد حياة السندي المدني أحد أساتذة الشيخ محمد .

وفي هذه السنة سار غزاة الدرعية وأميرهم مشاري بن معمر واغاروا على أهل الدلم واخذوا أغناما لهم فلحق بهم أهل الدلم في الحائر وحصلت وقعة قتل فيها عدد من الطرفين .

وفيها نقض أهل حريملاء عهدهم مع الشيخ وعزلوا أميرهم محمد بن عبد الله بن مبارك وأخرجوه وحصل اضطراب مالبث أن هدأ وعادت حريملاء وضعها السابق .

وحصل في سنة (١١٦٦ هـ) أربعة أحداث هي نكوص حريملاء عن الدعوة وبعث سرية تأديبية لها بقيادة مبارك بن عدوان ونقض أهل منفوحة عهدهم وغدر المهاشير من بني خالد بسليمان آل محمد رئيس الأحساء وولوا مكانه (عريعر بن دجين) وحدثت موقعة السبلة بين الظفير وبني خالد وصارت الهزيمة على الظفير .

وفي سنة (١١٦٨ هـ) كان الغفيلي أحد رؤساء ضرما متمالئا مع إبراهيم بن سليمان رئيس ثرمداء ضد أمير ضرماء فبعث

الأَول يستنجد الثاني الذي بعث له جيشا وخيلا من ثرمداءَ ومن مراة فاحس أَمير ضرماءَ بالحركة فبعث مستعجلا إِلى محمد بن سعود فانجده بقوة من أَهل الدرعية والعيينة فبادروا مسرعين وكان أَمير ضرما قد أَعد للقوة المهاجمة كمينا في مزارع الذرة وما أَن تلاقوا حتى خرج عليهم الكمين وقتلوا منهم نحو ستين رجلا . واسر منهم عبد الكريم بن زامل رئيس (اثيفية) .

وفي هذه السنة نقضت حريملاءَ عهدها فغزاها عبد العزيز بثمانمائة مقاتل ونصب كمينين في (عوجاءَ) وفي (الجزيع) واسفرت المعركة عن انتصار الأَمير عبد العزيز . غير أَنه لم يدخل البلدة .

ولكن بعد عودة عبد العزيز كان محمد بن عبد الله أَمير ضرما وأَهل بلده يتربصون بحريملاءَ فدخلوها واناخوا بالحويش ونادوا بالأَمان وبعثوا الى عبد العزيز من يستدعيه فعاد عبد العزيز ونادي بالامان لكل سكانها الا من أَحدث حدثا من قبيلة آل راشد وغيرهم وصارت حريملاءَ بعدها غنيمة للمسلمين وأَمر عليها مبارك بن عدوان .

وفي هذه السنة نقض دهام بن دواس عهده مع الإِمام بعد أَن هاجر من هاجر من الرياض إِلى الدرعية وعقد مع محمد بن

فارس صاحب منفوحة وإبراهيم بن سليمان صاحب ثرمداءَ وجمع غيرهم من سدير وثادق والفارين من حريملاءَ .. اتفقوا على غزو حريملاءَ فتلاقوا مع أَهل حريملاءَ ورئيسهم مبارك بن عدوان فكانت معركة حامية سميت بمعركة (الدار) وكان النصر فيها لابن عدوان وقومه .

وفي سنة (١١٦٩ هـ) وفد ناصر بن جماز العريفي وسعود ابن حمد وجماعتهم أَهل القويعية وبايعوا على السمع والطاعة .

وفيها قمعت حركة تمرد في منفوحة من قبل الأَمير عبد العزيز بن محمد .

وفي سنة (١١٧٠ هـ) وقعة القرائن وذلك أَن أَهل الوشم اتفقوا مع بعض أَهل سدير على مهاجمة شقراءَ حيث كانت سباقة لقبول دعوة الشيخ فانجدها الامام محمد بقوة يقودها الأَمير عبد العزيز فحصلت الوقعة في القرائن وانهزم فيها المناوئون وفي نفس السنة التقى الأَمير عبد العزيز بغزو لابن فايز المليحي على ماءَ الحسي فهزم الغزو وأَسر رئيسه وافتدى نفسه .

وفي هذه السنة طلب أَهل ثادق من الدرعية بعث من

يعلمهم مبادئ الدعوة والارشاد فبعث إليهم (حمد بن سويلم) وأمر فيهم (دخيل بن عبد الله بن سويلم) .

وفيها سار عبد العزيز بأهل الدرعية ومن معهم من المسلمين إلى أهل أشيقر فقتل منهم أربعة رجال .

وفيها نازل الأمير عبد العزيز أهل جلاجل في الموضع المسمى (بالعميري) واستدعى حمد بن غنام قاضي الروضة ومحمد ابن غصيب قاضي الداخلة وإبراهيم بن حمد المنقور قاضي الحوطة لمقابلة الشيخ محمد في الدرعية فتوجهوا إليها وبعث بعثمان بن سعدون ومنصور بن حماد إلى الدرعية لمناوأتهما لأمير العودة عبد الله بن سلطان .

وفي سنة (١١٧١ هـ) غزا عبد العزيز بن محمد ثرمداء وخط خطة لم تنجح فدارت الدائرة على عبد العزيز وقومه وقتل منهم نحو ثلاثين وقتل من أهل ثرمدا ثمانية قتلى .

وفيها تم عزل مبارك بن عدوان من إمارة حريملاء وعين بدله (محمد بن حمد بن ناصر) وهرب بن عدوان إلى رغبة فالصفرة فالمجمعة .

وفي سنة (١١٧٢ هـ) حشد عريعر بن دجين رئيس

الأَحساءَ قواته من قومه ومن أَهل الوشم وسدير والخرج والرياض ونازل الجبيلة ونشب القتال بينهم وحصلت عدة وقعات باءَ بعدها بالفشل وطلب كثير ممن ساعده العفو فعفي عنهم .

وفي سنة (١١٧٣ هـ) رتب الأَمير عبد العزيز غزوا على الدلم وما حولها لقاء مناحرتهم لعريعر بن دجين فقتل منهم ثمانية أَشخاص وأَغار على نعجان فقتل منهم (عودة بن علي) .

وفيها كان نشاطا ملحوظا للأَمير عبد العزيز حيث أَغار على ثرمداءَ ثم كر راجعا إلى الدلم ثم كر على الوشم وفي كلها ينتصر ويظفر بعدوه .

وفي سنة (١١٧٤ هـ) أَغار الأَمير عبد العزيز على النبطة من سبيع ورئيسهم ابن فياض فقتل منهم وغنم .

وفيها مات مبارك بن عدوان بالمجمعة بمرض الفالج .

وفي سنة (١١٧٥ هـ) هاجم الأَمير عبد العزيز منفوحة وقتل من أَهلها سعد بن محمد بن فارس ، وشبيب الضنان .

وفيها غزا عبد العزيز الخرج والوشم ثم كر على الوشم مرة أَخرى وقاتل أَهل الفرعة ثم استسلموا وانقادوا وبايعه رئيسهم منصور بن حمد بن إبراهيم بن حسين وحاربوا أَهل اشيقر سبع سنين حتى اثخنوهم وادخلوهم في الطاعة .

وفيها بني برج الفرعة بناه أَهل الفرعة وأَهل شقراءَ لمحاربة أَهل اشيقر .

وفي سنة (١١٧٦ هـ) غزا الأَمير عبد العزيز الأَحساءَ وخيم على المطيرفي وقتل نحو سبعين رجلا وغنم أَموالا وأَغار على المبرز وقتل منهم قتلى .

وفيها نقض أَهل اثيثية عهدهم وقتلوا رئيسهم عبد الكريم ابن زامل .

وفيها غزا عبد العزيز سبيع على سيح الدبول .

وفي سنة (١١٧٧ هـ) هاجم الأَمير عبد العزيز جلاجل وغنم منهم مالا ولم يزل بهم حتى بايعوه على السمع والطاعة .

وفيها هاجم العجمان فريقا من سبيع فجد الأَمير عبد العزيز في طلبهم حتى ظفر بهم وقتلهم قتلا ذريعا .

وفي سنة (١١٧٨ هـ) تمت وقعت الحائر بين الأَمير عبد العزيز وبين الحسن بن هبة الله المكرمي وقومه قتل فيها جمع من أَهل الدرعية وضواحيها وكانت قرحا للمسلمين وتأديبا لهم من الله .

وفي سنة (١١٧٨ هـ) بعثت الدرعية (فيصل بن شهيل) شيخ الظفير إلى نجران بالوساطة على أَن يطلق كل من الطرفين مالديه من الاسراءَ فكان ذلك .

وفيها جمع عريعر بن دجين جموعه والب من حوله على أَساس اتفاق بينه وبين المكرمي في مهاجمة الدرعية ولكن الله صدهم وردهم خائبين .

الفصل الثاني

عبد العزيز بن محمـــد بن سعود

ولد بالدرعية عام (١١٣٣ هـ) وتولى الحكم بعد وفاة ابيه عام (١١٧٩ هـ) وكان سنه حينما قدم الشيخ الدرعية (٢٥) سنة وكان ساعد والده الأيمن وامينه وقائده الموفق .. جل الغزوات التي تمت في عصر والده بقيادته وجل المهمات انيط حملها به وكان عداء جيرانه الادنين دهام بن دواس في الرياض وزيد بن زامل في الخرج على أشده فلم يزل بابن دواس حتى قضى عليه قضاءً تاما بعد عداوة دامت أكثر من خمس وعشرين سنة وكان فتح الرياض عام (١١٨٦ هـ) .

أما زيد بن زامل فلم يزل في موقفه المعاند وتشبثه بالصلح تارة وبالنكث تارة أخرى ولقد فقد أكبر عون له وهو دهام بن دواس فذهب يبحث عن خدن له جديد ولم ير اليق من الحسن ابن هبة الله المكرمي صاحب نجران وصاحب الفتنة السابقة في الحائر ودفع إليه اناسا من زعماء الجنوب ومنهم حويل الوداعين واغرى الجميع بالمال فاعد الجميع العدة وتهيئوا

للزحف على الدرعية سنة (١١٨٩ هـ) وكان هدفهم الأَول الحائر ولكنها محصنة ومستعدة للقائه فحاصرها ولما يئس صالحهم وانتقل إلى (ضرما) فكانت أَشد قوة وأَكثر منعة وأَقوى شكيمة فقابلوه بعنف وقوة واستعداد حتى أَبادوا من قومهم المحاصرين جمعا كبيرا فولوا الادبار وانهزموا إلى غير رجعة .

ولما يئس ابن زامل مما أَمله واراده عاد فصالح الدرعية وقبلت منه المصالحة وبعد زمن قليل نكص وقتل رجلا من أَهل الحوطة ظلما فتجهز عبد العزيز لمحاربته ولكنه فر وعين عبد العزيز مكانه سليمان بن عفيصان أَميرا على الدلم .

ولم يلبث عبد العزيز إلا قليلا حتى جدله عدو جديد ذلك أَن حسن البجادي صاحب اليمامة وفد على الدرعية بعد أَحداث الخرج وبايع على السمع والطاعة وطلب مرشدا يرشدهم إلى أَمور دينهم ولم يلبثوا أَن خرجوا عن الطاعة ولجوا في غيهم .

فسار سعود بن عبد العزيز إلى تلك الجهة لاطفاء الفتنة وجعل قصده (السلمية) فجعل بها مرابطين وطلب من البجادي اقصاء من هم رأس الفتنة لديه فوعد بذلك على أَن يرحل سعود ليتمكن من التفاهم معهم ولما عاد سعود زحف البجادي على

المرابطين بالسلمية ليستأَصلهم ولكنهم استبسلوا وردوه خائبا رغم أَنه استنجد بقوم من آل مرة ولكن لم يغنوا عنه شيئا ..

لقد عاد البجادي وجمع صفوفه واستدعى زيد بن زامل وتهيأَ القوم للفتنة ولكن الأَمير سعود بن عبد العزيز قدم الخرج ونزل السلمية ونقل المرابطين بها إلى الدرعية .

وبعد ذلك بعثت الدرعية بسرية لمهاجمة آل مرة تنكيلا بهم لمساندتهم أَمراءَ الخرج ولكن هذه السرية هزمت والجئت إلى عقبة ضيقة تدعى (مخيريق الصفا) وقتل منها عدد منهم أَمير القصيم (عبد الله بن حسن) وصادف رجوع سرية من سرايا الإمام عبد العزيز فعلمت بخبر هزيمة (مخيريق الصفا) فانزلت بعض الخسائر بقوم البجادي .

ولم تزل الحروب سجالا بين الإمام عبد العزيز وبين أَهل الخرج والغلب في أَكثرها لجيش الدرعية حتى قتل زيد ابن زامل سنة (١١٩٧ هـ) قتله سليمان بن عفيصان وتولى بعده ابنه براك بن زامل ولم يلبث إلا قليلا حتى قتله ابناءَ عمه .

ولم تلبث الخرج إلا زمنا يسيرا حتى انقادت للطاعة هي وما حولها من البلدان كالحوطة والحريق كافة والفرع .

وفي سنة (١١٩٢ هـ) كان حمود الدريبي رئيس بلدة بريدة مواليا للدعوة ومعه رجال موالون ومخلصون وقد طلب من الإمام عبد العزيز بعث جيش لمناصرته على أَعداءَ الدعوة فبعث إليهم جيشا بقيادة ابنه سعود هاجم عنيزة وذلل ما أَمام الدريبي من صعوبات .

وفي سنة (١١٨٣ هـ) استفز الإمام عبد العزيز جنده لمهاجمة المجمعة فهاجمها واستولى عليها وواصل سيره إلى الهلالية من بلدان القصيم فاستولى عليها أَيضا ووفد عليه طائفة من أَهل القصيم فبايعوا على السمع والطاعة .

وفي سنة (١١٨٨ هـ) كان عريعر بن دجين أَمير بني خالد قد نقم على بلدة بريدة ان والت الدرعية فزحف عليها بجنده واناخ حولها وطلب مقابلة رئيسها (عبد الله بن حسن) فخرج إليه ليفاوضه ولكنه قبض عليه واسره وعين مكانه (راشد الدريبى) واباح البلدة لجنوده نهبا وهدما وقتلا فجلا آل عليان عن البلدة فرارا بدينهم ومحارمهم إلى الدرعية . وقد تجهز أَيضا للزحف على الدرعية فمات في طريقه .

وفي سنة (١١٨٩ هـ) سار سعود بن عبد العزيز إلى بريدة فحاصرها وبني حصنا خارجها وجعل فيه قوما يرصدون حركة

البلدة مما اضطرهم إلى الاستسلام وعادت الإمارة إلى عبد الله ابن حسن فأدب من بها من العصاة وقتل من قتل من أعوان الدريبي .. وعاد أهل القصيم يبايعون عبد الله بن حسن واستمرت الحال هكذا سبع سنين .

بعدها ذر قرن الفتنة من بعض بلدان القصيم واستنجدوا بسعدون بن عريعر وقام أهل الخبرا بقتل منصور وثنيان آل أبا الخيل وبعث أهل عنيزة بفقيهين إلى سعدون فقتلهما وهاجم بريدة ولكنها تحصنت وتسور الجدار عليها قوم فقتلوهم أجمعين وكان قد بني قصرا حولها فخرج إليه أهل البلدة فهدموه وقتلوا من فيه ودام حصار سعدون لبريده خمسة أشهر .. ثم لم يكن لهم بد من الانصراف خائبين .. أما الذين ناصروا سعدون من أهل القصيم فاقبلوا تائبين منيبين يبايعون (حجيلان ابن حمد) وكان أمير القصيم انذاك .

وفي سنة (١١٩٨ هـ) زحف الأمير سعود على عنيزة فاستعصمت وظلت هكذا لم تبايع ولم تدخل في الطاعة إلا سنة (١٢٠٢ هـ) فحينئذ دخلها سعود وعزل رؤساءها من آل رشيد وعين أميرا عليها (عبد الله بن يحيى) .

وفي سنة (١١٨١ هـ) وجهت سرية إلى بلدة (العودة) من

سدير بقيادة (هذلول بن فيصل) و (سعود بن عبد العزيز) .

وفي سنة (١١٨٢ هـ) اغارت سرية على الزلفي بقيادة الأَمير سعود بن عبد العزيز .

وفي سنة (١١٨٨ هـ) أَغارت سرية أَخرى على الزلفي بقيادة) عدامة بن سويري) وفي هذه السنة تقاطرت الوفود على الدرعية من المجمعة وحرمة والحريق وغيرهم لطلب الاتباع والانقياد والسمع والطاعة .

وفي سنة (١١٩٠ هـ) قدم وفد من منيخ ومن الزلفي للمبايعة والسمع والطاعة .

وفيها قدم الدرعية الشيخ سليمان بن عبد الوهاب بدعوة من الإِمام عبد العزيز فأَقام في الدرعية معززا مكرما حتى توفي بها .

وفي سنة (١١٩١ هـ) وقعت حوادث في المجمعة وحرمة فوجه الإِمام عبد العزيز أَخاه عبد الله بن محمد لمعالجة الوضع ولما لم يجد ذلك معهم استعمل القوة وساق أَربعة من أَهل حرمة ومعهم أَمير العودة وأَمير الحوطة إلى الدرعية ولكن الفتنة ازدادت واضطرمت فقتل أَهل حرمة أَميرهم وأَخذوا عددا من الأَعيان

رهائن في رهائن الدرعية وساروا إلى المجمعة لقتل من فيها من أَنصار الدعوة ، ولكنهم باءوا بالفشل . فجهز عبد العزيز جيشا لقتال حرمة ولما حاصرها طلبوا منه أَن يطلق من لديه من الأَسرى مقابل اطلاق أَسراهم فغلب الإمام عبد العزيز جانب الحكمة وتبودل الاسرى وانقشعت الفتنة . وعين (عبد الله ابن جلاجل) أَميرا على بلدان سدير .

وفي سنة (١١٩٣ هـ) ذرقرن الفتنة من جانب حرمة أَيضا فكتبوا إلى سعدون بن عريعر رئيس الأَحساءَ وإلى أَهل الزلفي وتواعدوا على محاصرة المجمعة لانها موالية للدرعية . فتلاقوا هنالك وظلوا أَياما يحرقون ويهدمون ويخربون فبادر عبد العزيز بارسال جيش بقيادة حسن بن مشاري بن سعود وكان مرابطا في جلاجل فخفوا لنجدة المجمعة ولما علم بهم سعدون واتباعه فروا . وكلف الإمام عبد العزيز أَخاه عبد الله بتأَديب أَهل حرمة ففعل ولكن ذلك لم يبرد غليل الإمام فوجه ابنه سعود إلى حرمة مرة أَخري فهدم سورها وبعض بيوتها واقصى مثيري الشغب إلى المجمعة وإلى الزبير .

وفي سنة (١١٩٤ هـ) وجهت ثلاث حملات من الدرعية إلى الزلفي حتى استجابت وانقادت للطاعة .

وفي سنة (١١٩٦ هـ) تـألبت مع سعدون بن عريعر أقوام من الخرج وحرمة وآل ماضي وأهل الزلفي على مهاجمة بلدة (الروضة) من سدير فاستولوا عليها واقروا آل ماضي على امارتها ..

فخف الأمير سعود بجنده ونازل الروضة واستولى عليها وقطع ما قطع من نخيلها وهدم ما هدم من أبراجها .. فتقدم أهلها يطلبون الصلح فصالحهم على مبلغ من المال وعلى رحيل آل ماضي وأعوانهم من البلدة .. فكان ذلك .

وفي سنة (١١٩٩ هـ) جاءَ إلى الدرعية ربيع بن زيد وأخوه بدن من مشائخ الدواسر وبايعا على السمع والطاعة وعاد إلى وادي الدواسر فحصلت بينهما وبين قومهما حروب وحصار انتهت باستسلام المنطقة للطاعة والانقياد بعد تسليم غرامة قدرها الفا بندقية والفا ريال وتم ذلك عام (١٢٠١ هـ) .

والأحساءَ الاقليم الشرقي تري لنفسها الدالة على سواها من الاقاليم وتري أنها ذات القيادة والسيادة في المنطقة وتستنكف أن يحكمها اقليم العارض أو سواه فلم تزل متأبية رافضة الانقياد والسيادة وهي التي كانت تغزو الدرعية في عقر دارها . لكنها أخذت تتخطفها حينا بعد حين ..

ففي سنة (١١٧٦ هـ) غزاها سعود فقتل وغنم وعاد سالما

وفي سنة (١١٩٨ هـ) . وفي سنة (١٢٠٢ هـ) وفي سنة (١٢٠٣ هـ) وفي سنة (١٢٠٤ هـ) وفي سنة (١٢٠٧ هـ) وفي سنة (١٢٠٨ هـ) وفي سنة (١٢٠٩ هـ) في كل هذه السنوات كانت الدرعية تتخول الأَحساءَ بغزواتها وكانت تنقص دولة بني حميد من أَطرافها حتى استسلمت وانقادت الأَحساءَ عام (١٢١٠ هـ) وأَخمدت ما فيها من الفتن والاضطرابات ولكن ذلك أَوغر صدر الباب العالي وأَخذ يدبر في توجيه حملة قوية يسترد بها الأَحساءَ ويقوض حكم الدرعية .

وكان شيخ المنتفق (ثويني) هو المرشح لهذا الأَمر من قبل سليمان باشا والي بغداد وأَخذ هذا يعد عدته ويستقبل غزوه الكثيف على ماءَ (الجهراءَ) فاتجهت في طريقها إِلى الأَحساءَ عام (١٢١١ هـ) فحشد سعود (وكان قائد الحملة) حشوده بقيادة محمد بن معيقل إلى الطف وما يليه في وجه الحملة المقبلة ونزل سعود حفر العتك يستقبل الغزاة ويوجهها إِلى حيث ابن معيقل الذي أَخذ يراوح هنا وهناك تفاديا لاصطدامه مع هذا الحشد الكبير ..

وكان ثويني بقوته وجبروته يريد والله العلي القدير يريد

فغلبت قدرة الله ثويني فانتدب له شخص يدعى (طعيسا) فقتله بحربة كان أعدها لذلك وقضي الأمر .

ورغم ان الجَيش أَراد أَن يتحامل على نفسه ويعين ناصرا أَخا ثويني أَميرا عليه إلا أَن الفشل دب فيه وخارت قواه وانخذل جيشه وكان ما حمله من قوة وذخيرة واستعداد وعتاد قوة للمسلمين وسندا . كان قتل ثويني عام (١٢١٢ هـ) .

ولم يكن والي بغداد ليضعف أَمام هذه الهزيمة فقد كتب إلى الباب العالي يشير بتجهيز حملة أَخرى فكان الوفاق وكان تجهيز الحملة بعد ست سنوات بقيادة (كخيا علي باشا) في جيش كثيف وقوة هائلة سنة (١٢١٣ هـ) فزحف الجيش ونزل بالأَحساءَ واحتل ما أَحتل منها وواجه من رئيس حصن المبرز سليمان بن ماجد ورئيس حصن الهفوف إبراهيم بن عفيصان كل مقاومة واستبسال مما اضطر الكخيا إلى دفن ذخيرته واحراق ما احرق منها وعرض الصلح بينهما فتم وانقلب الكخيا خائبا إلا من بعض نصوص معاهدة لا تسمن ولا تغني من جوع .

وفي سنة (١٢١٤ هـ) حج الأَمير سعود بالناس في جمع كثيف .

وفي سنة (١٢١٦ هـ) كانت وقعة كربلاءَ التي تسور السعوديون أَسوارها وبلغوا مقاصدهم وعادوا سالمين .

وفي هذه السنة زحف سلطان مسقط سلطان بن حمد على البحرين وأَخذه من آل خليفة ولكنهم فزعوا إِلى عبد العزيز فامدهم بجيش كثيف فاسترد البلاد من المغيرين وقتل منهم قرابة الفين وعادوا خائبين .

وفي سنة (١٢١٧ هـ) مات والي بغداد سليمان باشا وعينت الدولة مكانه (كيخيا علي باشا) .

وفيها استعاد المصريون والأَتراك مصر من أَيدي الفرنسيين .

وفيها انتقض الصلح بين شريف مكة الشريف غالب وبين الإِمام عبد العزيز . وفيها خرج (عثمان المضايفي) على الشريف غالب ووفد على الإِمام عبد العزيز بالدرعية . وجهز جيشا لمحاربة الشريف غالب اجتمع عليه أَقوام كثيرة من أَهل نجد والحجاز فزحفوا على الطائف والقي الرعب في قلب الشريف فهرب من الطائف ودخلها الجيش بدون حرب فغنم غنائم كبيرة جدا مما خلفه الشريف .

تم هذا والأَمير سعود مخيم على روضة السبلة يعد العدة

لمهاجمة الحجاز فزحف بعد هذا إلى الحجاز وما أن علم به الشريف غالب حتى حمل اسلحته ومعداته وغادر مكة إلى جدة فدخلها سعود بسلام وأعطى لأهلها الامان . وجاءَ الشريف عبد المعين أخو غالب ليطلب الصلح من الأمير سعود على أن يكون عاملا له على مكة .

وسار سعود إلى جدة لمهاجمة الشريف غالب ولكنه وجدها محصنة فتركها وعاد للدرعية .

وفي سنة (١٢١٨ هـ) قتل الإمام عبد العزيز في مسجد الطريف بالدرعية من قبل مترهبن يدعى الزهد والعفاف وأنه مهاجر إلى الدرعية من بلدة العمارية بالموصل وكان قصده سعود انتقاما لغزو كربلاءَ ولكنه قضي الأمر بقتل الإمام عبد العزيز .

لقد كان رحمه الله قويا أمينا محبا للخير وأهله سخيا عطوفا مجاهدا .. أفنى حياته في الجهاد في سبيل الله في عهد والده ثم في عهده في شتى انحاءَ الجزيرة بادية وحاضرة من أجل رفع كلمة الله واعلاءَ دينه .. لم يذق للحياة الهادئة طعما بل كلما عاد من غزوة جهز لأخرى حتى توفاه الله ساجدا في مسجده بالطريف . وهكذا شأن الزعماءَ المجاهدون النابهون يعطون من انفسهم ومن أوقاتهم ومن راحتهم ما أهلهم للمكانة السامية والقدر الرفيع .

امراءَ الإِمام عبد العزيز وعماله على الاقاليم :

عبد الوهاب (أَبو نقطة) أَميرا على تهامة وما يليها .

عثمان المضايفي أَميرا على الحجاز ونواحيه .

صقر بن راشد أَميرا على عمان وأَطرافه .

سليمان بن محمد بن ماجد أَميرا على الأَحساءَ ونواحيه .

أَحمد بن غانم أَميرا على القطيف ونواحيه .

سليمان بن خليفة أَميرا على الزبارة والبحرين .

ربيع بن زيد الدوسري أَميرا على وادي الدواسر .

إِبراهيم بن سليمان بن عفيصان أَميرا على الخرج ونواحيه .

ساري بن يحيى بن سويلم أَميرا على المحمل .

عبد الله بن حمد بن غيهب أَميرا على الوشم .

عبد الله بن جلاجل أَميرا على سدير .

حجيلان بن حمد أَميرا على القصيم .

محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي أَميرا على جبل شمر وما يليه .

أما قضاته فهم :

على الدرعية بعد الشيخ محمد ابنه الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب واخوه الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وامام قصره عبد الرحمن ابن خميس .

وقاضيه على الوشم عبد العزيز بن عبد الله الحصين .

وعلى ناحية سدير حمد بن راشد العريني .

وعلى منيخ وما حوله محمد بن عثمان بن شبانة .

وعلى ناحية القصيم عبد العزيز بن سويلم من أَهل الدرعية .

وعلى ناحية الخرج في الدلم محمد بن سويلم من أَهل الدرعية .

وعلى ناحية الجنوب في الحوطة سعيد بن حجي .

هؤلاء هم أَشهر قضاته .

ويعتبر عبد العزيز بن محمد بن سعود أَول من حكم نجداً من أَقصاها إلى أَقصاها وأَول من تسمى بالإمام . وهو الذي أَبطل (الأَخاوات) التي تؤخذ من الحجاج وغيرهم وكذلك القوانين والجوائز التي تؤخذ على المجتازين . لأَن الأَمن في عصره أَصبح

مضرب المثل فالمواشي تخرج في الفلوات والبراري أَشهرا لا يعرف مكانها حتى تأْتي للشرب .

وتعذر خيلهم في (النقعة) و (قري عبيد) مددا طويلة لا يتعرض لها أَحد بسوءَ .

الفصل الثالث

سعود بن عبد العزيز (الكبير)

ولد بالدرعية عام (١١٦٥ هـ) وتوفي بها عام (١٢٢٩ هـ) وله من العمر (٦٤) عاما ومدة ولايته (١١) سنة .

انجب اثني عشر ولدا هم الإمام عبد الله وفيصل وناصر وتركي وإبراهيم وسعد وفهد ومشاري وعبد الرحمن وحسن وخالد وقد انقرضت ذريته آخرهم سنة (١٢٦٥ هـ) .

فسعود الكبير كبيرا في عقله ومقامه وقدره كبيرا في ولايته وحكمه كبيرا في جهاده وفضله ونبله ..

لازم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأخذ عنه علما جمامدة عامين .

ولازم والده مدة حياته يأخذ عنه أساليب الحكم وسياسة الدولة وتدبير الأمور . واضطلع بمهمة القيادة في عهد والده كما كان أبوه قد اضطلع بمهمتها في عهد والده أيضا .

وكان ذا مرة وقوة واستعداد لا يفتر له عزم ولا تخبو له

جذوة ولا يعود من غزو إلا ويستعد لغزو آخر .. جذوة مضطرمة وحزم متوقد وفضل لا يباري ولا يجاري .

ما أَن شب عن الطوق حتى اضطلع بمهام الحكم وحمل جلها عن والده وبرز في معالي الأَمور وضخام المسئوليات ..

ستا وثلاثين غزوة غزاها جلها لم يفل له حد ولم تنكس له راية أَعطت دولة الدرعية مكانة من هيبة وخلعت عليها فضلا من قوة وعزيمة وبوأَتها مكانة سامية وعزة متناهية تولى الحكم بعد وفاة ابيه سنة (١٢١٨ ه) .

كانت السنة (١٢١٧ ه) حينما جاءَ عثمان المضايفي إلى الدرعية منابذا الشريف غالب وكان أَن جهز عثمان بجموع كبيرة لمحاربة الشريف فهاجمه في الطائف واحتلها ثم هاجمه في مكة واخرجه منها .

وكان سعود يعد العدة في روضة (السبلة) لغزو الحجاز فلحق بالمضايفي وشد أَزره وزحف على جده ولما لم يكن في إمكانه حصارها عاد وتركها .

وفي سنة (١٢١٨ ه) عاد الشريف إلى مكة واخرج الحامية السعودية منها فبادره سعود ونزل وادي فاطمة وبني حصنا هنالك

لمضايقة الشريف . وأوعز إلى عبد الوهاب بن عامر (أبي نقطة) بمن لديه من العربان بالزحف على الشريف فزحف ونزل (السعدية) وخرج عليه الشريف فهزم ولاذ بمكة يحتمي فيها فزحف عليه الجند السعودي وحاصره وشدد عليه الحصار فطلب المصالحة فصالحه سعود .

وفي هذه السنة قدم الدرعية بعض رؤساءَ حرب وهم أبناءَ بدوي بن مضيان بادي وبداي فبايعا على السمع والطاعة والجهاد في سبيل الله مع من تبعهما من قبيلة حرب . فضربوا الحصار على المدينة قرابة سنتين حتى استسلمت وانقادت للطاعة وتمت البيعة سنة (١٢٢٠ هـ) .

وفي سنة (١٢٢١ هـ) وصل سعود إلى مكة واستقبله الشريف غالب وبايعه فاقره سعود أميرا على مكة واجلى من كان فيها من الأتراك وكسا الكعبة ووزع الصدقات وبعد الحج واصل سيره إلى المدينة فرتبها واجلى الأتراك عنها واستقر الوضع بها أربع سنوات وفي كل هذه السنوات يحج ويعظ الناس وخطب الناس من على ناقته في نمرة فوعظهم وبين لهم مناسك الحج وترك البدع والمنكرات . .

وامتدت الدعوة والولاية إلى الجنوب الغربي من البلاد حيث

عسير وتهامة واليمن وكان عبد العزيز قد ولى محمد بن عامر أَمر تلك الجهات ولما توفي ولي بعده أَخوه عبد الوهاب الذي اخضع الشريف حمود صاحب إِبي عريش فاضيفت هذه إِلى ولايته حتى انشأَ الشريف علاقات ودية مع الدرعية . وقتل عبد الوهاب سنة (١٢٢٥ هـ) حينما نكص الشريف حمود وتولى عبد الوهاب حربه وعين سعود (طامي بن شعيب) مكانه واشترك طامي في الحرب التي شنها محمد على على الحجاز الجنوبي وظل يكافح حتى سنة (١٢٣٠ هـ) وهي السنة التي سقطت فيها عسير في يد محمد علي .

وكان سعود قد استولى على جملة من بلاد اليمن وعاهده بعضها واستتب الأَمر له هنالك بمساعدة طامي بن شعيب .

ولقد جهز سعود حملة كبيرة بقصد الثأَر لوالده من العراقيين ولكن الظروف لم تساعده على تحقيق ما أَراد .

وفي سنة (١٢٢١ هـ) غزا سعود جهة بوادي الشام لتأَديب عرب الشرارات الذين كانت منهم اعتداءَات على عرب القصيم .

وفي سنة (١٢٢٥ هـ) غزا جنوبي الشام ووصل إِلى الجولان ودرعا وما يليها لما نقل له أَن عرب تلك الجهة تستعد لغزو نجد ففرقهم وغنم منهم وعاد إِلى بلاده .

وفي سنة (١٢٢٢ هـ) ضاقت الدولة العثمانية ذرعا بالحركة السعودية وجعلت تفكر في القائد الذي سوف يتولى هذه المهمة ولكن تفكيرها لم يطل فمحمد علي هو أَولى مرشح لهذه المهمة فهو يهيمن على بلاد مصر الواسعة ذات الخيرات والعدد الوافر من السكان ثم هو أَيضا مؤهل بقوته وجبروته واستعداده .. وترشيحه لهذه المهمة يطرح هما يقلق الدولة ويريحها مما تخشاه من تحركات محمد علي وطموحه في أَن يستقل بمصر ويخرج على الباب العالي مما يوقعها في مشكلة هي أَخطر من مشكلة الحركة السعودية وإذا فلا بد من ذلك ولم تزل به وهو يراوغ عن الاضطلاع بهذه المهمة حتى قبل بشروطه المجحفة ..

فاعد العدة وعهد إلى ابنه طوسون بقيادة الحملة وجعل من بلاد ينبع مركزا لتجميع قواه البرية والبحرية ومنها زحف إلى وادي الصفراءَ حيث حصل اللقاءَ الأَول مع جيش عبد الله بن سعود الذي اوقع بجيش طوسون هزيمة منكرة مما جعل فلول جيشه تلوذ بمراكبها البحرية ..

وما أَن سمع محمد علي بهذه الهزيمة حتى جهز حملة أَخرى بقيادة (أَحمد نابرت) الذي وصلت حملته إلى ينبع في (١٢٢٧ هـ) ونقل طوسون مقر قيادته إلى (بدر) وهنالك

نظمها وزحف إلى وادي الصفراء مرة أخري فاحتله .. واغدق الاعطيات والهبات والأسلحة على قبائل (حرب) و (جهينة) فانضمت إلى صفوفه .. وزحف إلى المدينة واستعمل المتفجرات والأسلحة الحديثة وشدد الحصار على حامية ابن سعود فاستسلمت المدينة بعد طول حصار أوقع بها الجوع والمرض واليأس .

وعاد طوسون إلى مخيمه ومنه تجهز للزحف على جدة ومكة وكلاهما في يد الشريف الذي رحب بطوسون وحملته وجعل المرابطين من جنود آل سعود يلوذون بالفرار .

هذا وجنود عبد الله بن سعود قد تمركزت بقرب الطائف فزحف إليها طوسون بجنوده وهزمها فعادت إلى نجد .

وقد دبرت القيادة السعودية خطة تقضي بالانسحاب عن الحجاز واجترار الجيش المصري إلى نجد ليهلك في بواديها وتحتويه بقيظها وسمومها . ورتبت القيادة السعودية جيشين :

الأول يقوده سعود بنفسه ويجعل من (تربة) قاعدة له إذا زحف من قبل الطائف .

والثاني بقيادة ابنه عبد الله ويجعل (الحناكية) قاعدة له إذا جاء عن طريق المدينة .

وكان ان لقيت الحملة المتجهة إلى تربة هزيمة جعلتها تتراجع إلى مكة والطائف . وقرر إقامة حاميات في هذه المدن وكاتب والده يطلبه النجدة ورأى أن هذه الحملة قد أدت مهمتها باسترداد الحرمين وأن يدخل محمد علي مع سعود في مباحثات الصلح فاشتط محمد علي وطلب خسائر الحملة كلها فأبي سعود .

فأخذ محمد علي يدبر خطة جديدة فاتخذ من جدة قاعدة تموينية واغدق عطاياه وهباته على البادية لينضموا إلى جيشه وليكونوا له أدلاء وتوجه من مصر إلى مكة لاداء الحج وليرتب قواته عن كثب وقد قبض على الشريف غالب وبعث به إلى تركيا لاشتباهه في أمره . ولكن مع ذلك لا تزال الرياح تجري ضده فقد زحف طوسون مرة أخري إلى تربة فنكص خائبا مهزوما .

والقوة التي وجهها إلى تهامة الجنوب لقيت مقاومة عنيفة من طامي بن شعيب أمير تلك الجهات للامام سعود .

وانضم الشريف راجح الذي عينه محمد على أميرا على الحجاز بدل الشريف غالب انضم إلى جيش الدرعية .

فأراد محمد علي أن يغير نهجه في سياسة المنطقة فقد جعل

يتنقل بين مدن الحجاز ويغري أَهلها بالاعطيات والهبات خصوصا قبائل المنطقة عتيبة وهذيل وثقيف وبني سعد وغيرهم.

وطلب قوة واستعدادا من مصر يبني قوته ويحكم خطته .

وفي هذه الاثناءَ كانت دولة الدرعية قد أَطلت على الخليج العربي وابطن الانكليز خيفة من هذا النمو السريع والتقدم المستمر خوفا على مستعمراتهم ووسائل نقلهم التجارية في المنطقة فأَخذوا يراوغون طلبا لمصالحة الدرعية في الظاهر والكيد لها في الباطن .

وحصلت مكاتبات واتصالات بين الطرفين في هذا الصدد .

وفي سنة (١٢٢٨ هـ) رغبت الدرعية في إقامة علاقات مع الانكليز إبان حروب محمد علي فردت الحكومة البريطانية بانها لا ترغب في هذا الظرف في اقامة علاقات حتى ولو كانت تجارية مما أَظهر بعض ما تبطنه من تربص ومما طلة لكي ترى ما تسفر عنه هذه الحروب .

واكد ذلك ما وقع في نهاية السنة نفسها من أَحداث حينما سقطت الدرعية في يد إبراهيم باشا وافصحت الحكومة البريطانية عن مكنون سرها .

وفي هذه الظروف المضطربة والأَحوال العصيبة تداعى الحصن وهوي العقاب لقد مات سعود ربان سفينة دولة الدرعية وقائدها المحنك فكان رزءَ الا يداني وتحول في هيبة الدرعية وفي سياستها وفي نفوذها لقد واجهت مستقبلا مظلما وخطرا داهما لا يعلم ما يضمره إلا الله .

لقد كان سعود في سعة تجربته وقوة نفوذه وصرامة حزمه واستحكام عزمه قوة أَعطت الحكومة هيبة ووهبت الدولة نفوذا وقوة واستعدادا وملءَ مركزه صعب في مثل هذه الظروف .

لقد حكم الدرعية (١١) سنة أَو عشر سنوات ونيفا ولم تكن مدة هذا الحكم فقط هي التي وهبته هذه التجارب ولكنه منذ عصر والده ومنذ أَن شب عن الطوق وهو يمارس تجارب قاسية ويضطلع بمهمات كبيرة وفوق ذلك فهو مؤهل علميا لمهمته ومستعدا ثقافيا لمسئوليته علاوة على مالديه من قابلية فطرية واستعداد تكويني ..

قال ابن بشر حينما تناول بعض خصائص شخصيته العلمية : (أَخذ العلم عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولازمه مدة سنتين وكان يلازم مجالس الدرس وكانت له معرفة وتمكن في التفسير والحديث والفقه يظهر ذلك في مكاتباته ونصائحه

وتوقيعاته ليحضر الدليل والشاهد والمثل وما ورد من كلام العلماء والبلغاء مما يبهر من حضره ويعترف له بالفضل والتبريز.

ويقول واصفا مجالس العلم والتعليم وإقبال الكل عليها في انتظام والتزام (.. إذا جاء وقت طلوع الشمس جلس الناس من أهل الدرعية وغيرهم للدرس في الباطن إن كان في الصيف فعند الدكاكين الشرقية وان كان في الشتاء فعند الدكاكين الغربية .. يجتمع جمع عظيم من الناس ويجلسون حلقا يتقدمهم مجلس سعود وبنيه وعمه وبنوه وابناء الشيخ في هيبة ووقار فإذا تكامل عقدهم خرج سعود ومعه عبيده وخدمه وحشمه وجلس في صدر هذا الحشد وبدأ القاريء في تفسير أبن جرير الطبري وتفسير ابن كثير .

فإذا فرغت القراءة قام لقصره وبدأ في مزاولة أعماله فإذا جاء قبيل الظهر احتشد آل سعود في مجلس درس خاص يتصدره إمام مسجد الطريف وأحيانا القاضي عبد الرحمن بن خميس إمام مسجد القصر يقرآن في تفسير ابن كثير وفي رياض الصالحين ثم يعلق الإمام سعود على هذه القراءة بما شاء من تحقيق وتدقيق وكلام للعلماء والمفسرين فيأتي بكل عبارة فائقة واشارة رائقة فتمتد إليه الأبصار وتحير من فصاحته الأفكار ..

وكان من أَحسن الناس كلاما وأَعذبهم لسانا واجودهم بيانا) .
انتهى ملخصا من ابن بشر .

وكان رحمه الله يصلى الجمعة في موضع بناه فوق المنبر والمحراب من مسجد الجامع بالطريف هو وخاصته وعبيده اتخذ ذلك بعد اغتيال والده وجعل عليه طريقا من القصر ويقف خلفه اثنان في الصلاة من خواص عبيده أَما في المغازي فيقف خلفه ستة .

أَما امراؤه على الاقاليم فهم :

إِبراهيم بن عفيصان على الأَحساء .

أَحمد بن غانم على القطيف .

سلمان بن خليفة على البحرين .

سلطان بن صقر بن راشد على عمان ثم ابن أَخيه حسن ابن رحمة .

وعلى الجيوش هنالك مطلق المطيري .

ربيع بن زيد على وادي الدواسر .

عبد الله بن سليمان بن عفيصان على الخرج .

عبد الوهاب (أَبو نقطة) على تهامة والطور وما يليها .

سالم بن شكبان على بيشة وبعده ابنه فهاد .

مصلط بن قطنان على رنية .

عثمان بن عبد الرحمن المضايفي على الطائف والحجاز .

الشريف غالب بن مساعد على مكة المكرمة .

حسن قلعي على المدينة المنورة .

الشريف جابر بن جبارة على ينبع .

محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي على جبل شمر والجوف وما يليهما .

حجيلان بن حمد على القصيم .

حمد بن سالم ثم عبد الكريم بن معيقل على سدير .

محمد بن إبراهيم بن غيهب الجميح على الوشم .

ساري بن يحيى ثم ابنه على المحمل .

أَما قضاته على الأَقاليم فهم :

قضاة الدرعية :

عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعلي بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحمد بن ناصر بن معمر

وعبد الرحمن بن خميس إمام القصر .

ومحمد بن سلطان العوسجي من ثادق قاضيه على الأحساء فلما توفي عين مكانه عبد الرحمن بن نامي من أهل العيينة .

محمود الفارسي مهاجرا من فارس على القطيف .

أحمد الحفظي قاضيه على تهامة .

وحسن بن خالد الشريف على اليمن .

وعبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين على روضة سدير .

عبد الله بن سليمان بن عبيد من جلاجل على جبل شمر وما يليه .

غنيم بن سيف على بلاد القصيم .

فلما توفي غنيم جعل مكانه أخاه عبد الله بن سيف .

عبد العزيز بن عبد الله الحصين على الوشم .

علي بن يحيي بن مساعد على سدير .

عثمان بن عبد الجبار بن شبانه على منيخ .

عبد الرحمن بن عبد المحسن أبا حسين على حريملاء والمحمل .

على بن حمد بن راشد العريني على الخرج .

أحمد إلياس الاسطنبولى الحنفي وأحمد بن رشيد الحنبلي

على المدينة المنورة .

سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب على مكة المكرمة مع قضاتها من قبل الشريف .

من أهم الاحداث التي وقعت في عهد الامام سعود .

في سنة (١٢١٩ هـ) ثار قوم من القواسم أهل رأس الخيمة على امام مسكة سلطان بن حمد بن سعيد فقتلوه .

وفيها عين إبراهيم بن سليمان بن عفيصان على الأَحساءَ بدلا من سليمان بن محمد بن ماجد .

وفيها وثب محمد على والى مصر فقتله وعين نفسه واليا عليها وبعث بالخبر إلى الدولة العليه فأَقرته على ذلك ضعفا منها أَمام ثوة محمد علي وفيها وقعت مخالفات من عربان الظفير فاغار عليهم سعود وقتلهم مقتلة كبيرة وغنم كثيرا من أَموالهم .

وفي سنة (١٢٢٠ هـ) وقع قحط وغلاءَ في عموم ربوع الجزيرة مات فيه خلق كثير .

وفيها زحف عبد الوهاب (أَبو نقطة) بجموعه الكثيفة إلى مكة فضيقوا الحصار على الشريف غالب حتي أَذعن وبايع

على السمع والطاعة وفيها توفي سالم بن شكبان أمير بيشة وعين ابنه فهاد مكانه .

توجه الإمام سعود بغزو نحو جنوبي العراق وأغار على عربانه وهدد تلك الجهات وعاد غانما .

توجه عبد الوهاب (أبو نقطة) في غزو كثيف إلى نجران ونازلها مدة وأخيرا بني قصرا لمضايقتها وعاد .

حاصر إمام اليمن الحديدة وبيت الفقيه واحتلها وكانت قد بايعت الامام سعود .

وفي سنة (١٢٢١ هـ) حشد الامام سعود قوة تجاه المدينة لمنع الحجاج الشامي والتركي من الحج خوفا من غدر الشريف غالب ولكن رؤساءَ الحجاج طلبوا من الامام سعود الأَذن لهم فأَذن لهم فحجوا .

وفي سنة (١٢٢٣ هـ) جرت وقعة كبيرة بين قوات الإمام سعود وقائدها مطلق المطيري وقوات سعيد بن سلطان حاكم مسكة تساندها قوات سحار فهزمت القوات العمانية في (خور خكان) وقتل قيس وكثير من رجاله وحملت غنائم هذه الوقعة للدرعية وأَخيرا بعث هؤلاءَ يطلبون المبايعة ودخلوا في السمع والطاعة .

وفي سنة (١٢٢٤ هـ) وقع وباءً في الدرعية مات فيه خلق كثير ومنهم الشيخ القاضي حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وفي هذه السنة ظهر من الشريف حمود أَبي مسمار ما يريب فوجه إليه عبد الوهاب (أَبو نقطة) وخلق كثير فانهزم في النهاية ولكن قتل في أَول المعركة عبد الوهاب أَبو نقطة وبعض رجاله فاستعمل بدله (طامي بن شعيب) على تلك البلدان .

وفي هذه السنة وقعت حرب عمان بين سعيد بن سلطان ومن والاه من الانكليز وغيرهم وبين مطلق المطيري قائد الجيش السعودي وبعد مناوشات وقتال انتصر الجيش السعودي ولم يبق من عمان تحت يد المناوئين إلا مسقط وبعض سحار .

وفيها بدا من آل خليفة امراءَ البحرين والزبارة ما يريب فبعث لهم الإمام سعود حملة بقيادة محمد بن معيقل ثم عبد الله ابن عفيصان فأَقاما بالزبارة أَربعة أَشهر . ثم أَمر بأَن يفد آل خليفة إليه في الدرعية فوفدوا .

وفي سنة (١٢٢٥ هـ) ترك سعود لديه من آل خليفة بعض رؤسائهم وسمح للبقية والنساءَ والذراري بالعودة إلى الزبارة

ولكنهم هربوا ليلاً إلى مسقط واستعانوا بالانكليز فهجموا على فهد بن عفيصان هنالك والسرية التي معه وأَخذوهم رهائن حتى يفك أَسار الذين في الدرعية .

وفي هذه السنة خرج أَبناءَ الإمام سعود تركي وناصرو سعد عن رغبة والدهم وكانت بينهم وبينه ملاحاة وقصدوا عمان مع بعض اتباعهم . وكونوا جيشا هنالك فغزوا وفتحوا وغنموا ..

ولكن كل ذلك لم يرض والدهم فتوسط من توسط لدي سعود ليرضى عنهم ففعل وعادوا .

وفي هذه السنة سير الإمام سعود عبد العزيز بن غردقة إلى عمان خلفا لمطلق المطيري فوقعت بينة وبين بني ياس معركة انهزم فيها ابن غردقة فقد استعان سلطان مسقط بالعجم فاعانوه بثلاثة آلاف ساروا إلى عمان فعاثوا فيها فسادا واستولوا على (سمايل) فهاجمهم مطلق المطيري بجنود أَشداءَ من نجد فهزمهم وغنم كثيرا من أَموالهم وأَسلحتهم ..

وفي سنة (١٢٢٨ هـ) بعث الإمام سعود مطلق المطيري لقيادة الجيش المتجه إلى عمان فسار إلى (جعلان) فحاصرها وأَغار وغنم ولما رجع تبعوا أَثره وحصل اللقاءَ بين الطرفين وقتل فيها من قوم مطلق المطيري كثير وقتل هو نفسه .

وفي سنة (١٢٢٩ هـ) توجه طوسون لمحاربة الحامية السعودية في تربة فهزمته غالية الوهابية هزيمة منكرة وفر لا يلوي على شيء .

وفي هذه السنة أغار حجيلان بن حمد ومحمد بن علي على عياد الذويبي ومن معه من بوادي حرب قرب الحناكية فدارت الدائرة على جند سعود .

وكانموذج لكتابات ذلك العصر .

وكدليل على حسن نوايا حكومة الدرعية وانها لا تريد من أحد سوى اتباع السنة واطراح البدعة .. نثبت هنا رسالة بعث بها الإمام سعود إلى (بابا خان) أي شاه إيران (فتح علي شاه) نقلناه عن كتاب (الدولة السعودية الأولى) الذي نقلها عن مكتبة المتحف البريطاني في لندن .

(بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

من سعود بن عبد العزيز إلى جناب بابا خان سلمه الله تعالى من النار واستعمله في أعمال الصالحين الأبرار ، أما بعد فان الله تعالى قال في كتابه المبين : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين) وقال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى دين بينه ، وانزله كتابا ، وشرعه على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أن دعوته إلى ذلك هي طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن اتبعه إلى يوم القيامة فقال تعالى :

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن وسبحان الله وما أنا من المشركين .)

والباعث لنا على إرسال هذا الكتاب إليك أن نعرفك بالحق الذي نحن عليه وما ندعو الناس إليه و ما نقاتلهم عليه ، فأما حقيقة ما نحن عليه فكنا قبل أن يمن الله علينا بدين الإسلام ، في جاهلية عظيمة أهل أوطاننا يعبدون الأوثان والبنايا التي على القبور وغير ذلك من الحجر والشجر وتركوا الفرايض مثل الصلاة والزكاة فلا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة

منهم إلا قليل هذا مع ما هم عليه من المنكرات الظاهرة والظلم من القوي للضعيف ثم بعد هذه الحالة بين الله لنادين الإسلام على يدي شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، فبين لنا هذا الذي يفعل عندنا من دعوة غير الله والذبح لغير الله والنذر وغير ذلك من أنواع العبادات التي لا تصلح إلا لله لا يجوز صرف شيء من ذلك لغير الله ، وأن من صرف شيئا من ذلك لغير الله فقد أشرك ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار فلا يدعى إلا الله وحده قال تعالى : (وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) وقال تعالى : (فلا تدعوا مع الله أحدا) وقال تعالى : (فلا تدع مع الله اله آخر فتكون من المعذبين) وقال تعالى (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء) وقال تعالى : (والذين تدعون من دونه لا يملكون من قطمير أن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) وقال تعالى : (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لا يدعى إلا الله وحده لا شريك له وأنه لا يصلح شيء من ذلك لاحد لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما وكذلك ذبح القربان إلا لله ، قال تعالى : (فصل لربك وانحر)

إلى اخرها . وقال تعالى :) إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له) فمن ذبح القربان لغير الله فقد أشرك مع الله في عبادته وصار من جملة المشركين . وكذلك النذر لا ينذر إلا لله فلا يجوز النذر للاوثان والبنايا التي على القبور وكذلك الخوف والرجاء والتوكل والسجود .. فكل هذه العبادات لا تصلح إلا لله بل لابد أن تكون العبادات كلها لله وحده لا شريك له قال تعالى : (فاعبد الله مخلصا له الدين إلا لله الدين الخالص .) وقال تعالى : (هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين) .

والتوحيد هو الذي خلق الله الخلق لأجله وأرسل الرسل وأنزل الكتب للأمر به والدعوة إليه قال الله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وهذا التوحيد هو معنى قول الإنسان لا إله إلا الله فان الإله هو المعبود فمن صرف شيئا من العبادة لغير الله فقد جعل ذلك الغير إلها مع الله وان قال انما أردت بدعاء النبي أو العبد

الصالح ليقربني إلى الله ويشفع لي عنده فان هذا هو الذي أَراده كفار قريش من آلهتهم سواءَ بسواءَ قال الله تعالى حاكيا عنهم : (والذين اتخذوا من دونه أَولياءَ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ..) وقال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاءَ سفعاؤُنا عند الله .)

فهذا هو الشرك الذي يفعله المشركون وإلا فانهم يقرون أَن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر كما حكى الله عنهم ذلك في آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالي : (قل من يرزقكم من السماءَ والأَرض أَمن يملك السمع والأَبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأَمر فسيقولون الله فقل افلا تتقون) وقوله تعالى : (قل لمن الأَرض ومن فيها أَن كنتم تعلمون ... إلى قوله فاني تسحرون) .

فهذا إقرار بأَن الرب تبارك وتعالى هو الفاعل لهذه الأَمور وأَنه رب كل شيءَ ومليكه ومع هذا لم يدخلهم في الإِسلام بل كفرهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأَحل دماءَهم وأَموالهم لانهم اشركوا في التوحيد الإِلهى الذي هو توحيد العبادة وهو معنى شهادة أَن لا إله إلا الله وأَن محمدا رسول الله فنعتقد أَن الله تعالى أَرسله إلى العالمين جميعا كما قال تعالى : (تبارك الذي

نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقال تعالى : (ياأَيها الناس أَني رسول الله إليكم جميعا) فيجب على الخلق أَن يطيعوه فيما أَمر وينتهوا عما عنه زجر كما قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فنحن نحمد الله نستن بسننه ونهتدي بهدايته ونجتهد في اتباعه حسب استطاعتنا فنأَمر بعبادة الله وحده لا شريك له وذلك هو التوحيد الذي هو أَعظم ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وننتهي عن الاشراك بالله الذي هو اقبح القبائح وأَنكر المنكرات وهو أَول ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقيم الصلوات في مواقيتها باركانها وواجباتها وشروطها ونحمل جميع رعايانا على ذلك من الذكور والاناث ونؤدي الزكاة كما أَمر الله ونصرفها في مصارفها الشرعية إلى الأَصناف الثمانية التي صرفها الله إليها في كتابه فقال تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين ..) إلى قوله عليم حكيم .

ونصوم رمضان ونحمل جميع رعايانا على ذلك من كل حاضر وباد ونحج البيت الحرام ونأَمر رعايانا به من كان يستطيع إليه سبيلا ونأَمر بالمعروف الذي أَمر الله به ورسوله وننهى عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر وكل مسكر ونقيم الحدود على من ارتكب محرما

فيه حد من حدود الله ونقيمه على حسب ما شرع الله ورسوله وننهى عن الظلم والبغي والاستطالة على الناس وننصف الضعيف من القوي فنأخذ الحق ممن أعتدي عليه .. فهذا حقيقة ما نحن عليه من الدين وهو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من عباده دينا سواه كما قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وهو الذي ندعو الناس إليه ومن أبي عن الدخول فيه والتزام أحكامه قاتلناه على ذلك كما أمرنا الله بذلك في كتابه قال الله تعالى : (قاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .) وقال تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم .)

وقد ثبت في الصحاح وغيرها من دواوين الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله .)

وثبت في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم .

فهذا الذي ذكرنا لك هو الذي نعتقده وندين الله به وأَماما ينسبه إلينا أَعداؤنا من الكذب والبهتان مثل قولهم أَنا نكفر الناس بالعموم أَو نبغض أَهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونستصغر الأَولياءَ والصالحين ونهتك حرماتهم فنقول : سبحانك هذا بهتان عظيم . وانما قصد أَعداؤنا بذلك صد الناس عن التوحيد واتباع دين الله ورسوله . بل نكفر من عمل بدين الإسلام ولا نقاتل إلا من امتنع عن العمل به والتزام شرائعه ونحب أَهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونترضى عنهم ونتولى أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب كرم الله وجهه ونبغض قاتله ومن أَعان على قتله ونبغض قاتل الحسين وأَهل البيت ونترضى عن جميع أَهل البيت وإننا ننكر ما أَحدثه الناس بعدهم من الأَمور التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البنايا على القبور وإسراجها والصلاة عندها ودعوة أَربابها وصرف العبادة لها من دون الله وانا أَدعوك بدعاية الإسلام أَسلم تسلم وأَسلم يؤتك الله أَجرك مرتين فان توليت فعليك إثم الاريسيين : (يا أَهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءَ بيننا وبينكم إلا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أَربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أَشهدوا بأَننا مسلمون . و.صلى الله على محمد وآله وصحبه الطاهرين وسلم آمين .

أَما مضيفه فكان مخصصا لعامة الضيوف ويخرج له يوميا خمسمائة صاع من البر والأَرز ويكون الغداء من طلوع الشمس إلى وسط النهار يأتي الناس إليه إرسالا على قدر مراتبهم .. ووجبة العشاءَ تبتدئُ من بعد الظهر إلى ما بعد العشاءَ الآخرة فيقدم للأَولون الخبز والأَرز واللحم والذين من بعدهم قريب من ذلك وسائر الناس حنطة خالصة .

أَما الأَمراءَ والضيوف الكبار فينزلون في بيوت في الدرعية وتهيأَ لهم كل الوسائل .

وأَما الصدقات فتفرق على عامة الضعفاءَ وأَئمة المساجد والمؤذنين وطلبة العلم في القرى والبلدان . وفي رمضان يجتمع المساكين فيدخلهم سعود في القصر كل ليلة من ليالي رمضان ويعطي كل واحد منهم جديدة وهي خمس ريال وإذا دخلت عشر رمضان الأَواخر يكسوهم ويفرق عليهم اعطياتهم وكسوتهم عباءَة ومحرمة ويبلغون نحو ثلاثة آلاف .

ويملك من الخيل نحو أَلف وأَربعمائة رأَسا يغزو معه منها نحو ستمائة رأَس يركبها رجال يختارهم من شجعان قومه ومن المماليك وهم نحو خمسمائة مملوك .

وفطر رمضان التي تخرج من القصر فقط نحو ألف وثلاثمائة فطرة عن كل من في القصر .

أما واردات الدولة فهي الزكوات الشرعية من الثمار والمواشي والأخماس والتأديب وما يرد من بندر الحديدة واللحية وتوابعها وما يرد من الأحساء .. ويخرج من الدرعية نحو سبعين عاملة لكافة الأطراف لجباية الزكوات .

الفصل الرابع

عبد الله بن سعود

هو عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود أَكبر أَبناءَ الإِمام سعود ابن عبد العزيز تقلد أَمر الدولة بعد وفاة والده في جمادي الأَولى سنة (١٢٢٩ هـ) وكان في عالية نجد يقاوم جنود الاتراك وما أَن بلغه خبر وفاة والده حتى أَخذ في تنظيم شأَنه وولى غصاب العتيبي إِمارة الجنود الجنوبية تربة وما يليها ريثما يبعث أَخاه فيصلا لقيادة تلك الجيوش ..

اضطلع بمهمة القيادة في ظرف لا يحسد عليه تكاثفت فيه جنود الأَتراك من جهة وحمل عبءَ القيادة وتدبير الخطط وأَحكام الأَمر يقتضيه وقتا وفكرا وتدبيرا من جهة أَخري .

والبادية وأَطراف مملكته أَفسدتها رشاوي محمد علي وأَبناؤه من ناحية ثالثة خصوصا قبائل حرب وجهينة وبلي ومطير وأَعداءَ الدولة في الداخل رفعوا رؤسهم وبدأَت عدواتهم تسفر عن وجهها .. كل هذه الجوانب وغيرها واجهت الإِمام عبد الله وقد قابلها بقلب ذكي وأَنف حمي وصارم مجرد ولكن للأَمور

مصادر وموارد والدنيا إقبال وإدبار والحظوظ تلعب أدوارا كبيرة . وقد بذل عبد الله ما يمكن أن يبذله مثله وما نحن ممن يقول بخوره وضعف عزمه ولكننا نقول :

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

يقول ابن بشر عن الإمام عبد الله : (كان عبد الله ذا سيرة حسنة مقيما للشرائع آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر كثير الصمت حسن السمت باذلا العطاءَ ولكن لم يساعده القدر ، وهذه سنة الله في عباده منذ خلق الخلق حتى لا يبقى الا وجه ربك ذي الجلال والإكرام وكان صالح التدبير في مغازيه ثبتا في مواطن اللقاءَ ، وهو أثبت من أبيه في مصابرة الأعداءَ .

وكانت سيرته في مغازيه وفي الدرعية في مجالس الدرس وفي قضاءَ حوائج الناس وغير ذلك على سيرة أبيه فاغنى عن اعادتها .

قاد الجيوش شرقا وغربا وكابد العساكر المصرية حربا وضربا ، فتتابعت عليه الحروب والكروب ، فصبر حتى تفرق الناس عنه وانتقض نظام الجماعة والائتلاف بعد ما قاتل قتالا ما قاتله أحد من الأسلاف ..) (١) .

(١) ابن بشر .

ويقول الزركلي : (عبد الله بن سعود من أمراء نجد وليها بعد وفاة أبيه سنة ١٢٢٩ هـ ونازعه أخوه فيصل بن سعود فضعفت شوكته وحاربته جيوش العثمانيين القادمة من مصر وتغلب عليه قائدها إبراهيم باشا ، فطلب الصلح وأجابه إليه إبراهيم فتم الصلح وأرسله إبراهيم إلى مصر فأكرمه واليها محمد علي باشا ووعده بالتوسط له عند حكومة الاستانة فقال عبد الله (المقدر يكون) وحمل الى الاستانة هوومن معه فطيف بهم في شوارعها ثلاثة أيام متتابعات وأعدموا في ميدان مسجد أيا صوفيا وقطعت رؤسهم وظلت جثثهم معروضة بضعة أيام .

وكان عبد الله شجاعا تقيا في رأيه ضعف .) (١)

ووصف (غوان) الإمام عبد الله فقال : (كان عبد الله ابن سعود يتفوق على العلماء أنفسهم في الفقه ، كان بليغا وكانت كلماته تقع في القلوب ، كان ذكيا جدا ومتواضعا ، وكان سعود يستشيره وحده من بين أولاده ... كان عبد الله شجاعا ولكن آرؤه في الحروب .. كانت آراء ضعيفة ، وكان ينقصه الحزم في قرارته وتدابيره ومن أخطائه أو عيوبه : أنه استكثر من الضرائب ، وانقص من العطاء وفي مصر مثل معروف

---

(١) الزركلي .

(جيب ماله .. جيب ماله) لقد كان عند عبد الله عدد من الجنود أَكثر مما عند إبراهيم باشا ، ولكن إبراهيم باشا كان أَعظم منه موهبة في الحروب فغلبه ..)

لقد وصفه كثير من الكتاب والمعلقون وقالوا عنه كثيرا ولا أَحسب ما قالوه إلا مجاراة لحظه التعس ولله في خلقه شئون .

ولنا عودة إلى هذا الموضوع لنقف على بعض الحقائق ..

كان امراؤه على الأَقاليم .

فهد بن سليمان بن عفيصان على الأَحساء .

إبراهيم بن غانم على القطيف .

حسن بن رحمة على عمان وقائد الجيوش بها بتال المطيري أَخو مطلق .

قاعد بن ربيع بن زيد الدوسري على وادي الدواسر .

حمد بن يحيى بن غيهب على الوشم .

عبد الله بن سليمان بن عفيصان على الخرج .

ساري بن يحيى بن سويلم على المحمل .

عبد الله بن محمد بن معيقل على سدير ومنيخ ثم عين بدله محمد بن إبراهيم أَبا الغنيم .

حجيلان بن حمد على القصيم .

محمد بن عبد المحسن بن علي على جبل شمر .

وأما قضاته فهم :

على الدرعية : الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب والشيخ علي بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشيخ عبد الله بن القاضي أحمد الوهيبي .

وعلى الأحساء ونواحيها عبد الرحمن بن نامي .

وعلى القطيف محمود الفارسي ، وعلى الخرج على بن حمد ابن راشد العريني ، وعلى الحوطة والحريق رشيد السردي وعلى سدير إبراهيم بن سيف وعلى منيخ عثمان بن عبد الجبار بن شبانة ، وعلى الوشم عبد العزيز بن عبد الله الحصين ، وعلى المحمل محمد بن مقرن العوسجي ، وعلى القصيم عبد العزيز بن سويلم ، وعلى جبل شمر عبد الله بن سليمان بن عبيد ، وعلى عمان عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين .. (١)

(١) عهد عبد الله بن سعود للدكتور منير العجلاني .

وهكذا أخذ عبد الله بن سعود :

لم تكد المصالحة المجحفة تتم في الدرعية حتى أَخذ عبد الله ابن سعود ومعه بعض رفقته نذكر منهم عبد الله السري وعبد العزيز ...

أَخذوا إلى مصر وفي يوم الاثنين (١٧) محرم من عام (١٢٣٣ هـ) وصل إلى مصر عبد الله بن سعود ودخل من (باب النصر) وبصحبته عبد الله بكتاش قبطان السويس . وهو راكب على هجين وبجانبه المذكور وأَمامه طائفة من الادلاءَ .. فضربت المدافع عند دخوله من القلعة ومن بولاق وغيرها .

وقصدوا به دار (إسماعيل باشا) فأَقام يومه ذلك وفي الغد ذهبوا به إلى محمد علي الباشا بشبرا فقام له وقابله بالبشاشة وأَجلسه إلى جانبه وافاض في الحديث معه وقال له : ما هذه المطاولة فرد عليه قائلا : الحرب سجال . قال كيف رأَيت إبراهيم باشا ، قال ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما قدره المولى : فقال محمد علي باشا : إن شاءَ الله تعالى اترجى فيك عند مولانا السلطان .

فقال عبد الله : المقدر يكون .

ثم البسه خلعة وانصرف عنه إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق

وفي يوم الأَربعاءَ (١٩) محرم سافر عبد الله بن سعود إلى جهة الاسكندرية فاستانبول وصحبته جماعة من (الططر) إلى دار السلطنة ومعه خدمه .

ويقول المؤرخ التركي (جودت باشا) ان عبد الله بن سعود وصل إلى خليج استانبول في اليوم الخامس عشر من صفر سنة (١٢٣٤ هـ) وانهم قيدوه هو ورفقاؤه بالسلاسل وساقوه إلى سجن (بوستانجي باشي) بعد أَن مروا بهم في طرق كثيرة وبالقرب من الباب العالي ليراهم الناس قبل إيداعهم السجن حيث مكثوا ثلاثة أَيام أَجريت خلالها التحقيقات معهم عما فعلوه ..

وبعد انتهاءَ التحقيق تقرر أَعدام عبد الله بن سعود وجماعته فأَرسلوا أَولا إلى السراي الهمايونية القديمة حيث كان السلطان وحاشيته يتفرجون على أَلعاب الفروسية و (الجريد) فالقى عليهم نظرة من بعيد ثم أَخذوهم إلى ساحة (بالي كوشك) حيث جري اعدامهم .

ويقول (انكيري ومانجان) أَن محمد على أَرسل مع القائد الموكل بمرافقة عبد الله بن سعود إلى استانبول كتابا إلى السلطان يلتمس فيه منه العفو عن عبد الله ولكن رجال الديوان

السلطاني كانوا ممتلئين حقدا وغيظا على امراءَ نجد الذين تحدوا الخلافة العثمانية وحقروا سمعتها في العالم فلم يعيروا كتاب محمد علي أي اهتمام وكان همهم الوحيد منصرفا إلى الانتقام . ولذلك طافوا بعبد الله في شوارع استانبول أياما للتشهير ثم شنقوه ووضعوا قرار الحكم على جسده وثبتوه بخنجر .

هذا ما قاله (انكيري) .

أما ما قاله مانجان فهو : (لقد ضحوا بعبد الله ليرضوا حقد الشعب التركي المتعصب فطافوا به شوارع استانبول ثلاثة أيام ثم قطعوا رأسه في ساحة أيا صوفيا .

أما رواية (أيوب صبري) صاحب (مرآة الحرمين) و (تاريخ وهابية) وهو شديد العداوة لأهل نجد : يقول :

أن عبد الله بعد التحقيق معه والحكم عليه بالأعدام لم يقتل فورا لان تنفيذ حكم الاعدام أو اعتباره قابلا للتنفيذ يستوجب موافقة السلطان واذنه فانتظروا حتى حضر السلطان إلى السراي القديمة (اسكى سراي) واوقفوا عبد الله بين يدي السلطان وكان إلى جانب السلطان رئيس الوزراءَ (رويش باشا) وشيخ الإسلام (مكي زاده مصطفى عاصم) ثم تلي قرار الحكم الذي أجازه السلطان وصدرت به الفتوي باعدام عبدالله ورفاقه

لارتكابهم جرائم عددها الحكم منها اغلاق طريق الحج وتحريض القبائل على العصيان .. الخ وبعد ذلك نفذ الحكم .

وقد استقبل عبد الله بن سعود الموت بشجاعة نادرة واعدم كل من طامي القحطاني وعثمان المضايفي والقلامحي وغيرهم في أماكن مختلفة .

أما رواية (وتير) فقد نقل ويندر عن الكولونيل وتير في كتابه (رحلة من تفليس استانبول) قوله : لقد رأيت بام عيني اعدام عبد الله بن سعود رئيس الوهابيين الذي قتلوه عند باب حدائق السراي في شهر نوفمبر (١٨١٨ م)

لقد حاول بعض علماء الترك حمله على نبذ معتقداته واعتناق مذهبهم فرفض وهكذا مات شهيد العقيدة .

ويقول ويندر أن الترك وضعوا رأس عبد الله بعد اعدامه في فوهة مدفع ورموها وأما جسده فعلقوه على عامود وبسطوا عليه قطعة بيضاء من القماش كتب عليها الحكم الصادر عليه ليقرأه الناس .

وقال الجبرتي : (وصلت الأخبار عن عبد الله بن سعود أنه لما وصل استانبول طافوا به البلدة وقتلوه عند باب همايون

وقتلوا اتباعه أيضا في نواحى متفرقة فذهبوا مع الشهداء) [1].

وعلى أية صورة قتلوه فهو الحقد والبغضاء ومرض النفوس والاستجابة للنزوات والانفعالات وكبت اشعاع أضاء الكون واندداح نوره في كل مكان وسيظل وسيبقى رغم ما قابله به الجاحدون والافاكون ..

وقد ذهبوا في طريقهم وبقيت الدعوة وبقيت الدولة صخرة تتكسر على متنها الأباطيل وتذوب تحتها الاهواء .

أما الذين نقلوا من الدرعية إلى مصر فان إبراهيم باشا بعد أن مكث في الدرعية بعد احتلالها قرابة تسعة أشهر فقد أمر على جميع آل سعود وأبناء الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأسر الجميع أن يرحلوا إلى مصر ولم يبق إلا من اختفى وهرب .

ويقال أن عدد الذين أرسلهم إبراهيم باشا إلى مصر كان أربعمائة يدخل فيهم كافة الأسر . وقد اسكنوا عند جامع مسكة بداره وأما البقية فاسكنوا بالقشلة في الازبكية .

ويقول عبد الرحمن بن عبد اللطيف في تعليقه على ابن بشر : أن آل الشيخ الذين أبعدوا إلى مصر محدودو العدد

(١) نقلا عن كتات عبد الله بن سعود للدكتور منير العجلان .

ومشهورو الاسماءَ بل هم قادة الدعوة وزعماءَ الاصلاح في ذلك الوقت ..

وهم الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وصحبته حرمه وابنه الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله والشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وصحبته حرمه وابنه الشيخ عبد اللطيف .

فأَما الشيخ عبد الرحمن بن حسن فمكث في مصر ثمان سنوات ثم رجع إلى الرياض بعد ما تولى الامام تركي بن عبدالله الحكم بسنة واحدة أَي سنة (١٢٤١ هـ) وأَما ابنه الشيخ عبد اللطيف فبقي في مصر واحدا وثلاثين عاما ثم رجع إلى الرياض في ولاية الامام فيصل بن تركي سنة (١٢٦٤ هـ) وأَما الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وابنه الشيخ عبد الرحمن فانهما أَقاما بمصر وتوفيا بها . وفاة الشيخ عبد الله سنة (١٢٤٣ هـ) وله ذرية موجودون بمصر من سلالة ابنه عبد الرحمن وذرية بنجد من سلالة ابنه عبد الرحمن ومن سلالة ابنه علي .

ولقد لحق بمن في مصر بعد الحملة الثانية عمر بن عبد العزيز وأَولاده ومن الفضائح التي ارتكبها هؤلاءَ الطغام

انهم حملوا أسري من نساءً وغلمان وبنات من نجد إلى مصر قنزلوا بهم عند الهمايل وطفقوا يبيعونهم في المزاد العلني على من يشتريهم ..

وهكذا يكون التحرير وهكذا تكون الغيرة على المسلمين والعرب وهكذا يفعلون .

الحقيقة يبرزها قلم حر

[تطوع الأستاذ الكبير (حسن فتح الباب) فسجل هذا البحث المستفيض الوافي من هذا الكتاب بقلمه واستخرجه من المصادر الموثوقة التي لا يرقي إليها الشك ووصف ما كانت عليه المجتمعات الإسلامية في ذلك العصر عصر الدولة العثمانية وما كان عليه ولاتها في مصر من انحطاط وتخلف وفوضى وعلى رأسهم محمد علي واسرته .. ثم ذكر الأسباب التى دعت الدولة لتكليف محمد علي بالقضاءء على الدعوة السلفية في قلب جزيرة العرب .. وهكذا بسط القول في ذلك إلى أن أخذ عبد الله بن سعود إلى (الاستانة) وقتل هناك .

ونحن إذ نشكر الكاتب ونثني على موقفه المشرف وجهاده القلمي الشريف لنرحب بهذا البحث يحتل واسطة عقد هذا الكتاب من علم من أعلام مصر متحرر الرأي والعقيدة والفكر يتناول هذا الموضوع بكفاءة ومقدرة وتحرر ويقول الحق لاتأخذه فيه لومة لائم ..

ويزيدنا استقبالا به وله أن يكون من هذا العلم البعيد عن العاطفة والتحيز وأن يقرأه القاريء وهو مقتنع من صحته واثق من بعده عن الانفعال العاطفي أو التأثر الوطني ..

وهكذا نحن مغتبطون أَن تسجل هذه الأَحداث بقلم حر نزيه له وزنه ودالته في تحقيق وتحرير فكر هذه الأَمة مما علق به من أَدران ولحقه من تشويه] .

فصل

أحوال المجتمعات الاسلامية
في عصر العثمانيين عند ظهور الدعوة السلفية

انهارت في عصر العثمانيين جميع المقومات التي تنهض عليها حياة المجتمعات السوية ، ولم ينج من هذا الانهيار مجتمع واحد من مجتمعات العالم الإسلامي ، لأَن نظمة التي وضعها السلاطين الأَتراك لحكمها كانت واحدة . ومن ثم فإن الصورة التى كانت عليها مصر في عهدهم لا تختلف في خطوطها العريضة وملامحها الأَساسية عن صورة الحياة في سائر أَقطار العالم العربي .[1] وقد أَجمع المؤرخون وعلماءَ السياسة والاجتماع والحضارة على أَن نظام الحكم الذي رزحت تحته البلاد العربية كان له أَسوأَ الأَثر في أَحوالها السياسية والعمرانية .

فمصر وهى أَكبر هذه الأَقطار قد زال عنها الاستقلال الذي كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحا للفوضى والمشادة

(١) ومن ثم نركز في هذا الفصل على الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية فى مصر باعتبارها نموذجا لمثيلاتها من الاقطار العربية الأخرى ، ولأن المادة التاريخية فى شأنها أغنى من تلك المتاحة بالنسبة لغيرها .

بين السلطات الثلاث التى تنازعت الحكم فيها ، فحال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن البلاد ، مستقرة ترفع من شأن البلاد ، وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها ، وتعنى بمرافقها . فلا غرو أن اقترن نظام الحكم بعد الفتح العثماني بتأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها . ولو قارنت بين حالتها في ذلك العهد وحالتها من قبل ، حينما كانت مملكة مستقلة في عهد الدول الفاطمية والأيوبية والبحرية والبرجية ، لرأيت أن البلاد قد رجعت القهقرى خطوات واسعة . (١)

(١) عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ج ١ ، ج ٢ ، القاهرة ١٣٦٣ هـ ، ١٩٤٤ م .

المبحث الأَول :

فساد النظـام السياسي

كان النظام السياسي الذي وضعه السلطان (سليم) واستمر في مصر نحو ثلاثة قرون متعاقبة منذ استيلائه على البلاد وإزالة سلطة المماليك الشراكسة منها حتى الحملة الفرنسية ، يحمل في أَحشائه بذور الفساد وعوامل الفتن والاضطرابات والخروج على الإسلام . وآية ذلك أَن سليم ولى جنديا خائنا على مصر .

خلاصة ما ذكره ابن إياس [١] في ذلك أَنه لما استقر للسلطان سليم الأَمر عين وزيره (يونس باشا) نائبا عنه ، وكان يلقب بنائب السلطنة ، وظل في هذا المنصب فترة من الزمن مدة إقامة سليم في مصر وقد بلغت ثمانية أَشهر إلا أَياما قلائل . لكن السلطان سليم قبل أَن يغادر الديار المصرية بدا له أَن يعزل (يونس باشا) من نيابة السلطنة ويسندها إلى (خير بك) ، وخير بك هو أَحد أَفراد (السلطان الغوري) وكان نائبه في حلب لما وقعت الحرب ، فخرج على سيده وانضم إلى السلطان

(١) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن إياس المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور

سليم ، وكان من عوامل انتصاره على الغوري . فكافأه سليم على خيانته بتوليته نائبا عن السلطنة في مصر .

ويقول ابن إياس في هذا الصدد أيضا إن السلطان سليم لما رحل من مصر عَيَّن من أمراءَ جنده خير الدين قائدا للحامية العسكرية ، وجعله نائبا للقلعة (مقر الوالى) يقيم بها ولا ينزل إلى المدينة . وكان الأمر والنهى لخير بك ، وسكن القلعة ، لكن الحامية ثاروا عليه غير مرة وكادوا يفتكون به . وذكر ابن إياس الفتن التي قامت بين الفريقين والتي شغلت جزءا كبيرا من عهد ذلك الوالى الخائن ، ومنها يتبين أن التنازع بين نائب السلطنة (الوالى) ورؤساءَ الجند قد ظهرت بوادره في أوائل العصر العثماني ، وهكذا ما كان يرمي إليه السلطان سليم من إيجاد سلطتين متنازعتين ليضمن بقاءَ الفوضى في البلاد ويطمئن على تبعيتها للسلطنة العثمانية [1] وسوف نري أن محمد علي باشا قد سار على نهج هذه السياسة القائمة على شعار (فَرِّقْ تَسُدْ) وأتقن تنفيذها ، فكان دأبة الإيقاع بين الطوائف بعضها وبعض والدس بين الأفراد ليشغلهم عن مظالمه فيخلو له الأمر وحده .

---

(١) مخطوطة كتابه (الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة) وتنتهي حوادثه في سنة ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) .

وذكر المؤرخ ابن أَبي السرور البكري [1] « أَن السلطان سليم أَختار من أَمراءَ الجراكسة أَربعين أَميرا وجعل لكل منهم أَربعين عثمانيا ، وأَمر أَلا يكتبوا في سفر ولا سواه غير حراسة الجسور » . ويؤخذ من ذلك أَن السلطان سليم قد وضع فعلا قاعدة النظام السياسى للحكومة وهى إِيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأَخري : الأَولى سلطة نائب السلطان في الحكم (الوالى) ، والثانية سلطة رؤساءَ الجند ، ويتأَلف منهم مجلس شورى الوالى المسمى بالديوان . ووضع أَيضا نواة السلطة الثالثة يحفظ التوازن بين الاثنين وهى سلطة الأَمراءَ المماليك الذين قدموا لهم طاعتهم فأَمّرهم على حكم المديريات (الأَقاليم) ، فتأَلفت منهم الإِدارة المحلية للبلاد وسموا بالسناجق كما جعل من هؤلاءَ المماليك بعض كبار موظفي الدولة ، فكان منهم » الكخيا » أَي نائب الوالى ، و « الدفتردار » وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية ، و « البروزنامجى » ووظيفته إِدارة الخراج (ضرائب الأَطيان أَو أَموال الميري) وضبط حساباته ، وأَمير الحج ووظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التي ترسل سنويا إِلى الحرمين الشريفين ، و « الخازندار » (أَمين الخزانة) ووظيفته حمل الخراج

---

(١)عبد الرحمن الرافعى ، المصدر السابق ص ٧ ، ١١ .

سنويا إلى الآستانة ، وقباطنة الثغور . وكان الأمراءَ المماليك حكام المديريات الكبرى يسمون البكوات أو (السناجق) ، أَما المديريات الصغري فكان حكامها يسمون الكُشّاف ، وهم أَدنى من الأَولين مرتبة وإن كانت سلطتهم واحدة .

وكانت سلطة الوالى محدودة مقيدة ، وذلك أَن السلطان سليم خشى لبعد مصر عن مركز السلطنة أَن يطمح ولاتها إلى الاستقلال بها والخروج على حكومة الآستانة ، فجعل مدة الوالى سنة واحدة ، تنتهى ولايته بنهايتها ما لم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أَخرى .

وكان تعيين نائب الوالى وقباطنة الثغور يصدر به رأَسا مرسوم من السلطان ، أَما باقي الحكام المماليك فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان ، وإذا خلا مركز أَحد البكوات (حكام الأَقاليم) عيّن بدله من بين الكشاف .

ولكن نظام الحكم السياسى لم يستمر على النهج الذي وضعه السلطان سليم ، بل تركت البلاد نهبا بين أَيدي رؤساءَ الجند والولاة تتقسمها أَهواؤهم . وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين ، فأَخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة . وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى استئثار

المماليك بالنفوذ والحكم ، وساعدهم على ذلك ما صارت إليه الدولة العلمية من الضعف والتقهقر في أَواخر القرن الحادي عشر واوائل الثاني عشر بسبب حروبها المتواصلة [1] واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها [2] . وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم فضعف شأنهم وتراجع نفوذهم ، في حين أَن المماليك استكثروا من الجند والأَتباع ، واستمالوا إلى جانبهم أَفراد الحامية العسكرية وصاهروهم ، فأَصبحوا ضمن حزبهم ومن أَهلهم وعشيرتهم وأَتباعهم بعد أَن كانوا معدين لحربهم وإخضاعهم . وعبث المماليك بالولاة وأَخذوا يعزلون من لا يرضون عنه .

ويصف المستشرق (مارسل) هذا الا ضطراب السياسى بقوله : « انحصر تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر) الحادي عشر الهجري (إلى آخره في تعاقب الباشوات) الولاة العثمانيين) على ولايتها ، فتولاها واليا لم يكن لهم شأن يذكر

---

(١) انصرفت السلطنة العثمانية إلى محاربة النمسا والروسيا سنة ١٢٨٢ (١٧٦٨م) .

(٢) مما يدل على ذلك أن الانقلاب العثمانى الذى أطاح بالسلطان سليم كان الدا١م إليه إشباع شهوات الحكم والسيطرة والبطش . فقد عزلت طائفة الانكشارية السلطان سليم وقتلوا رؤساء الدولة ومثلوا بهم في الميادين العامة ، وتولى السلطة مصطفى ابن عبد الحميد فقتل السلطان سليم ، ولكن الجند ما لبثوا أن عزلوه ثم قتله أخوه محمود خنقا ومثل به واحتل السلطنة بعد أحداث متلاحقة من التقتيل والتحريق والهدم والنهب.

في حكومتها . فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الآستانة ويبقى شاغلا هذا المنصب عاما أَو عامين ، ولا يستقر هذه المدة في منصبه إلا إذا ترك الأَمور للبكوات المماليك الذين كان منهم شيخ البلد وهو الحاكم الفعلي للبلاد . ويظل الباشا في منصبه لا عمل له إلا جمع المال واستصفاؤه من أَهله بمختلف وسائل النهب إلى أَن يغادر منصبه . وهو في الغالب لا يخرج منه إلا مسجونا أَو مطرودا أَو منفيا أَو مقتولا »

وقد وصل على بك الملقب بالكبير ، وهو مملوك ، إلى مشيخة البلد في أَواخر القرن الثاني عشر الهجري . ولما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا أَعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج للسلطان سنة ١١٨٣ (١٧٦٩ م) ، وعزل الوالى التركى ومنع ورود الولاة العثمانيين . ثم جرد الجيوش وغزا معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين) . وأَوفد محمد بك أَبا الذهب ، وكان من مماليكه وأَتباعه ، ليفتح بأُسمه سوريا ففتح معظمها . لكنه لم يكد له فتح دمشق حتي انقلب على سيده علي بك واتفق مع الباب العالى وعاد إلى مصر ليستأْثر بالحكم فيها . وقامت الحرب بينه وبين على بك وانتهت بقتل الثاني سنة ١١٨٧ . وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إماراتها لأَبي الذهب واستقر شيخا للبلد » وكافأَته

تركيا بفرمان تثبيته في مشيخة البلد وتولية حكم مصر ، ورجعت الدولة العثمانية إلى إرسال الولاة ، كما كان الأمر قديما .

كما أن الوالى كان محجوزا عليه مسلوبا حوله وقوته ، ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالى الذي يرتضيه ، وقواد الجند وأعيان الدولة كافة مماليكه وأتباعه إلى أن مات سنة ١١٨٩ . وتوالت بعده الفتن بين المماليك في صراع دام على السلطة استمر نحو ربع قرن حتى جاءت الحملة الفرنسية .

وخلاصة ما تقدم أن زمام الحكومة في مصر كان إلى طائفة المماليك ينازعهم فيها الوالى والجنود العثمانيون ، » فكانت من جهة نظام الحكم السياسى أقرب ما تكون شبها بالممتلكات المستقلة التابعة للامبراطورية البريطانية والمعروفة بالدومنيون ، مع الفرق العظيم الذي تمتاز به المستعمرات الانجليزية بأنها تتمتع بحكم دستوري قائم على قاعدة سلطة الأمة . فالحاكم الانجليزي في المستعمرات المستقلة ليس له نفوذ أكبر مما كان للوالى العثماني ، لكن سلطة الحكم في تلك المستعمرات مستقرة على نظام نيابي يجعل للشعب الأمر والنهى في شئون البلاد الداخلية . « (١)

(١) عبد الرحمن الرافعي ، المصدر السابق ص ١٦ .

المبحث الثاني

استشراء المظالم

تحفل صفحات التاريخ بالأَحداث الدالة على ما أَوقعه الولاة العثمانيون بالشعوب التى حكموها في العالم العربي من أَشد صنوف الظلم والهوان والعدوان ، انطلاقا مما ركز في طبيعتهم من كبر واستعلاءَ وجهالة ومن جشع ومطامع . ففي مصر لم يربط محمد على وأَبناؤه ، وهم غرباءَ على البلاد ، بين مصالحهم ومصالح الشعب الذين كانوا هم وأَعوانهم ينظرون إليه من أَعلى ، فيطلقون على المصريين الخُلَّص « اسم » الفلاحين من باب التندّر أَو الاحتقار . وبالرغم من أَشكال النهضة الأَوربية الحديثة التى أَدخلها محمد على وإسماعيل ، إلا أَن المصريين قد تعرضوا حينئذ لأَلوان من القسوة والظلم المنتظمين مما قد لا يكون له مثيل في التاريخ المصري العام . » وعلى أَي حال فإن هذين الحاكمين قد نظرا إلى المصريين باعتبارهم غير أَكفاءَ لتولى الوظائف الإدارية الكبري . حقيقة أَنهما اضطرا إلى الاستعانة بهم في الوظائف الروتينية الصغرى ، إلا أَنهما وضعا الوظائف العسكرية الكبرى والوظائف التنفيذية الكبرى في

الإدارة المدنية في أَيدي الأَتراك الشراكسة في المحل الأَول ، ثم في أَيدي الأَرمن الأَوروبيين [1] ، وصدق أَمير الشعراءَ شوقي إذ يقول :

أَحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس

كل دار أَحق بالأَهل إلا في خبيث من ....

وليت الأَمر وقف عند تحريم محمد على وسلالته الوظائف الكبرى على المصريين أَبناءَ البلاد بل إنه تجاوز ذلك إلى امتهانهم وتسخيرهم وإذلالهم . ومن صور هذه المهانات أَن الفلاحين « كانوا مسخرين له فر ترعة (الأَشرفية) ، حتى إذا قرب وقت الحصاد رُدّ الفلاحون إلى الأَرض لجمع المحصول ، فإذا جاءَ شهر أَبيب ونوفي بوفاءَ النيل أَمر محمد علي حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل ، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال ، وينزلون بهم في المراكب وقد تعطلوا عن زرع الذراوي (الذرة) الذي هو قوتهم ، وقاسوا شدة رجوعهم من المرة الأَولى ، ومات الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أَهالوا عليه

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصر ، مصر والمسألة المصرية ، دار المعارف بمصر ص ١٧ ، ١٨ .

تراب الحفر ولو كانت فيه الروح » . [1]

وما من صنف من صنوف العذاب لم يتحمله سكان المدن والقرى في هذا العهد القتل ودفن الأحياء ، وبتر الأعضاء وإجلاس الناس على صَوانٍ أُشعلت تحتها النار حتى احمر معدنها والقبض على النساء ، والإلقاء بهن في الماء مثقلات بالأحجار حتى يغرقن والرجال من أهلهن موثقو الكتاف يشاهدون حتى يأتي عليهم الدور . [2]

---

(١) محمد صبيح أيام وأيام ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٢ . ويضيف إلى ذلك قوله : « ولما رجع الفلاحون إلى بلادهم للحصاد طولبوا بالمال ، وزيد عليهم عن كل فدان حمل من التبن وكيلة قمح وكيلة فول . وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر ، فما هو إلا والطلب ، والعودة للشغل في الترعة ، ونزح المياه التي لا ينقطع نبعها من الأرض وهي في غاية الملوحة . والمرّة الأولى كانت في شدة البرد ، وهذه المرة في شدة الحر مع قلة المياه العذبة فينقلونها على الجمال مع بعد المسافة . وبعد أن انقضى حفر الترعة رجع المهندسون والفلاحون إلى بلادهم بعد أن هلك معظمهم . »

(٢) المرجع السابق .

المبحث الثالث

اضطراب الامن وانتشار الموبقات

لم يكن من المستغرب في ظل الفساد السياسى في عصر العثمانيين ، وتفشى الجهل والظلم ، والخروج على الدين ، وإثارة الفتن والقلاقل ، أَن يختل حبل الأَمن في البلاد وأَن تسود شريعة الغاب :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وليس ثمة فترة في تاريخ المجتمع العربي شهدت من اضطراب الأَمن ما شهده العصر العثماني ، فقد ارتكبت فيه كل أَنواع الجرائم ، وانتهكت حرمة الأَنفس والأَعراض والأَموال . وكان أَشد المجرمين عتوا هم الأَمراء والحكام الموكلون بالحفاظ على الأَمن والنظام وإقرار القانون وحماية الرعية .

حصر جرائم الاعتداء على النفس وجرائم الاعتداء على المال والجرائم الأَخلاقية التى قارنها الولاة والحكام والانكشارية ومن

تبعهم من المنحرفين والضالين وعلى رأسهم بعض سكان البادية ، حتى نجد الإجرام مصدر رزق لهم ، بل كانوا يحتكرونه كما يحتكر التاجر سلعة من السلع . وكانت الجرائم تتدرج ابتداءً من جريمة القتل ، وهى أم الكبائر ، والخطف والسرقة بإكراه وهتك العرض ، والتخريب والتحريق والإتلاف حتى تنتهى إلى النصب والاحتيال والتزوير والتزييف والابتزاز وفرض الإتاوات والرشوة .

ومن ثم اتسمت الجريمة في عصر العثمانيين بالتنظيم ، بمعنى أن من يرتكبها عصبة لا فرد ، وتلك أبشع أساليب الخروج على الأمن في كل العصور وقد استخدم الملتزمون ، المسلطون من قبل الولاة العثمانيين على القرى قطاع الطرق والمجرمين في تحصيل الضرائب . ومن العوامل التى ساعدت على استفحال الإجرام كثرة انقطاع المواصلات البرية والبحرية بسبب القلاقل ، مما أدى إلى تعطيل مصالح الناس وتصدي المفسدين للسابلة وقطع الطريق عليها . ولم تنج من هذه البلاد دور العبادة والعلم ، ومن ذلك أنه ظهر أفراد يقفون بالليل في صحن الجامع الأزهر ، وهو بيت من بيوت الله وأقدم جامعات العالم ، فإذا قام إنسان لحاجته منفردا أخذوا ما معه . وكان بعض المشايخ عونا للصوص على الناس ، ففى تلك الحادثة

اجتهد الشيخ المهدي في الفحص والقبض على الجناة إلى أن عرفوا أَشخاصهم ونسبهم ، فكان فيهم بعض أولاد السراة من ذوي المظاهر المتعممين ، فستروا أَمرهم ، واختاروا رفيقا لهم من أَغمار القوم ، فنسبوا إليه فعلهم ، ثم أَخرجوه من البلد منفيا . ويدلنا هذا على مدى الفساد الخلقى الذى كان عليه أَعوان السلطة ، فليس أَنكى من أَن يقوم الموكلون بالضبط الاجتماعى وإقامة العدالة بالقبض على الأَبرياء واتهامهم بالباطل.

أَما جرائم الجنود العثمانيين فهى تمثل أَسوء صفحات التاريخ . فقد تمادوا في الخطف والقتل والدعاوى الكاذبة وشهادة الزور بعضهم لبعض فيما يدعونه ، وتواطؤهم على ذلك طمعا في أَملاك أَبناء الشعب التى حرمها الله إلا بالحق ، وتطليق النساء قهرا من الرجال ، واثارة الضغائن بين الناس ، والحكم بينهم بالباطل . وكانوا يأْخذون كل سفينة غصبا مما عطل الأَسفار وزاد من الغلاء ، ويسيرون فينهبون في طريقهم كل من يصادفونه من المسافرين ويقتلونهم . وكم هجموا على القرى فخطفوا الدواب فأَعاقوا أَصحابها عن نقل بضائعهم ، ونهبوا الأَجران والدور أَو أَحرقوها ، وخطفوا النساء والبنات والأَولاد وباعوهم فيما بينهم وفعلوا بهم وبالرجال ما يعف القلم عن ذكره . وكم اقتحموا من دور وفتشوها واتلفوها بحثا عن

المال ، وكم أَخرجوا الناس من مساكنهم وأَوطانهم وسبوا نسائهم وحرموا عليهم أَن يأْخذوا ثيابهم [1] ويروى التاريخ كثيرا من المذابح الجماعية التى ارتكبها الانكشارية في القرى والحواضر ، وأَحكام القتل الغاشمة التى أَصدروها ونفذوها بأَبشع الأَساليب دون جريرة اقترفها المقتولون .

وسجلهم في المباذل الاخلاقية وارتكاب الموبقات يضاهى مثيله في جرائم النهب والسلب ، والاسر والقتل ، فلم يكن لقسوتهم وفجورهم وانتهاكهم حدود الله مثيل . ولقد بلغ من انتشار الموبقات في عصرهم أَن سكنت طائفة من القوادين والنساء البغايا حول الأَزهر ، واختلطوا بأَهله ، حتى أَن أَكابر الدولة وعساكرهم بل أَهل البلد والسوقة جعلوا سموهم ودينهم ذكر الأَزهر واهله ، ونسبوا إِليه كل رزيلة ، وقالوا إِنا نرى كل موبقة تظهر منه ومن أَهله ، وإِنه بعد أَن كان منبع الشريعة والعلم صار نقيضا لذلك . [2]

ولا عجب أَن تصدر هذه المنكرات من الحكام العثمانيين وجنودهم ، فقد كانوا أَخلاطا وأَوشابا من كل شرذمة ،

---

(١) الجبرتى المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

متناغضين متنابذين ، يخاف بعضهم بعضا وتخشى شرهم جميعا الرعية . وقد افتتنوا بالدنيا وهجروا مجالس العلم والعلماء ، وركبهم الغرور ، وساقوا الناس العذاب ، ودب بينهم من فرط الجشع التنافر والتحاسد على الرياسة والتكالب على أَدنى الأَشياءَ ، مع ما جبلوا عليه وركز في طباعهم الخبيثة من الشح والشكوى والاستجداء ، وارتكاب الأَمور المخلة بالمروءَة والمثبطة للهمة والعدالة ، وكان دأَبهم التفاخر بالكذب وازدراءَ مقام العلم بين سفلة الناس الذين اقتدوا بهم في فعل المحرمات على حين أَنهم مكلفون بنهيهم عنها .

تدهور الاوضاع المالية والاقتصادية

تسابق الولاة الأَتراك في اغتصاب أَموال الناس بالباطل لحساب السلطان حينا ولحسابهم حينا آخر ، متذرعين بشتى الوسائل والأَساليب غير المشروعة للحصول على ثمرات كدالناس وعرقهم . فمن زعم باقتضاء هذه الأَموال باسم الضرائب المستحقة ، إلى ادعاء في مصر بأَن أَرضها صارت دار حرب بتملك الفرنسيين إياها وانهم استنقذوها منهم واستولوا عليها استيلاءً جديدا ، فحقت لهم ملكيتها ، فمن شاءَ الاستيلاءَ على شيء من أَرضٍ غيرها ، فليشتره من نائب السلطان بمبلغ من المال يسمونه الحلوان ويبالغون في تقديره . ومن هذه المزاعم أَيضا جباية الأَموال الباهظة لتجهيز الجيوش ، والإِنفاق على الجنود وتحصين الثغور أَو للصرف على المصالح الحكومية مثل مشروعات الري كحفر الترع أَو سدها [1] ، أَو لاعداد محافل الزينة في المناسبات ، مثل مولد ابن أَو ابنة للحاكم ، وعودة

---

(١) يقول المؤرخ الجبرتى في تاريخه ج ٣ أن « ما جمعه محمد على وجباه يزيد على ما صرفه على سد الترعة أضعافا كثيرة ، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له ، وأن وجد من يحاسبه على ما أخذ من القطر المصرى من الغرائم لما وسعته الدفاتر .

الجند من الغزو ، أَو لتقديم الهدايا للباب العالى ، أَو لبناء التكايا والأَسبلة .

وكان من جراءَ فرض هذه الضرائب والمغارم ونهب الجنود العثمانيين الغلال ، والثمرات أَن ضنت الأَرض بخيراتها ، وعجز الفلاحون عن سداد المطالب التى تلاحقهم واختلت حياتهم . ولما ضاقت بهم الحال ولم يجدوا مخرجا هجروا اراضيهم ، وتركوا دورهم تنعى من بناها ، فصارت الحقول الخضراءَ مَحْلا وعم الجدب والقحط ، ولم يختلف شأن المدن عن القرى ، إذ ساد الغلاء وبلغ ارتفاع أَسعار المواد الغذائية ثلاثة أَضعاف ما كانت عليه بسبب نقص الثمرات وتفشت المجاعات بعد أَن أَتى الخراب على الأَخضر واليابس .

وقد زاد الطين بلة أَن القحط كان مصحوبا في أَغلب الأَحيان بانتشار الآفات الزراعية التى تفتك بما يتبقى من مزروعات [1] ، وأَن الحكام لم يكونوا حينذاك يهتمون

(١) يصف الجبرتى في عجائب الاثار ج ٣ مجاعة حدثت بمصر عام ١١٠٦ — ١١٠٧ هـ (١٦٩١ م) فيقول : « و اشتد الكرب حتى أكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع ، وخلت القرى من أهاليها ، وخطف الفقراء الخبزَ من الأسواق ومن الأفران ومن على رءوس الخبازين » . ويقول في موضع آخر إن الفناء قد عم وشرقت الأرض ، وعزت الأقوات وارتفعت الأسعار لقلة المجلوب وقطع السبيل حتى (اجتمع
*

بتحسين وسائل الري تحسبا للسنوات العجاف قدر اهتمامهم بالاستيلاء على ثمرة كد الفلاح إلى درجة أَن الاخير كان يعجز عن أَن يجد ما يقتات به وقت الشدة . وكان هؤلاء الحكام يحتفظون بمخزون كبير من حصيلة نهب الريف في سنوات الرخاءَ (١) ، ويتركون الناس يتضورون جوعا بعد أَن استحكمت الأَزمات الاقتصادية وأَخذ بعضها بأَعناق بعض وهكذا الكثرة الغالبة من أَصحاب البلاد وأَثرت القلة الباغية من الحكام الاجانب واتباعهم .

وتبين لنا الدراسة الاجتماعية التى نستخلصها من تاريخ الجبرتي عن المجتمع المصري في العهد العثماني في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين مختلف الجوانب الاقتصادية

★

الشحاذون رجالا ونساء وصبيانا وطلعوا إلى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع) .

كما يروى أيضا أخبار انهيار الحالة الصحية والاجتماعية أثناء القحط الذى شهدته البلاد في شهر محرم ١٢٠٦ (١٧٩١) ، فيقول : «كثرت الفيران حتى أكلت الثمار من أعلى الأشجا ، والذى سلم من الدودة من الزرع أكله الفأر ... » ويتحدث عن انتشار الأوبئة والطاعون بسبب تكاثر الفئران .

(١) « ...وذلك مع كثرة ورود الغلال ودخول المراكب وغالبها للأمراء وهم ينقلونها إلى المخازن والبيوت .

والنقدية المتدهورة [1] لهذه الفترة المظلمة ، إذ يتعرض للتضخم النقدي في مصر العثمانية ، كما يتعرض للاكتناز ، ويتحدث عن الظواهر القائمة في مجال النقود السلعية ، والنقود الرئيسية ، والنقود المساعدة ، واختلاط العملة الجيدة بالعملة الرديئة والعملة الحقيقية .

ويتناول أَحوال دار سك النقود وكيف أَضحت وسيلة إيراد وإثراء على حساب الشعب ، وكيف شجع إنتاجها من القروش الرديئة كثيرا من المزيفين على تقليدها . كما يشرح لنا الأَضطراب الخطير في أَسعار النقد ، وأَثر الأَزمات التى حلت بالبلاد في فوضى النقود واختلال أَسعار الحاجيات بين يوم وآخر . ويصور سوءَ أَحوال الناس وامتناع الفلاحين عن جلب ماشيتهم وحاصلاتهم للبيع بالأَسواق ، خشية المصادرة ، أَو فرض المكوس العالية ، أَو شرائها بأَبخس الأَثمان واختصاص أَكبر المزايدين بها . [2]

---

(١) لاغرو أن يوضح لنا الجبرتى ــ وهو مؤرخ اجتماعى ــ الجوانب الاقتصادية والنقدية ، فالعلاقات بين الدراسات التاريخية الاجتماعية والدراسات الاقتصادية علاقة تكامل وتلاؤم ، فكل منهما تكمل الأخرى ، وذلك لأن الدراسات الاقتصادية دراسات اجتماعية بطبيعتها .

(٢) . عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، من كتاب «عبدالرحمن الجبرتى ــ دراسات وبحوث » ص ٥٥٣ .

ويتبين مدي الخروج على أَحكام الشريعة في مجال التداول النقدي والميدان التجاري في عصر الحكم العثماني إذا لاحظنا انتشار ظواهر الغش والاكتناز والتزييف وكذلك الربا الذي تفشى بسبب انقطاع المكاسب وارتفاع الأَسعار وزيادة الضرائب، فأَضطر الناس إلى الاستدانة بالربا الفاحش.

الغش والاكتناز:

علق المؤرخ ابن إياس على النقود التى كانت سائدة قبيل العصر العثماني مباشرة بأَنها أَبخس المعاملات« ، فجميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل . » ولما جاءَ الحكم العثماني استمر ولاته في إغراق السوق بكميات النقود النحاسية حتى ليجوز أَن نطلق على هذا العصر ، في تاريخ النقود المصرية ، عصر النحاس تعبيرا عن المعدن الذي اتخذ قاعدة للنقد . وقد أَدى ذلك إلى تقليل كميات الذهب المتداولة وانكماشها [١] ، إذ لجأَ الناس ورجال الدولة على السواء إلى

---

(١) تعد هذه الظاهرة تطبيقا لقانون اقتصادى ينسب إلى وزير المالية البريطانى جريشا م ، وخلاصته أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق والمقصود بالعملة الرديئة تلك النقود النحاسية التى تقومها الدولة بأكثر من قيمتها المدنية في السوق. ويستلفت الدكتور عبد الرحمن فهمى النظر في المرجع السابق إلى أن المؤرخ المصرى المقريزى قد فطن إلى هذا القانون قبل جريشام بحوالى مائة عام.

اكتناز الذهب والفضة وإخفائها من مجال التعامل . ولقد أدت تلك الظاهرة بدورها إلى حالة من التضخم النقدي أساسها كثرة العملة النحاسية المتداولة في الأسواق ، وكان من نتائجها ارتفاع الأسعار والإضرار بالأفراد ذوي الدخل المحدود .

ولم يهتم العثمانيون بالقضاء على هذه الفوضى في ميدان العملة ، بل انصرف همهم إلى طراز النقود المملوكية نفسه بما تضمنه من نقوش تشير إلى شهادة التوحيد والرسالة المحمدية ، فكانت هذه النقوش من الأسس التى بنى عليها السلطان سليم الأول عدوانه على مصر ، مدعيا أنه وقف عند حد الشرع الشريف في حربة [1] لدولة المماليك ، وهو ادعاء لا سند له ، وإنما اختلقه السلطان العثماني واحتال له باستصدار فتوى تبريرا لعدوانه .

ولم يأت العثمانيون بعد أن أبادوا المماليك بأية إصلاحات لأنظمة النقود ، ولم يسهروا على مراقبتها لاستعادة ما فقدته من ثقة عالمية وسط الفوضى السياسية ، بل اتخذوا منها وسيلة للاستغلال والكسب الحرام ، فعمدت حكومتهم إلى كثرة تغييرها بحيث يمكننا أن نعدد ما لا يقل عن أربعة وعشرين

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .

تعديلا مختلفا لسعر المبادلة وتحديد قيمة العملة الذهبية والنحاسية . » وكان ذلك إجراءً يراد به ما يعود على بيت المال من الفائدة بجعل سعر المبادلة في مصلحته ، وكسب الفرق بين قيمة النقود الاسمية وقيمتها الحقيقية لخزانة الباشا . وكثيرا ما لجأ الولاة الاتراك ، وقت إرسال الخزينة السنوية من مصر إلى استانبول ، إلى تخفيض قيمة النقود المتداولة ، مما كان سببا في زيادة عبء الضرائب عما كانت عليه ، بل كان السلطان ، إذا ما عجزت مالية الدولة العثمانية يوما عن الوفاء بالتزامات الحروب ، يلجأ إلى توزيع النحاس على الشعب بالقوة لاستبدال نقود الذهب به .[1]

ولم يقف السلطان سليم الأول ومن أعقبه عند هذا الحد ، إذ عمدوا إلى غش النقود الفضية بخلطها بالنحاس أو انقاص وزنها فانحطت قيمتها وما كان في وسع الشعب أن يتخذ أية وسيلة للاحتجاج على هذا الوضع غير الإضراب عن البيع والشراء مما أحدث أبلغ الضرر بالحالة الاقتصادية . »

ويقول الجبرتي في ذلك « إن العملة النقدية الذهبية قد أنقص وزنها إلى درجة فاحشة وقد تسلط عليها الجنود العثمانيون بالقص

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .

وكانوا يدخلون الأَسواق ويرمون الفضة المخلوطة بالنحاس على التجار ثمنا للشراء فكل من رد شيئا منها تنهب دُكَّانه ، ويضرب التاجر حتى يأَخذها غصبا رغم أَنفه » [1] . وقتل بذلك قتلى كثيرة ، وأَغلق الصيارف حوانيتهم ، وامتنعوا عن الوزن خوفا من شرهم [2] .

ولا مراءَ في أَن حكومة محمد علي كانت تهدف في سياستها النقدية إلى تحقيق مصالحها دون المصلحة العامة . فقد أَمر بإِنقاص وزن بعض أَنواع العملة وخلط الفضة بالنحاس ، بل إنه في سبيل الإِثراءَ الفاحش من النقود خطا خطوة أَكثر جرأَة

(١) الجبرتى ، المصدر السابق ج ٣ ، ص

(٢) المرجع السابق ، ص . ويضيف إلى ذلك قوله : « كان العسكر يأتون إلى الصيارف ويلزمونهم بالمصارفة (مبادلة النقد) ، فيقول له (للجندى) الصيرفي : ليس عندى فضة ، فلا يقبل عذره ، ويقرع عليه ببطقاته (سلاح كالسيف) أو بارودته (بندقيته) وإن وجد عنده المصارفة . وكان المحبوب أو البندقي (نوعان من النقد الذهبى) ناقصا في الوزن ، لا يستقيم في نقصه ، ولا يأخذ (أى الجندى العثمانى) إلا صرفه (بالأنصاف) كاملا ، وإذا اشترى شيئا من سوقي (بائع متجول) أعطاه بندقيا وطلب باقية .... فإن لم يكن عند البائع باقية أخذ الذى اشتراه والبندقي وذهب ولا يقدر المتسبب (التاجر) على استخلاص حقه منه . وإن وجد (أى البائع) معه باقي المصارفة وأخذ ذلك البندقي ونقده (كشف عن وزنه وعياره) عند الصراف ، وكان ناقصا وهو الغالب ، لا يقدر الصيرفي أن يذكر بعضه . فإن قال إنه ينقص كذا فزع عليه (أى الجندى العثمانى) وسبه ، وبعضهم أدخل أصبعه في عين الصراف وأمثال ذلك » .

وهى أنه أخذ دار الضرب (سك النقود) لحسابه ، فتضرب النقود للدولة أو للأفراد لصالح الباشا وحسب ، نظير الضرائب يأخذها لنفسه . وكان من جراء ترك الحرية للأفراد في ضرب المسكوكات في دار الضرب لحسابهم ، مع عدم ضبط عيار ما يطلبون من نقود عن خلط فضتها بثلاثة أمثالها من النحاس ، أن أضحت وحدات النقود لا تتمتع بالقبول العام عند المبادلة . ولا شك أن هذا الاضطراب أفقد الشعب ثقته في النقود التي لم تستطع الدولة السيطرة على عيارها وضبط أوزانها وتحديد قيمتها . (١)

المضاربة بالنقود :

حول محمد علي الوحدات النقدية الفضية إلى سلعة نقدية معدنية وجعلها مجالا للمضارات ، وذلك أنه امتص العملات من الأسواق المصرية للمتاجرة فيها ، فصدرها إلى الشام وبلاد الدولة العثمانية الأخرى حيث باعها بسعر أزيد من سعرها في مصر . وأدى ذلك إلى عدم توفر النقود المساعدة (الصغيرة) التى لابد

(١) د . عبد الرحمن فهمى ، المصدر السابق ص ٥٦٣ . وقد أكد ذلك الجبرتى في قوله : « ولم يزل أمر المعاملة وزيادة صرفها ، واتلاف نقودها ، واضطرابها مستمرا . وكان قليل ينادون عليها مناداة — بحسب أغراضهم — لا تسمع ولا تقبل ولا يلتفت إليها ، لأن أصل الكدر منبعث منهم ومنحدر عن مجراة خبائثهم وفسادهم »

من وجودها لتحقيق مرونة التبادل بين الأَفراد ، فأَصاب الجمود العمليات التجارية لهذا السبب ، ولقلة المتاح من العملات الجيدة في حوزة الصيارفة ، فعجز التجار عن عقد الصفقات ، وعجز الناس عن شراء حاجاتهم وتعطلت مصالحهم .

كما لجأَ محمد علي إلى اكتناز النقود الأَجنبية يأَتي بها من الشام ليغمر بها الأَسواق المصرية بعد أَن يصدر أَوامره بزيادة سعرها . وكان يشتري تلك النقود بسعر أَقل مما تصرف به في مصر . « ولا شك أَن ظاهرة الازدواجية بين النقود الحقيقية والنقود الحسابية ـ من حيث استخدام نقود الأَداءَ المصرية والأَجنبية وتقدير صرفها بالأَنصاف الفضية التى لا وجود لها ـ قد مكنت محمد على من القيام بتخفيضات في وزن النقود مع زيادة في أَسعارها ، تماما كما لجأَت بعض الدول اليوم إلى تخفيض القيمة الحسابية للنقود كلما كانت هذه الدول مدينة أَو كانت خزائنها في محنة . فيقرر الحكام مثلا تحديد قيمة سبائك الذهب أَو الفضة ذات الوزن المعين بما يقابل أَربعة جنيهات بدلا من ثلاثة جنيهات ، فيمكنهم ذلك من ربح جنيه واحد في كل سبيكة (١) .

(١) د . عبد الرحمن فهمى ، المصدر السابق .

وهكذا زاد محمد على سعر النقود وأَنقص قوتها الشرائية مما يعد صورة لعملية تخفيض قيمة العملات ، » فتضاعفت بذلك أَسباب الخراب ، وهي زيادة الخراج ، واختلال المعاملة ، والمكوس ، واحتكار جميع الأَصناف والاستيلاء على أَرزاق الناس » . واستمرت بذلك فوضى النقد ، لأَن أَي قانون نقدي يتوقف على قدرة السلطات على حماية القيمة القانونية للمعدنين (الذهب والفضة) ، ومطابقتها باستمرار للقيمة التجارية وهو أَمر كان مستحيلا تماما لأَن محمد علي لم يشأَ انتهاج هذا الطريق القديم في سياسته النقدية ، بل انتهج سياسة » المضاربة بالنقود بامتصاصها واكتنازها بأَسعار منخفضة ، ثم إِطلاقها بعد اصدار الأَوامر بالزيادة في صرفها ، مما تسبب عنه تضخم هائل وغلاء محقق » حتى بلغ سعر السلعة عشرة أَمثاله وزيادة . (١)

وغني عن الذكر أَن تلك الظواهر التي تفشت في النواحي الاقتصادية والتجارية والنقدية من غش واكتناز ومضاربة بأَسعار النقود تمثل خروجا صارخا على الشريعة الإِسلامية . فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن اكتناز الأَموال والإِحجام عن

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦٧ .

إنفاقها في سبل الخسر بقوله : « والذين يكنزون الذهب والفضةولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها ، نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم ذوقوا ما كنتم تكنزون » . ونهى سبحانه عن غش الموازين والمكاييل بقوله : « ويل المطففين سبحانه عن غش الموازين والمكاييل بقوله : » ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنونهم يخسرون » . وأدان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئكالمسلمين الذين يغشون إخوانهم ابتغاءَ عرض الحياة الدنيا وحطامها الزائل بقوله : « الدّين المعاملة ، ومن غشنا فليس منا » .

ومما يجدر بالتنويه في هذا الصدد تلك المقارنة التى عقدها الجبرتي بين سياسة العثمانيين المنتمين إلى الإسلام وبين سياسة الفرنسيين الذين لا يؤمنون به ، للدلالة على مدى انتهاك العثمانيين لأحكام الدين فهو يقول : عز وجود الفرانسة (العملة الفرنسية (لرغبة الناس فيه لسلامته من الغش والنقص بخلاف معاملات المسلمين (العثمانية) فإن الغالب على جميعها الزيف والخلط والغش والنقص . فلما انطبعوا (العثمانيون) على ذلك ، ونظروا إلى معاملات (نقود) الكفار (الأوربيين) وسلامتها تسلطوا عليها بالقطع والتنقيص ... تتميما للغش

والخسران ، ويسبكونها ويزيدون عليها ثلاثة أرباعها نحاسا ويضربونها قروشا يتعاملون بها ، ثم ينكشف حالها في مدة يسيرة ، وتصير نحاسا أحمر من أقبح المعاملات شكلا ووضعا ، لافرق بينها وبين الفلوس النحاس التى كانت تصرف في الدولة المصرية السابقة (المماليك الجراكسة) .في الكم والكيف ، بل تلك أجمل من هذه في الشكل ... . » ولم يزل الحال يختل ويضعف بسبب الجور والطمع والغش وغباوة أولى الأمر وعمى أبصارهم عن المصالح العامة التى بها قوام النظام »[1] .

وقد أدي خروج الحكام العثمانيين على الشرع في مجال التعامل بالنقود إلى استشراء جرائم النقد . ولا عجب فإن الناس على دين ملوكهم كما يقول القدماء ، وإن الأمر كما يقول الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ذلك أن بعض أفراد الشعب قد اقتدى بمحمد على باشا في غش النقود وتزييف إنتاج دار المسكوكات الرديء .

(١) أحداث سنة ١٢٢٤ (١٨١٠ م) .

ولم ينج من هذه العدوى حتى طلاب الأَزهر ، فيذكر الجبرتي أَنه انتشرت القروش المزيفة التى قام بتزييفها بعض مجاوري الأَزهر بآلات وقوالب صنعها بعض الحدادين الشوام . وكان لهذه الحادثة أَثر كبير في فقدان الشعب ثقته في قروش دار السك كلها ، إذ لم يعد الأَفراد يقبلون شيئا منها قبل عرضه على الصيارفة .

المبحث الخامس

فساد النظـــام القضائي

اتسم النظام القضائى في عصر الاحتلال العثماني بالفساد حتى كثرت شكوى الناس منه ، إذ زادت حالته سؤا بعد قضاء الأَتراك على حكم المماليك وانتهاء عصر الحملة الفرنسية وعودة السلطة إليهم . وقد أَبقى السلطان سليم على أُسس النظام الذي كان قائما من قبل ، وهو تقليد منصب القضاء لقضاة أَربعة من المذاهب الأَربعة يسمى كل منهم « قاضى القضاة » الحنفى ، والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى . ولم يدخل سلم جديدا على هذا النظام سوى تعيين قاض عثماني جعله « أَمينا على قضاة مصر » . ولكل من أَولئك القضاة الأَربعة أَن يعين نوابه في القضاء [1] .

ولما تولى السلطان سليمان أَبطل هذا النظام ، وأَمر بتنصيب

---

(١) ذكر ابن إياس في الجزء الثالث من تاريخه أن خير بك كبير الأمراء المماليك في مصر أنقص عدد نواب القضاء ، فرسم لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب ، وقاضى القضاة الحنفى بأربعة ، وقاضى القضاة المالكى بثلاثة ، وقاضى القضاة الحنبلى بأثنين .

قاض تركى يسمى « قاضى مصر » يرسلونه من الآستانة ، وهو بمثابة قاضى القضاة . وكانت مراسيم التعيين تصدر من الآستانة لقاضى القضاة ولعدد من القضاة يشبه أن يكونوا رؤساءَ محاكم يبلغون خمسة وثلاثين قاضيا . ومراسيم التعيين لا تصدر إلا في مقابل أتاوة من المال يدفعها طلاب مناصب القضاءَ لحكومة الآستانة حتى منصب قاضى القضاة قد آلت مع الزمن إلى القضاة المصريين ، ذلك أن القضاة الأتراك الذين تصدر لهم مراسيم التعيين كانوا يتنازلون عن هذه المناصب لمن يطلبها من المصريين تلقاءَ جُعل من المال . ثم صارت المراسيم تصدر رأسا للقضاة المصريين [1].

وهكذا كانت مناصب القضاء تباع وتشترى وتعرض في سوق المساومة ، فترسو على من يدفع الثمن الأعلى . ولا يمكن أن يصل النظام القضائى في بلد من البلدان إلى مثل هذا الدرك من التدهور . فلا جرم كانت وظيفة القضاء في ذلك العصر موضع الزراية في نظر الجمهور والعلماء ، وكان كبار العلماء يتورعون عن تقلدها إذ كانت مصدرا للجور وأكل أموال الناس بالباطل ، ذلك أن القضاة الذين يشترون مناصبهم إنما ينظرون

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم في مصر ص ٢٥ .

إليها كوسيلة لابتزاز الأموال . فالفرق كبير جدا بين مكانة القضاة في ذلك العصر ومكانتهم قبل الغزو العثماني ، فإن القضاة الأربعة كانوا موضع إجلال السلاطين ، كما أنهم كانوا على جانب عظيم من العلم والتقوى . » [1]

ومن الجلى أن النظام الذي ابتدعه سلاطين آل عثمان هو المسئول عن هذا الفساد ، إذ كانوا يبيعون مناصب القضاء كما نوهنا » وكانت مدة القاضى سنة واحدة أو سنتين متى جاءَ أجلها تعين حكومة الآستانة قاضيا آخر أو تمد مدة القاضى القديم .ويجوز أن تمتد مدة قاضي القضاة بنزول القاضى الجديد له عن مدته ببيعه إياها بالثمن عن تراض بينهما . وبهذه المساومة يجوز أن تمتد مدة قاضى القضاة إلى أربع أو خمس سنوات متعاقبة . وله أن يعين من دونه من النواب . ولمن يصدر له أمر التعيين أن ينزل عنه لغيره .. وكان النواب الذين يعينهم قاضى القضاة ينوبون عنه في الحكم بين الناس ، ويشترون منه مناصبهم بالمال . وإذا تغير أمكنهم أن ينالوا إذنا بإقرارهم في مناصبهم لقاءَ جُعل يدفعونه للقاضى الجديد » . [2]

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

وكان قاضي القضاة غالبا وكذلك بعض القضاة زمنا ما أتراكا لا يعرفون العربية ، فكانوا ستعينون بالتراجمة في ترجمة الأوراق ونقل أقوال الخصوم ، والترجمان على ذلك هو صاحب الحول والطول . ولم يكن للقاضي مرتب محدد ولا رسوم معلومة للتقاضي ، بل كان القضاة يطالبون أصحاب الدعاوى بما يقدّرونه عليهم من أجور لهم وللكتبة والتراجمة . وكان القضاة لقلة محصولهم من العلم يستفتون العلماء للفصل في القضايا .

« وكان القضاة بمصر متعددي المذاهب ، فمنهم الحنفى والشافعي والمالكى والحنبلى ، وكل قاض يحكم بحسب أحكام مذهبه وبحسب القول الذي يختاره من أقوال المذهب . ولا ريب أن تعدد مذاهب القضاة وتعدد الأقوال في كل مذهب من أسباب الفوضى في الأحكام والمعاملات ، ذلك أن المتقاضين لم يكونوا يعرفون مصير دعاواهم أمام مختلف المحاكم ، وبخاصة ماجرى عليه العمل من أن للمدعى الخيار في أن يذهب إلى أي قاض أراد جريا على بعض الأقوال ، فكان المدعى يختار القاضي الذي يعرف عن مذهبه أو القول الذي يأخذ به من أقوال هذا المذهب بما يؤيد دعواه ، وهذا النظام من شأنه أن يزعزع الثقة في المعاملات . وقد ظل تعدد مذاهب القضاة في مصر إلى أن

تخصص القضاء بمذهب الإمام أَبي حنيفة رضى الله عنه ، وذلك في عهد محمد علي » .[1]

وفي جور القضاة الأَتراك وطمعهم في أَخذ أَموال الناس ومحاصيلهم ، يقول الجبرتي : « فلما استولى هؤلاءِ الأَروام (الأَتراك) على الممالك ، والقاضى منهم ، فحش أَمرهم وزاد طمعهم ، وابتدعوا بدعا ، وابتكروا حيلا لسلب أَموال الناس والأَيتام والأَرامل . وكلما ورد قاض ورأَى ما ابتكره الذي كان قبله أَحدث هو الآخر أَشياءَ يحتاز بها عن سلفه ، حتى تحسن الامر ، وتعدى ذلك لقضايا أَكابر الدولة ، وصارت ذريعة وأَمرا محتالا يحتشمون منه ، ولا يراعون خليلا ولا كبيرا ولا جليلا »[2]

وقد بلغ من جشع القضاة أَنهم كانوا يستحلون لأَنفسهم الاستيلاءَ على عشر كل تركة من التركات حتى لا يبقى للوارث واليتيم شيء . كما كانوا يأَخذون من أَرباب الديون عشر ديونهم أَيضا ، وأَجر سنتين أَو ثلاثة من الموظفين الجدد ، يأَخذون هذا فضلا عن الجُعل الشهري الذي يدفعه للقاضى نوابه وما تؤديه له الحكومة من العوائد والغلال . كما كان القاضي

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٢) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص

يحصل على رسوم الإمضاء وعلى الهدايا الاختيارية التى يقدمها له الأعيان والعلماء « بالمسامحة والإكرام » بعد الفصل في قضاياهم . وذلك خلاف الرُّشَى الخفية والمصالحات السرية .

وابتدع بعضهم الفحص عن وظائف القبانية والموازين ، وتعلل عليهم بعدم صلاحية التقارير التى عملوا بمقتضاها ، وجمع من هذا النوع مقدارا عظيما من المال . ثم محاسبات نظار الأوقاف والعزل والتولية فيهم ، والمصالحات على ذلك . وقَدَّر على نصارى الأقباط قدرا عظيما في كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكنائس .

« ومما هو زائد الشناعة أيضا ، أنه إذا أدعى مبطل على إنسان دعوي لا أصل لها ، بأن قال أدعي عليه بكذا وكذا من مال وغيره ، كتب المقيد (كاتب المحكمة) ذلك القول حقا كان أو باطلا ، معقولا أو غير معقول ، ثم يظهر بطلان الدعوى أو صحة بعضها ، فيطالب الخصم (المدعى عليه) بمحصول (رسوم) القدر الذي ادعاه وسطره الكاتب ، يدفعه

المدعى عليه للقاضى [1] على دور النصف الواحد أَو يحبس عليه حتى يوفيه ، وذلك بخلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر .

ومن الزيادات في نغمة الطنبور كتابة الإعلامات ، وهو أَنه إذا حضر عند القاضى دعوى بقاصد من عند الكتخدا (نائب محمد علي) (أَو الباشا) محمد علي (ليقضى فيها وقضى فيها لأَحد الخصمين ، طلب المقضى له إعلاما بذلك إلى الكتخدا أَو الباشا يرجع به مع القاصد تقيدا وأَثباتا ، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الاعلام إلا بما عسى لا يرضيه إلا أَن يسلخ من جلده طاقا أَو طاقين ، وقد حكمت عليه الضرورة ، وتابع الباشا أَو الكتخدا ملازم له ويستعجله ، ويساعد كتخدا القاضى عليه ويسلبة على ذلك الظفر والنصرة على الخصم ، مع أَن الفرنساوية الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدوا الشيخ أَحمد العريشى القضاءَ بين المسلمين في المحكمة حددوا له حدا في أَخذ المحاصيل لا يتعداه ، بأَن يأَخذ على المائة اثنين فقط له منها جزءَ والكتاب جزءَ .

---

(١) أى أن المدعى عليه إذا حكم لصالح يلزم مع ذلك بدفع رسوم الدعوى ، وهذا يخالف القاعدة المشهورة أن المدعى إذا حكم برفض دعواه يلزم هو بمصاريفها ولا يلزم المدعى عليه بشيء منها .

« فلما زاد المال وتعدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاتلوا بمجلس بيت البكري كتبوا عرضا محضرا ذكروا فيه بعض هذه الإحداثات ، والتمسوا من ولى الأمر رفعها ، ويرجون من المراحم أن يجري القاضى ويسلك في الناس طريقا من إحدى الطرق الثلاث : إما الطريقة التى كان عليها القضاة في زمن المصريين ، وإما الطريقة التى كانت في زمن الفرنساوية أو الطريقة التى كانت أيام مجىء الوزير (يوسف باشا الذي جاء عند جلاء الفرنسيين) ، وهى الأقرب والأوفق ، وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور ، وتمموا العرض محضرا وأطلعوا عليه الباشا فأرسله إلى القاضى فامتثل للأمر وسجل بالسجل على مضض سنة ، ولم تسعفه المخالفة »[1]

وهذا السلوك الذي كان ينتهجه القاضى التركى الموكل بالحكم بين الناس بالحق في بلاد شريعتها الإسلام دين العدل والرحمة يكفى وحده دليلا على انحطاط هذا النظام . فقد بلغ به الأبتزاز حد التهديد بسلخ جلد المتقاضى إن لم يدفع الإتاوة ، يظاهره في ذلك رجال السلطة التنفيذية ، مما يذكرنا بعصور

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص

الوحشية في تاريخ البشرية على عهد الوثنية الرومانية وعصر محاكم التفتيش في أَوربا وظلمات العصور الوسطى . [1]

(١) لا يمكن يملك الباحث إلا أن يقارن في هذا الصدد ، والشيء بالشيء يذكر ، بين شخصية القاضي التركي الغاشم وشخصية المرابي اليهودي شيلوك في مسرحية شكسبير تاجر البندقية الذي رفض أن يطلق سراح مدينة ما لم يدفع له الدين الفاحش أو يسلخ من جلده بقدر ما يعجز عن دفعه منه .

المبحث السادس

التخلف العلمي والثقافي

من أَبرز السمات المميزة لعصر الحكم العثماني في البلاد العربية الانحطاط في شتى ميادين العلم والفكر والثقافة . وتتبدى لنا هذه السمة فيما قاله عبد الرحمن الجبرتي في معرض حديثه عن زيارته للمجمع العلمى الذي أَنشأَه الفرنسيون في القاهرة أَو دار الصنايع كما يسميه ، وما شاهده من أَدوات وآلات وأَجهزة شاقته وأَعجبته ، إذ علق على بعض التجارب الكيمائية التى أَجريت أَمامه بقوله « ولهم فيه أَمور وأَحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تعيها عقول أَمثالنا » . وإذا علمنا أَن الجبرتي الذي لم يسع عقله علم الفرنسيين هو العالم الذي ورث عن أَبيه مكتبة ضخمة بما جمع لها من صنوف الكتب ، وهو الفلكى الخبير بأُمور الهيئة والرياضيات وما إليها ، فأَننا نتبين مدى ما كان عليه الناس بمختلف مستوياتهم العقلية من جهالة مغرقة في الظلمات .

وإن المرءَ ليكاد قلبه أَن يتفطر حزنا لما آلت إليه أَحوال العرب والمسلمين في عصر العثمانيين بعد أَن كانوا رواد الحضارة

وحاملي مشعلها في العالم ، وإنه ليتذكر في هذا الموقف كيف أَصابت الدهشة والتعجب رجال الامبراطور البيزنطى شارلمان حينما نظروا إلى الساعة الدقاقة التى أَهداها إليه سفير الخليفة هارون الرشيد ، وظنوا أَنها من صنع ساحر أَو جنيّ . كما ينتاب القلب الأَسى إذ يشعر بانهاءَ الجبرتي بالمكتبة التى أَنشأَها الفرنسيون بالمجمع العلمى وزودوها بالمراجع العلمية ونظموا بها طرق الاستعارة الداخلية لمن يرغب من الطلاب ، وإسهابه في وصف طاقة العلماءَ الفرنسيين البشرية من لغويين ومهندسين وفلكيين وعلماء رياضة وجغرافيين ورسامين [1] ، ليذكر المرءَ في حسرة مكتبة بغداد التى كانت منارة الدارسين وكعبة الباحثين في العالم كله بما حوته من عشرات الآلاف من المصنفات والمراجع في كل علم وفن ، وكيف عرض الخليفة المأَمون على الأَمبراطور البيزنطى تيوفيل أَن يعقد معه معاهدة صلح – وكانت الدولة الإسلامية حينئذ في أَوج ازدهارها وجلدة انتصاراتها – في نظير الحصول على مكتبة بالقسطنطينة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية [2].

---

(١) د . حكمت أبو زيد ، المجتمع القاهرى على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتى ، من كتاب عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث .

(٢) الجبرتى ، المصدر السابق ج ٣ ، ص

وثمة مثال آخر يسوقه الجبرتي للدلالة على التخلف العلمي في عصر الدولة العلمية الذي أَعقب عصر الحضارة الإِسلامية الزاهرة ، إذ يقول أَن معاصريه كانوا يعدون الأَشتغال بعلم التاريخ « من شغل البطالين ومن أَفعال الدجالين ... ولم تزل الأَمم الماضية تعتنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا بعد خلف إلى أَن نبذه أَهل عصرنا وأَغفلوه ... وقالوا أَساطير الأَولين » . ثم يستطرد فيروي في نبرة حزينة كيف تسربت الكتب التاريخية من البلاد ، إذ تداولها الإِهمال في الحفظ والنهب وذهاب بقايا البقايا في الفتن والحروب (١).

وكان من نتائج انصراف العثمانين إلى الغزو والسلب أَن فشا الجهل في البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلم الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهدة العلم والتعليم ولم يبق بها سوى الجامع الأَزهر الذي كان قائما قبل عصر الأَمراء المماليك ، وبعض المدارس الملحقة بالمساجد . فكان الأَزهر هو المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأَت آخر شعلة للعلم . وذوت العلوم والآداب بعد أَن كانت زاهية زاهرة ... واضمحلت الآداب العربية وجمدت القرائح وركدت حركة العلم . وصارت

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص .

مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة حتى آخر عصر دولة السلاطين البرجية . [1]

وتقهقرت البلاد وساءت إدارتها ، فأثّرت هذه الأسباب مجتمعة في حالة العلوم والآداب ، وآلت إلى الاضمحلال والذواء ، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة في عهد الفاطميين والأيوبين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية . وتبددت خزائن الكتب التى يرجع إنشاؤها إلى عهد الفاطميين ، ولم يبق منها إلا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الأزهر [2] .

العلمـــاء :

قلما نبغ في عصر الاحتلال التركى شاعر أو عالم أو أديب . ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرتي في كتابه من علماء ذلك

---

(١) ظلت الاداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية (الشراكسة) حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل ، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والاداب العربية في الشرق ، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تلك الدولتين . واستظلت العلوم والاداب بحماية الملوك والسلاطين في عصر مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء . وقد استضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق ، كالإمام ابن تيمية ، وابن قيّم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون.

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، المصدر السابق ، ص ٣٢ ــ ٣٤ .

العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالما نابها في الفلسفة أو العلوم والآداب . وقد اقتصر التدريس في الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التى كان يدرسها أسلافهم ، والتى كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة في عصر ازدهارها بالحضارة الإسلامية . واعتزل الأزهر النهضة الأوربية الحديثة ، فبعدت الشقة بينه وبين التقدم العلمى القديم والحديث ، واقتصر المؤلفون من علمائه على وضع الشروح والحواشي والتقارير والتعليقات ونحوها مما لا يمكن أن يكون أساسا لنهضة علمية حديثة . وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية . وكان المجيدون من الكتاب والأدباء لا يتوخون في كتابتهم إلا بتنسيق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كاالجناس والتورية ، واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق في متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى القصص والأساطير الشعبية . وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون في المقاهى ويلقون على مسامع الجماهير القصص ، والأساطير المشار إليها وينشدونها على نغمات الربابة

سجل الجبرتي المواقف الجريئة لقلة من علماء عصره في مواجهة السلطة الغاشمة ، ولكنه نعى على جمهوريتهم وهم قادة

الفكر إمعانهم في الاشتغال بأمور الدنيا مما حوّلهم إلى سادة إقطاعيين كالأمراء المماليك سواء بسواء [1].ولذلك اتجه إلى إمطارهم بالنقد وإعتبارهم ظلمة ، يجمعون المال ، ويتاجرون بالفتوى ، ويرتكبون الأمور المخلة إلى جانب بعض صفات المكر والخديعة ، وقسوة بعضهم على الفلاحين قسوة بلغت من الشدة أكثر مما فعله الأتراك والمماليك والفرنسيون . كما رسم الجبرتي صورة هزلية لتكالبهم على ماديات الحياة وانصرافهم عما وجب عليهم من النصح [2] وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ القاموس مع ترك العمل بالكلية. وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الأقدمين ، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان ، وأصدروا الحبس والتعزير من الضرب بالفلقة والكرابيج .. وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميري والفائض والمضاف ... إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

---

(١) صبحي وحيدة ، في أصول المسألة المصرية ص ١٢٥ .

(٢) د . جمال زكريا قاسم – عبد الرحمن الجبرتي سيرة وتقييم بحث في كتاب عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث ص ٥٤ .

وأرجع الجبرتي فساد أخلاق العامة في سائر البلاد إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون بغير علم للفتوى والوعظ ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس أو يميزون لهم بين الحق والباطل والحلال والحرام ، فيبتدعون من الفتاوى ما يخالف الدين وينسبونها إلى الأئمة زورا وبهتانا [1] . وكان المؤرخ الكبير يطلق عليهم اسم « المعممين » لحرصهم على لبس العمائم ذات المنظر الضخم .

ومن هؤلاء طائفة العلماء الرسميين الذين عقدوا أواصر المودة مع رجال السلطة وذلك ابتغاء عرض الدنيا وزخرفها . وقد

---

(١) من وقائع هذه الفتاوى الباطلة أن السلطان سليم الأول ادعى أنه وقف عند حد الشرع الشريف في حربه لدولة المماليك ، لما ضمنوه نقوش النقود من شهادة التوحيد والرسالة المحمدية . وذلك أنه استغنى المفتي « على جمال أفندى » في مسائل ثلاث أوردها المؤرخ النمساوى « همر » في كتابه تاريخ الدولة العثمانية . وكان منها هذا السؤال : إذا كانت أمة (يقصد المماليك) تنافق في احتجابها برفع كلمة الإسلام ، فتنقش آيات كريمة على الدنانير والدارهم ، مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الأهواء والنحل .. فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى محل الخلاء لقضاء حاجتهم ، فكيف ينبغي معاملة هذه الأمة ؟ فأجاب المفتي « بأن هذه الأمة إذا رفضت الإقلاع عن ارتكاب هذا العار جاز إبادتها » والحق أنه كما يقول دوسون تعليقا على هذه الفتوى : « أن فظاعة الجواب لا يضاهيها سوى حماقة السؤال » إذ أن النقود المصرية منذ تعريبها في عصر الأموى ، وهي تحمل شهادة التوحيد والرسالة القرآنية من بين نقوشها ، ولم يحتج على ذلك أحد من الغيورين على الدين قبل السلطان سليم ، كما لم تكن هذه النقود يوما ما موضوعا لفتوى تحلل الحرب والجهاد ضد من يضرب مثل هذه النقود في دار الإسلام .

رسم الجبرتي صورة لأحد هؤلاءَ العلماء تبين أنه كان مشتغلاً قليلا بالمذاكرة ومجالسة العلماء ، ولكن كان شغله الشاغل تحصيل المال وتنظيم المعاش والرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس .. وتعاظم في نفسه ، وتعالى على أبناءِ جنسه .. وصار يلبس قاورنا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراءِ وبعدا عن التشبه بالمتعممين والفقهاء . وزاد من تعاظم هذا العالم أن زملاءه إذا أقتربوا منه على قدر ذراعين ضموا ثيابهم تأدبا ، ثم حيوا تقبيل يد هذا الشيخ أو ثيابه وإذا انصرفوا عنه غسل يديه بالماءِ والصابون بعد ملامستها أيديهم . وقد أصابت هذه الظواهر من الغرور والتعالى جل العلماء الرسميين .[1]

الاعراض عن الحضارة الاسلامية
والاستقاء من منابع الشرفي الحضارة الاوربية

على الرغم من أن الحملة الفرنسية على مصر قد أوجدت نمطا حضاريا متفوقا إذا قورن بما كانت عليه أنماط الحياة في المجتمعات العربية في ظل العثمانيين ، فإن هذا النمط الحضاري كان له وجهه القبيح الذي يتمثل في مستحدثات

(١) د . إبراهيم أحمد العدوى ، الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ، بحث في كتاب عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ص ٨١ .

الفرنسيين التى تخالف الشريعة [1] ، كانفلات بعض الرجال والنساء وتقليد بعض الفئات الاجتماعية لهم وتحللها من المثل الأَخلاقية الاسلامية ، ولا سيما أَنه أُبيح البغاءَ العلنى ، وسفرت بعض النساء ولبس الملابس الملونة واختلطن بالرجال ، وتمردت تلك الفئات على الأَوضاع الموروثة ، وتحدت العرف الإسلامى الشرعى بتناول الطعام والشراب علنا في رمضان وتعاطى المسكرات

(١) هذا على الرغم مما ادعاه نابليون من أنه مسلم ، جريا وراء استمالة المصريين بإصدار المنشورات باللغة العربية ، وتقربه من علماء الأزهر والمشايخ بإظهار احترامه لهم والإبقاء على امتيازاتهم ، حملا لهم على نسيان ما أحدثه جنوده من قبائل بالأزهر ، وسجل الجبرتى في كتابه « مظهر التقديس » أن رجال الحملة الفرنسية خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين ، فتراهم صورة معطلين وللمعاد والحشر منكرين وللنبوة والرسالة جاحدين ، ويقولون بقدم العالم وتأثر العلوية والحوادث الكونية بالحركات الدورية . وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل وما تستحسنه النفوس بحب الشهوات .

الباب السابع

حروب محمد على في الجزيرة العربية للقضاء على أنصار الدعوة السلفية

تدرج حملات محمد على باشا الوالى العثماني على مصر ، في الربع الأَول من القرن الثالث عشر ، على الجزيرة العربية ، والوسائل والأَساليب الوحشية التى ارتكبها ، في عداد المذابح التى سجلها التاريخ بمداد الاستنكار واللعنة ، باعتبارها وصمة عار في جبين ذلك العصر . فقد أَعادت تلك الحملات عهود الهمجية والاستبداد ، وانتهاك حقوق الإِنسان ، واستباحة الحرمات والقيم الدينية والخلقية ، وقطع ما أَمر الله به أن يوصل ، والسعى في الأَرض فسادا ، مما يذكّر بأَفعال أباطرة الرومان في عصور الوثنية ، وطغيان المغول في غاراتهم المدمرة على بلاد العروبة والإِسلام ، واكتساح الأَخضر واليابس ، وتهديم الديار ، وسحق الشيوخ والنساء والصغار تحت سنابك جيادهم ، لا تفريق لديهم في ذلك بين المحاربين والآمنين ، وتحريق بغداد عاصمة الإِسلام ومشعل الحضارة في العالم في ذلك الحين .

ويزيد جرم محمد علي نكرا وفحشا إذا لاحظنا أن حملاته تلك قد وقعت بعد أن ظهر الإسلام وانتشر نور هدايته في المعمورة بسبعة قرون هذب فيها غرائز الشر في الإنسان ، كما تمثلت في جاهلية العصور الأُول على عهد الرومان والعجم وغيرهم من عباد الأَوثان وأَولياء الطاغوت ، وبعد أَن دخل العالم منذ القرن الحادي عشر في مرحلة جديدة من العلاقات الدولية القائمة على التنظيم بديلا من الفوضى ، والمدنية بديلا من الوحشية ، وذلك عن طريق سن التشريعات وعقد المعاهدات الدولية على أَساس توثيق حقوق الأَمم والشعوب والتزاماتها في الحرب وفي السلم . فنصت قواعد القانون الدولى القائمة على المعاهدات أَو العرف المتواتر على حظر العدوان على الابرياء في أَنفسهم وأَهليهم وأَموالهم ، وعلى رعاية الأَسرى والجرحى والمرضى وغيرهم من ضحايا الحروب . كما وضعت المعايير التى تقوم عليها العلاقات بين المتحاربين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين المحايدين . فكان ثمة قانون للحرب ينهض على احترام آدمية الإنسان الذي كرمه الله في كل الشرائع ، والحفا ظ على القيم والمباديء القويمة التى جاهد الأَنبياء والمصلحون طويلا في سبيل التوعية بها وغرسها في النفوس ، وصون ذخائر الحضارة التى تناقلتها واضافت إليها الأَجيال واحدا بعد آخر .

وتتضاعف أَوزار محمد على في الميزان إذا لاحظنا أَيضا أَنه كان محسوبا على المسلمين لانتمائه إلى أَمتهم كواحد من الرعايا الأَتراك ، ووالٍ من قبل الباب العالى الذي كان يمثل الدولة الإسلامية الكبرى حتى نشوب الحرب العالمية الأَولى . فقد بلغ إفساده في أَرض المسلمين الذين تصله بهم رابطة الدين الحنيف حدا لم يبلغه عتاة الغزاة من أَعداءِ الملة والشريعة . ويكاد القاريء المعاصر لا يصدق ـ إذ يطلع على تاريخ حرب محمد على باشا على المسلمين في الجزيرة العربية للقضاء على أَنصار الدعوة السلفية ـ أَن ثمة إنسانا تجسد فيه الشر والضراوة على تلك الصورة التى سجلتها صفحات التاريخ ، لولا أَن هذا التاريخ موثق صحيح لا يأَتيه الشك ، وأَنه بذلك شاهد صدق وعدل يتنزه عن الباطل ويربأَ بنفسه عن المبالغة .

وتستمد الأَحداث التاريخية المحققة عن عصر محمد على تلك القيمة الوثائقية من تقويم أَهم مرجع دوّن هذه الأَحداث ، ونعنى به كتاب « تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأَخبار » لمؤلفه العلامة المؤرخ المصري الكبير الشيخ عبد الرحمن الجبرتي (١١٦٧ ـ ١٢٤٠ هـ) . فقد أَجمع علماءُ التاريخ والاجتماع في الشرق والغرب على انه محقق ثبت حجة في كتابه هذا . وأَبدى بعض من كتبوا عنه دهشتهم لظهور الجبرتي فجأَة كمؤرخ

عملاق ، في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، تمتاز كتابته بمستوى عال من الدقة والتحري والإفاضة .

فمن الثابت أن الجبرتي قد بذل جهدا كبيرا في تحري الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة ، وتقضى آثار المترجم لهم ، وتدوين الأحداث مسندة إلى مصدر ثقة أو شاهد عيان أو شاهد سماع . وفيما يتعلق بالأحداث الهامة كان يتوجه بنفسه لمعاينتها ويتصل بمن يأنس فيهم معرفة مواطن الأمور . ومما يجعل كتابه « عجائب الآثار » مصدرا رئيسيا على أكبر درجة من الأهمية ما تميز به من دقة واستقصاء للأحداث والتحفظ في ذكرها . كما أنه يتميز بالموضوعية التى نستشفها من تأكيده أنه يكتب للحقيقة والتاريخ : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير وطاعة وزير أو أمير . ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو ذم مباين للاخلاق لميل نفس أو غرض جسماني [(١)] » . كما أنه ينوه إلى أنه لم يثبت إلا ما وصل علمه إليه وثبت خبره لديه ، وأنه لم يخترع شيئا من تلقاء نفسه . فكان بذلك دقيق التحري ، أمينا في النقل نزيها في الرواية ، دقيق الملاحظة ، ألمعى الذكاء ، نفاذ البصيرة .

---

(١) تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاثار للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، دار الجيل ، بيروت ، ج ١ ، ص ١٢ .

وقد شهد للجبرتي بمكانته السامقة بين المؤرخين بفضل موضوعيته أكبر علماء التاريخ من العرب والأجانب . فيقول عنه المؤرخ المصري الكبير عبد الرحمن الرافعى « إن الجبرتي هو أهم مرجع ، ويفوق في دقته جميع المراجع الفرنسية . وهو شاهد عيان للحوادث التى وقعت بمصر سنة ١١٧١م إلى سنة ١٢٣٦ هجرية ، أما الحوادث التى سبقت هذه المدة فقد اعتمد التى سبقت هذه المدة فقد اعتمد فيها على النقل من كبار السن والرجوع إلى الوثائق المخطوطة . وتاريخه هو التاريخ الوحيد الذي يعول عليه لمعرفة أخبار مصر في تلك الحقبة من الزمن . وحسبك أنه شاهد عيان لحوادث خمسين عاما أو نحوها ، وأنه استقرأ حوادثها في نحو خمسين عاما أخري . ولم يتوفر مثل هذا الاستقراء وهذه المشاهدة لعالم آخر . ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتي كتب عن هذه الحوادث بمثل إسهابه وتحقيقه ، وفضيلة الرجل في تدوينه للحوادث أنه كان يتحرى الدقة والصدق ويتوخى الحق ، ولم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأي إنسان مهما عظم نفوذه . فكان يذكر لكل من ترجم له ماله وما عليه [١] » .

(١) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم في مصر ، القاهرة ، جـ ١ ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

ويقول عنه المؤرخ الراحل لأستاذ محمد شفيق غربال : « قدم لنا الجبرتي المرآة التى نرى على صفحاتها رسم العصر . وكتابه (عجائب الآثار) تقييدات بنت ساعتها . وهو وثائق وروايات مسجلة بنصوصها » [1] . ويقول الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية : « لا شك أن عبد الرحمن الجبرتي ، بمنهجه وأسلوبه ودقته واستفاضته في شرح الحوادث والوقائع والرجال ، كان أنبه المؤرخين المصريين الذين كتبوا عن أواخر العصر العثماني ، وأكبرهم شأنا » [2] .

ويقوم الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر هذا المرجع العلمى الأساسى بقوله : « تبقى مكانة مؤرخنا الكبير راسخة كالطود . فهو لصدقه ودقة تعبيره قد خلف لنا صورة فريدة لأحوال مصر في أيامه ، بحيث لا يستغنى عن تاريخه كل من يتصدى للكتابة عن ناحية أو أخرى من تاريخ مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي » [3] .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى — دراسات وبحوث — بإشراف د . أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ص ٩ .

(٢) الجبرتى مؤرخ مصرى على مفرق الطرق ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٣) الجبرتى مؤرخا ، المصدر السابق ، ص ٤١ .

أَما شهادة علماء التاريخ الأَجانب في شأن الجبرتي ، فإن المؤرخ البريطاني الكبير ارلند توينبى يقول :

« عاش الجبرتي في خضم التقلبات ، ومُنح إدراك مغزاها وأوتي أَيضا المقدرة العلمية على تسجيلها بإحساس صادق يتيح لقارئه التجاوب معه فكريا . وكان يملك موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء . فالمماليك أَرقاء دخلاء استجلبوا إلى مصر من القوقاز. والعثمانيون كذلك دخلاء بما فيهم الانكشارية الذين كانوا يُرَوَّضون باستمرار وكذلك الحال بالنسبة للحكام الذين يأْتون ويذهبون. وكذلك محمد على الدكتاتور ذو الباس ما هم إلا أَجانب وفدوا من جنوب شرق أَوربا وآسيا الصغرى . إن الجبرتي قد علم حقيقتهم جميعا . وإن في وسع مصر أَن تفاخر بالجبرتي ، كما تباهى به سائر انحاء العالم الفسيح الذي يتحدث ابناؤه باللغة العربية »[1] .

وبناءً على هذه المكانة التاريخية السامية التى يحظى بها الجبرتي سوف نرجع إليه في هذا الباب من الكتاب ، ولا سيما فيما يتصل بشخصية محمد على ، وأَسلوب حكمه ، وحشده

---

(١) المصدر السابق ، عبد الرحمن الجبرتى وعصره للمؤرخ البريطانى آرنولد توينبى ، ص ١٤ ، ١٥ .

الجنود العثمانيين في مصر لمحاربة الدعوة السلفية في الجزيرة العربية والدولة التى اعتنقتها ونشرتها ، وسلوك هؤلاء الجنود في البلاد ، وسياسة السلاطين في الدولة العثمانية . وسوف يكون مدخلنا إلى هذا الفصل بيان سياسة محمد على وجنوده في مصر كما سجلها الجبرتي وذلك تأَصيلا للدراسة . فإن سلوك هؤلاء في حملاتهم العسكرية على الجزيرة العربية امتداد طبيعى لمسلكهم في الإقليم المصري . وفضلا عن هذا الارتباط الوثيق ، فإن صدور كتاب الدرعية من أَرض الدعوة السلفية ودولتها اللتين حاربهما محمد على يقتضينا أَن نقدم تاريخ حملات محمد على باشا على الدرعية بلسان شاهد من غير أَبناء الجزيرة العربية ، ومشهود له بالصدق والموضوعية .

وثمة إعتبار آخر تطلب التمهيد بين يدي هذا الباب بمدخل نتناول فيه بإِيجاز ملامح شخصية محمد على ومسلكه هو وجنوده في مصر . وذلك أَن المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي لم يعاين حملات محمد على باشا على الدرعية ، ولم يفصل القول في رواية الأَخبار التى بلغته واطمأَن إليها . ومن ثم لم يكن لنا معدى عن الاستناد إلى المراجع المعتمدة في هذا الموضوع ، وجُلّها من تأَليف مؤرخين من المملكة العربية السعودية ، وفي مقدمتها كتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) للمؤرخ الكبير

الشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر ، وكتاب (المجاز بين اليمامة والحجاز) ونفيا لأَية شبهة قد تثار في شأَن مدى التزام علمائنا السعوديين للموضوعية وهم أَبناء الدعوة وحاملوا مشعلها ، فقد أَوردنا المظالم والمذابح والمنكرات التى فعلها محمد على وأَعوانه من الجنود العثمانيين بمصر وأَهلها كما أَثبتها الجبرتي ، حتى إذا طالع القاريء ما ذكره مؤرخونا عن مفاسد هذه الفئة الباغية وقبائحها في حملاتها على بلاد الجزيرة العربية عامة والدرعية خاصة ، اطمأَن إليهم القاريء ، وتيقن أَنه ليس ثمة شبة مبالغة في تاريخهم .

فإذا كان العثمانيون قد ارتكبوا كل هذه المعاصى التى ذكرها الجبرتي في مصر وهى التى آوتهم وأَطعمتهم من جوع ، فليس بمستغرب أَن يرتكبوا مثلها أَو أَشد نكرا في البلاد التى دخلوها ليخمدوا الأَصوات التى تنادت فيها بالعودة إلى الشريعة الإسلامية الصحيحة ، والتى اعتبرت الطغمة العثمانية أَصحابها والحاكمين تحت رايتها الد اعدائها وأَشدهم باسا . إن إفساد محمد على وجنوده في أَرض مصر ، وإفسادهم في الدرعية حلقتان متماثلتان في سلسلة واحدة . وهما صورتان تتغير فيهما الوقائع ولا يتغير ما بأَنفس القوم الذين انغمسوا فيها ، لأَن

طبائع هذه النفوس ثابتة مركوزة فيها وإذا توحد المصدر وهو الطبع توحد الفعل الذي يصدر عنه وإن اختلف مكانه وزمانه .

وفي ضوء ما تقدم سوف نقسم هذا الباب إلى فصلين نتناول في أَولهما ملامح شخصية الجندي العثماني ومحمد على صنيعة العثمانيين . أَما الفصل الثاني فنتناول فيه حملات محمد على في الجزيرة العربية ، وهو ينقسم أَيضا إلى مبحثين نعالج في الأَول حملات محمد على ، ونعالج في الثاني نضال الدرعية .

الفصل الأَول

ملامح شخصية الجندى العثماني ومحمد على صنيعة العثمانيين

المبحث الأَول

ملامح شخصية الجندي العثماني

تعد الحقبة التى نزل فيها العثمانيون أَرض مصر ثم الأَقاليم العربية الأَخرى وأَقاموا فيها سلطانهم منذ عصر سليم الأَول في القرن العاشر الهجري إلى عصر محمد على باشا في أَوائل القرن الماضى أَسوأَ الحقب وأَسودها في تاريخ المصريين الذي يضرب بجذوره إلى سبعة آلاف عام ، وذلك على الرغم من ابتلائها بكثير من أَنظمة الحكم المستبد الغاشم خلال تلك المسيرة الطويلة الموغلة في القدم وبكثير من الحكام الأَخساء والملوك المفسدين . وكانت الفترة التى مرت بها مصر في نهاية القرن الثاني عشر ومطالع القرن الثالث عشر ، والتى حكمتها فيها العصبة العثمانية وكبيرها محمد على ، أَشد فترات هذه الحقبة

السوداء اظلاما وأكثرها وبالا ، مما يرجع إلى خبث طبائع هذه العصبة وخروجها على الشرائع السماوية والوضعية .

وبتحليل مغزى السياسات التى استنوها والجرائم التى اقترفوها يتبين أن مردها جميعا إلى نقيصتين فطروا عليهما ، وهما الطغيان ، والجشع المتمثل في تكالبهم على متاع الحياة الدنيا وملذاتها ، والاستيلاء بالقوة على ما وهبه الله الناس من أرض أو مال أو غيرهما من النعم والخيرات ، والاستئثار بها دون أصحابها ومنعها عنهم بحد السيف ، وإلباس الحق ثوب الباطل ، واتخاذ الدين ذريعة يبررون بها أفعالهم المنكرة شأن القوم الفاسقين ، وصدق الحق إذ يقول في تنزيله الحكيم : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

فهاتان النقيصتان ـ الاستبداد والطمع ـ هما البذرة الخبيثة التى أطلعت في صور شتى أخبث الثمار . فمن خداع ونفاق وغدر دنيء إلى استعلاء على الناس بغير الحق وفساد في الأرض كبير . ومن نهب وسلب للأموال والأعراض وانتهاك لما حرم الله إلى تخريب للدور وتحريق للاخضر واليابس وقتل للآمنين وتمثيل بالمقتولين ، مما يسلكهم في عداد الحكام الطغاة الذين نزل فيهم قوله تعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها

وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » . وما أصدق أبا العلاء المعري إذ يقول في أمثال الوالى العثماني محمد على وشيعته وجنوده وأعوانه :

مُلَّ المُقامُ فكم أعاشر امة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وتفسر المغارم الباهظة التى فرضها الحكام العثمانيون على الرعية في مصر ، والأساليب البشعة التى انتهجها جنودهم في سبيل تحصيل هذه المغارم ، ما جبلوا عليه من طبيعة عدوانية ، وشره يتوارى بذكره الطمع الأشعبى ، ورغبة محمومة مسعورة في الكسب الحرام والإثراء من طريق الغصب والقهر . فكانت لذلك غاراتهم المتوالية على المدن والقرى وما اقترن بها من مذابح دموية تقشعر لها الأبدان ، ومن مباذل أخلاقية وفظائع ودنايا يعف عنها بطبعه الحيوان بله الإنسان . وفي ذلك يقول الجبرتي إن القائمين الذين أمرهم محمد على كانوا جاهلين بطرائق سياسة الإقليم . وكانوا لا يعرفون من الاحكام إلا أخذ الدراهم بأي وجه كان ، وتمادى قبائح الجند مما لا تحيط به

الأَوراق والدفاتر بحيث لا يخلو يوم من سطو للسبى أَو للسلب وانتهاب المحاصيل والأَقوات من أَصحابها عنوة أَو بأَبخس الأَثمان [1] .

ونسوق فيما يلى على سبيل المثال لا الحصر بعض الوقائع والجرائم التى ارتكبها الحكام والجنود الأَتراك بصفة عامة ومحمد على باشا وأَعوانه منهم بصفة خاصة .

فرض المغارم وجبايتها غصبا :

فرض الوالى التركى الذي يحكم باسم الباب العالى مغارم باهظة على أَرباب الحرف والصنائع وكلهم فقراءَ « كأَنما لم يكفه ما كانوا فيه من القحط والكساد » . فاغلقوا الأَسواق والمتاجر ووكلوا أَمرهم إلى نقيب الشعب ليطلب إلى الوالى رفع المظالم عنهم . كما فرض محمد على مثل هذه المغارم على الملتزمين وغيرهم ، وناط بطائفة من جنوده طلبها حثيثا . فمن كانوا لا يجدونه لغيبته دخلوا داره وطالبوا أَهله أَو جاره أَو شريكه .

---

(١) تاريخ عجائب الاثار في التراجم والأخبار ، ج ٣، ص

وقد عسف أَرباب المغاضب من أَعوان محمد على في القرى وطلبوا ضريبة « الميري » عن السنة القابلة على حين كانت الأَرض ممحلة . وضيقوا على الملتزمين واستخدموا الجنود ذوي العِصِىّ الغليظة في التحصيل . وتوالى طلبهم الضرائب آناءَ الليل وأَطراف النهار ، وهم يكرون في غير حرب ، ويستعْلون كبرا كأَنهم جند غالبون :

وإذا ما خلا الجبان بأَرض　　　طلب الطعن وحده والنزالا

وكم من تاجر أَفلس بتوالى الفتن والمغارم وانقطاع الأَسباب والأَسفار فصار يتعيش بالكد والقرض وبيع متاعه وأَثاث داره وعقاره ، فما أَعفاه ذلك من الضرائب . وكانت علة الجُباة العثمانيين في طلبهم أَن اسمه ما زال مدونا في سجل التجار ، فلا عبرة بما انتهى إِليه حاله وصار مآله . فهو يؤخذ ويحبس ، ويستغيث فلا يغاث ولا يجد شافعا ولا راحما .

ومن جملة أَفاعيلهم الشنيعة التى لم يطرق الأَسماع نظيرها ولم يسمع بما يقاربها ظلما ولا جورا في ملة من الملل – كما يقول الجبرتي – (١) أَنهم قرروا ضريبة من ضرائب الغرم على البلاد ، فكتبوا أَوراقا وسموها بشارة الفرضة ، يتولاها بعض من يكون

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص　　.

متطلعا لمنصب أَو منفعة ، فيرتب له خدما وأَتباعا ، ثم يسافر إلى الإقليم الموكول به بعد أَن يوفد أَعوانه البشرى بذلك ، ثم يقبضون ما رسم لهم في تلك الأَوراق من ضريبة الطريق ، كل وفق مقدرته على احتيال الحيل واستعمال القوة في فرض الاتاوات وابتزاز الأَموال .

ومن أَساليب الجنود العثمانيين الموكلين بهذا الابتزاز أَنهم كانوا ينزلون بدار الرجل ويلازمونها ويكلفونه مالا يطيق ، فلا يجد ملجأً ولا خلاصا إلا بأَحد اثنين : اما الدفع بأَي وجه كان ، واما النزول عن حصته من العقار للديوان ، فلا يبقى بيده ما يقتات منه هو وعياله ، ويمسى فقيرا لا يملك شروى نقير .

فكان الإرهاب على مختلف صنوفه أَسلوبهم الأَثير في فرض المغارم وتحصيلها ، حتى أَن الرجل يكون نائما في بيته ومتفكرا في قوت عياله فيدهمه الطلب قبل الشروق بصوت الجندي العثماني الصارخ وبالسوط في يده ، بل يدهم غرف نسائه ، فيدفع الرجل ما طُلب إليه ويسلم صاغرا . وما يكاد هذا الطارق المعتدي يفارق حتى يعقبه جندي آخر مطالبا بالغرم – على حين لا غنم – من جديد .

وقد نزلت هذه الغمة بالناس من جراء إطلاق الوالى العثماني أَيدي ملتزميه في تحصيل المغارم كما يشاءون . فكانوا إذا لم يجدوا شيئا من الدراهم عند الفلاحين أَخذوا ماشيتهم وأَبقارهم ليأْتي أَربابها ويدفعوا ما فُرض عليهم . وكانوا يتركون الماشية التى يحتسبونها بلا رعاية تقيها الجوع والعطش ، حتى إذا ضمرت باعوها في الأَسواق قهرا بأَقصى قيمتها ، فإن تراخى الفلاحون والتجار عن دفع الثمن المفروض لعجزهم شددوا عليهم بالحبس والضرب [1] .

وقد بلغ من عسف محمد على أنه فرض على أَرباب الصنائع والتجار ضرائب عن أَراض ما ملكوها قط ولا عرفوها يوما ، ولم يقبل منهم قولهم إنهم لم يعملوا بالزراعة . فكانوا يحبسون ويضربون حتى يدفعوا ما أَلزموا به أَو يجدوا شفعاءَ لهم يصالحون عليهم . ومنهم من مات في محبسه ولما طلب أَهله جثته رفض أَعوان محمد على الاستجابة إليهم حتى يودع ابن المتوفي في الحبس مكانه .

ولم تسلم نساء أَمراء المماليك من شر هذه العصبة الباغية ، إذ فرضت المغارم عليهن وارسلت الجند لملازمة بيوتهن حتى

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

يدفعن ما التزمن به ، فاضطر أكثرهن إلى بيع متاعهن فلم يجدن من يشتري لاستشراء الضيق والكساد . كما حبس الوالى الكتبة من النصارى وطائفة اليهود وخيّرهم بين استمرار الحبس أو دفع المغارم . وعمت هذه المحنة الشعب جميعا ، إذ كان الوالى يفرض على الناس نفقة لجنوده لا يفى ببعضها خراج الإقليم . فمن امتنع لعجزه منهم كان جزاؤه أبشع جزاء [١] .

وقد كانت سنابك جياد العثمانيين تكتسح القرى الآمنة ، ويقتحم الجنود الدور وينقبونها بدعوى البحث عن خصومهم ، متنقلين من بيت ينقبونه إلى بيت آخر ، عابثين بها ممزقي وسائدها ورياشها ، مزعجى أهلها من شيوخ وأطفال بقبح أفعالهم ، مقتحمين خدور النساء بصورة منكرة ، يهدمون الجدران حتى تنكشف النسوة في مضاجعهن ، وهم يقذفون الرصاص على الأسطح في جيئتهم وذهابهم ، فيصيبون الأبرياء ويتركونهم ما بين صريع وجريح ، فتصرخ النساء والولدان الضعاف ويهربن من بيوتهن في حالة من الفزع والذعر . ويطفق الجنود ينهبون الأمتعة والثياب والفرش ويكسرون الصناديق والسُّرُج ، ويأكلون الاطعمة جهارا في نهار رمضان . فلم تبق

(١) المصدر السابق . جـ ٣ ، ص .

دارة عامرة لم يخربوها ، ولم يسلم لأَصحاب المساكن سوى ما كان لهم خارج دورهم وبعيدا عنها لا يعلمون متى تصيبه الجائحة . وكانت هذه الحملة التترية الهمجية تستمر على هذا الحال عدة أَيام وليال [١] .

العدوان وانتهاك الحرمات والشرائع :

تجمدت حركة التجارة وتعطلت المساعى والمصالح من جراء فرض الناس على أَنفسهم « حظر التجول » ليلا حتى في أَعيادهم من خشية عدوان الجند المرتزقة . فكانوا يغلقون الحوانيت ويطفئون القناديل بعد أَذان العشاء ويذهبون إلى دورهم فيلزمونها [٢] .

أَما في الريف فقد حل القحط وعمت المجاعة ، فمات بعض الناس جوعا ، واقتات البعض الآخر من قشور الأَرض وما يتساقط في الطرقات . وهاجر من بقى منهم هائمين على وجوههم كالضواري الجائعة في الصحراء فرارا من المغارم التى كان يفرضها الجند على المحاصيل الزراعية ، ومن غاراتهم على القرى لنهبها حتى لم يبق بإقليم القليوبية إلا خمسة

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

وعشرون قرية فيها قليل من السكان والباقي خراب ليس فيها ديار ولا نافخ نار [1]

وليس أدل على عيثهم في الأَرض فسادا من دخولهم البيوت وإخراجهم أَهلها منها وسكناها . وإذا سكنوا دارا خربوها وكسروا أَخشابها وجعلوا منه وقودهم . فإذا صارت خرابا تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها ذلك . وكان هذا دأَبهم منذ وطئت أَقدامهم أَرض مصر حتى عم الخراب سائر النواحى .

أَما مباذلهم في حلهم وترحالهم وما صحبها من اعتداء على النفس والعرض ، فإن المرأَ ليعجب كيف وصل هؤلاء القوم إلى هذا الدرك الأَسفل من الفسق والفجور . ذلك أَنهم لم يَكْفِهم أَن أَغلقوا على الناس السبل وضيقوا أَبواب الرزق في وجوههم بعد أَن اثقلوهم بالضرائب ونهبوا أَموالهم وأَقواتهم ، بل زادوا على هتك أَعراضهم واستباحة النساء المحصنات كأَنهن سبايا الأَعداء في عصور البربرية الأَولى ، وكانوا إذا جنحوا إلى شيء من الرفق أَكرهوا أَرامل الأَمراء المماليك على الزواج بهم ، فمن أَبت عليهم استولوا على ما تملكه وأَخرجوها من دارها

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

ونهبوا متاعها ، فما يسعها إلا الإذعان ، لا يعصمها منهم هروب أَو أَختفاء أَو التجاء (١)

وطالما شهدت المواسم التى يحتفلون بها في مصر من صور الرذائل التى يندى لها جبين الشرفاء والأَحرار وأَهل العفة والتقى . ففى موسم وفاء النيل كان الوالى وعسكره يسكنون بيوت الخليج مع الساقطات من النسوة وينزلون في قوارب على الخليج وهم يطلقون النيران الكثيفة طيشا وخيلاء فيصيبون الآمنين من رجال ونساء وأَطفال . ومما وقع أَنه أَصيب رجل برصاصة من بنادقهم فلقى حتفه ، وحضر أَهله نائحين يريدون أَخذه ليواروه التراب ، فمنعهم الوالى وطلب منهم ثلاثة آلاف درهم من الفضة ، ولم يمكنهم من حمله حتى صالحوه على أَلف وخمسمائة . بل كان بعض هذه الطغمة يجد لذة في إطلاق الرصاص على النسوة اللاتي ينظرن من خصاص شرفات منازلهن إلى المواكب والقوارب (٢) .

ومما وقع أَيضا أَنه تهدم حمام فمات من به من النساء والأَطفال والبنات ، وخرج الأَحياء من داخله وهن عرايا

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

ينفضن غبرات الأَتربة والموت ، وحضر الأَغا والوالى ومنعوا أَهل الموتى أَن يحملوهم إلا بدراهم ونهبوا متاعهم [1] ، مهدرين كل حرمة للميت أَو الحى .

ولم يراعوا مكانة مشايخ البلد وهم رؤساء أَهل القرى والمدن الذين يصدعون بأَمر الحكام ويتوسطون بينهم وبين الشعب . فكانوا يكذبون عليهم قائلين هذا المال نأَخذه من الناس على سبيل القرض ثم نرده إليهم . فيقول لهم المشايخ إنه لم يبق بأَيدي الناس ما يقرضونه ، ويكفى أَهل مصر ما هم فيه من الغلاء والكساد . فلا يسمع أَعوان الوالى لهم قولا . ويقبضون على من امتنع أَو تقاعس عن الدفع ، ويودعونه في أَضيق المحبوس مغللا بالأَصفاد في يديه ورجليه ورقبته ، أَو يوقفونه على قدميه وقد ربطوا أَغلاله بالسقف . ويرسلون الجنود إلى بيوت هؤلاء الأَبرياء فيجلسون بها يأَكلون ويتعاطون الخمر حتى السكر ويطلبون من الناس الإنفاق على ملذاتهم [2] .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

اهدار كرامة العلماء والفقهاء:

أَصاب العلماء والفقهاء من بغى محمد على وجنوده ما أَصاب مشايخ البلاد من إساءَة في معاملتهم ، وإهدار لكرامتهم ، وامتهان لهيبتهم بين الناس ، لا يراعون في ذلك عهدا أَو يبالون بشرع ، ولا يثنيهم عن غيهم وازع من دين أَو خلق ، أَو يردعهم زاجر ولا ناه عن المعصية . ويتبين مدى العنت الذي عاناه أَهل الفقه والعلم من محمد على وبطانته وكلاب صيده من الانكشارية إذا علمنا أَنه « في فترة الاضطراب والفساد والاستغلال التى شهدتها مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير حتى مجىء الحملة الفرنسية لم تكن ثمة هيئة أَو طائفة تتمتع بقدر من الاستقرار سوى هيئة العلماء أَو طائفة العلماء . فقد استطاعوا وسط هذا الجو المضطرب أَن يحافظوا على كيانهم وتقاليدهم في العلم أَو في السلوك الاجتماعى مما أَضفى عليهم مكانة خاصة في المجتمع المصري . فكانوا بمثابة الجسر الذي يصل بين الحاكم والمحكومين ، بما بلغوه من كلا الطرفين من ثقة وتوقير .

ونهض العلماء بهذا العبء بأَمانة واقتدار قل أَن نجد لها نظيرا في غير مصر من بلاد العالم الإسلامى في ذلك الوقت .

هذا إلى قيامهم على حمل أَمانة العلم ، مما حفظ لمصر مكنتها في العالم الإِسلامى أَجمع . » (١)

بيد أَن هذه المكانة لم تشفع لهم عند القوم الظالمين ، فلم يكد الفرنسيون يجلون عن البلاد حتى تنازع المماليك والعثمانيون عليها ، كل يريد الاستئثار بها لنفسه كأَنهم استخلفوا فيها وُورّثوا عليها . فمن بطش بالأَهلين إلى تنكيل بالعلماء . ومن هؤلاء القوم من كان يصانع أَهل الدولة في الآستانة ورجال السلطنة ، ويتابع إرسال الهدايا والأَموال لهم . أَما علاقته بالشعب عامته وصفوته ، فكانت تقوم على العقاب على الذنب المفترى عليهم بالقتل والتمثيل بالجثث ، وبالحبس ، وبقطع الآناف والآذان والأَطراف . ولم يغفروا زلة عالم لعلمه أَو ذي جاه لوجاهته . وسلبوا النعم عن ذويها واستأَصلوا أَموالهم ، ومات في محبسه من لا يحصى من الأَعيان والعلماء ، وغيرهم ، ومنهم من أَطال حبسه سنين حتى مات .

ومن المشاهد التى تواتر وقوعها أَخذ الجنود العثمانيين طيالسة المشايخ والعلماء وهم راكبون بهيئتهم وقتل أَتباعهم . وكذلك أَمرهم بعض الفقهاء ذوي المنزلة بالخروج من ديارهم

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

ليسكنوها بعدهم ، واغتصاب ملابسهم وارتدائها ، والتهديد بالسلاح ، وعدم الارتداع أو السماع لمن يقول لكبيرهم إن النصاري واليهود يكرمون قسسهم ورهبانهم ، وانتم أولى بذلك لأنكم مسلمون . فيجيبونهم بقولهم : أنتم لستم بمسلمين لأنكم كنتم تتمنون تملّك النصارى لبلادكم ، وتقولون إنهم خير منا ونحن مسلمون ومجاهدون ، طردنا النصارى وأخرجناهم من البلاد ، فنحن أحق بالدور منكم [1] .

ولقد اضطر مشايخ الفقه والعلم إلى ترك الحضور إلى الأزهر ، وجرى عليه ما جرى على أغلب الأسواق والحوانيت من إغلاق أبوابها بسبب افتقاد الأمن . وهكذا تعطلت إقامة شعائر الدين على أيدي الجنود العثمانيين . ولا وجه لقياس ما أحدثه الفرنسيون من قبائح في الجامع الأزهر بما فعله هؤلاء العثمانيون . فالفرنسيون الذين اقتحموا بيت الله بخيولهم وعاثوا في ساحاته الطاهرة وأركانه فسادا لم يكونوا من أهل الإسلام . هذا فضلا عن أنهم أقصروا بعد ذلك عن عدوانهم وغيهم ، بل أحسنوا معاملة العلماء ، وسعوا إلى كسب ودهم بالتقرب والزلفى ليأمنوا استعداء هؤلاء القادة للشعب عليهم .

(١) تاريخ عجائب الاثار في التراجم والأخبار ، ج ٣ ، ص .

ويزيد من جرم محمد على وجنوده في حق العلماء المصريين أن هؤلاء هم الذين اختاروه واليا عليهم للتخلص من الوالى العثماني السابق خورشيد باشا ، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ولم يقف هذا الجرم عند امتهان العلماء والاعتداء عليهم ، بل تجاوزوا ذلك إلى بيوت الله . فكم هدموا من مساجد أَذن الله أَن ترفع ويذكر فيها اسمه . وبأَمر الطاغية محمد على عبر عسكره مسجد السيد الدسوقي ، وذبحوا من وجدوه به من المجاورين وفيهم طلبة علم وشيوخ عاجزون . وبلغ من إهدارهم ما أَمر الله به أَن يصان أَن أَكثر الحجاج الذين وصلوا من الحجاز إلى مصر قتلهم الجنود العثمانيون الذين بقوا بمكة بعد موت شريف باشا ومن انضم إليهم من أَجناسهم . وكانوا يفسدون ويقتلون داخل الحرم لأَن الشريف ضمهم إليه ، ورتب لهم الإقامة والنفقة ، واستمروا معه على هذه الحال البشعة (1).

جبناء في مواجهة العدو مستكبرون على الشعب الشجاع :

خطط الانجليز سياستهم الخارجية على أَساس غزو العالم الإسلامى بعد إجلاء العثمانيين عنه وضمه إلى مستعمراتهم ، وكانت مصر أَول البلاد التى تطلعوا إلى احتلالها بوصفها مفتاح

---

(1) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

طريقهم إلى الهند درة تلك المستعمرات ، وقد اشتد هذا التطلع بعد شق قناة السويس في عهد الخديوي سعيد باشا حفيد محمد على . وتحقيقا لهذا الهدف طلب الانجليز من السلطان العثماني ، بعد خروج الفرنسيين من مصر ، أَن يسمح لهم باحتلال السواحل المصرية فرض السلطان ، فقررت انجلترا الاستيلاء على الاسكندرية بالقوة ، وأَرسلت حملة بقيادة فريزر احتلت الاسكندرية دون مقاومة . فلننظر ماذا فعل محمد على وجنوده وماذا فعل أَبناء البلاد حيال هذه الغزوة الأَوربية الشرسة التى تعيد إلى الأَذهان ذكرى الحروب الصليبية .

لم يكد يشاع نبأ استيلاء الانجليز على الاسكندرية حتى دب الرعب في قلوب أَجناد محمد على ، وزلزلوا زلزلا شديدا ، وشرعوا يعدون العدة للفرار إلى الشام ، فبحثوا عن أَموالهم وأَخذوا في جمعها وابتياع أَدوات الارتحال . وفارق الكثير منهم نساءَهم مفرطين في أَعراضهم وباعوا أَمتعتهم . وعمدوا إلى اتهام كل من يقعون عليه بأَنه صنيعة للعدو ليحبسوه وينهبوا داره ويوقعوا به أَشد الغرم (١) . وحين بلغ النبأ محمد على وكان وقتئذ في الوجه القبلى يحارب المماليك انحلت عزائمه وأَرسل

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

يصالح الانجليز على ما يريدون . وعزم على العودة متلكئا في السير . ويظن أنهم على أهبة الوصول إلى مشارف المدينة ، فيسير شرقا على طريق الشام حتى يبرر غيبته عن البلاد والعدو يقرب منها [1] .

أما الشعب المصري فإنه حين نمى إليه أن الحملة البريطانية قد تقدمت بعد إخضاعها الاسكندرية لاحتلال رشيد ، استنفر أبناءه في رشيد للجهاد . فقاوموا الحملة مقاومة عنيفة ، وكانوا يطلقون على الانجليز النيران من النوافذ وأسطح المنازل ، فسقط منهم الكثيرون قتلى في الشوارع وأسر الباقون [2] . ونصر الله الشعب نصرا عزيزا .

بيد أن الانجليز ما لبثوا أن جردوا حملة بحرية أخرى للانتقام من المصريين ، فحاصروا المدينة وضربوها بمدافعهم وهدموا دورها وأبنيتها وقتلوا كثيرا من أهلها . واستغاث حاكمها بمحمد على وتوالت شكاياته المريرة من القعود عن نجدته والتقاعس عن إسعافه . فماذا كان رد الصدى لهذا الصوت المستجير ؟

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .
(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

لقد خرج الجنود الأَتراك زاعمين أَنهم سائرون لقتال العدو ، وأَمدهم الناس باحتياجاتهم ومؤنهم وذخيرتهم ، ونصبوا لهم بيرقا . ومروا من وسط المدن في عدة وافرة يوهمون أَنهم مسافرون على قدم الاستعجال بهمة ونشاط ، حتى إذا وصلوا إلى بولاق تفرقوا وقفل الكثير منهم على أَعقابهم عائدين . ورآهم الشعب في اليوم الثاني ثم اليوم الثالث . أَما من ارتحل منهم فقد ذهب فريق منهم إلى اقليم بالوجه البحري وفريق آخر إلى غيره ليجمعوا في طريقهم من أَهل البلاد والقرى ما تصل إليه قدرة عسفهم من المال والمغارم واغتصاب الماشية وخطف النساء والبنات والصبيان ، والفجر بالمحصنات وافتضاض الأَبكار واللوط بالغلمان ثم اخذهم وبيعهم فيما بينهم بالأَسواق.

ويعلق الجبرتي على هذه الوقائع بقوله في نبرة حزينة ساخرة : وهكذا يفعل المجاهدون ! ! . ويستطرد المؤرخ المصري الكبير قائلا : ولشدة قهر الخلائق منهم وقبح أَفعالهم تمنوا مجيء الافرنج من أَي جنس ، وزوال هؤلاء الطوائف الخاسرين الذين لا ملة ولا شريعة لهم ولا طريقة يسيرون عليها . فكانوا يصرخون بذلك على مسمع منهم ، فيزداد حنق الجنود العثمانيين وعداوتهم ، ويقولون ليس أَهل هذه البلاد بمسلمين لأَنهم

يكرهوننا ويحبون النصارى ، ويتوعدونهم إذا خلصت لهم البلاد ، ولا ينظرون لقبح ما يفعلون (١) .

ويتكرر هذان الموقفان المتناقضان : موقف الشعب المنتصر الذي يكافأ من قِبَل أجناد محمد على بنهب أرزاقه وقتل أبنائه ، وموقف هؤلاء الأجناد الذين ترتعد فرائصهم فَرَقا من الانجليز ، ويظلون في انتظار تصدي الشعب غير المسلح للعدو المدجج بأحدث الأسلحة والمعدات ، حتى إذا دارت الدائرة على الغزاة انضموا إلى مؤخرة القوات المصرية باحثين عن الغنائم وهم يرفعون أعلام النصر ، وبذلك يصدق منهم المثل العربي : جعجعة ولا أرى طحنا ، كما يصدق قول المتنبى :

يشمر لِلُّجّ عن ساقِهِ ويغمره الموج في الساحل ! !

وياليت هؤلاء الجنود العثمانيين يقفون عند هذا الحد ، بل انهم يغيرون على الدور الآمنة وأهلها الذين انتصروا على العدو ، فيوسعونهم تقتيلا بلا شفقة ولا رحمة ، ويغتصبون أملاكهم ونساءهم ، ويخرجونهم من ديارهم مشردين .

يتكرر هذان الموقفان المتناقضان : الموقف البطولى للشعب والموقف المهين للوالى العثماني وجنوده . ذلك أن الانجليز الغزاة

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ص .

بعد أن دمروا رشيد في حملتهم الثانية زحفوا إلى بلدة الحماد التى تقع جنوبي رشيد ، فتأَهب أهل البلاد لصدهم واجلائهم عنها فاشتروا الأَسلحة ، وتنادوا بالجهاد ، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأَعلاما . وجمعوا من بعضهم أَموالا أَنفقوها على من انضم إليهم من الفقراء المعسرين . ويالله الذي ينصر بحوله رجاله الصادقين ، فإن هذا التنافس من الأَغنياء والمحتاجين في سبيل الله ليذكرنا بجيش العسرة ، فما أَشبه الليلة بالبارحة .

لقد خرج المصريون في مواكب حتى إذا بلغوا متاريس الانجليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم ونظمهم . وصدقوا في الحملة عليهم ، وأَلقوا أَنفسهم في النيران غير مبالين ، واختلطوا بجنود العدو وأَدهشوهم بالتكبير والصياح (١) ، مما يذكرنا بصيحة المسلمين الأُوَل وصيحة قاهري سد برليف (الله أَكبر) متسابقين على شرف الاستشهاد دفاعا عن الدين والوطن . وسرعان ما أَخذت الصيحةُ الغزاةَ حين أُحيط بهم فدبت الفرقة في صفوفهم ، وبطل رميهم ونيرانهم ، فأَلقوا سلاحهم وطلبوا الأَمان . فلم تستجب لهم القوات المصرية

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

خشية غدرهم ، وقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت ، وولت القلة التى نجت من الموت هاربة تجر اذيال الهزيمة والعار هائمة في الصحراءِ الشاسعة ، مولية وجهها إلى الاسكندرية لتنضم إلى من بقى فيها من الانجليز ، وقد باءت بغضب من الله وخذلان .

ويعقب الجبرتي على هذه الواقعة بقوله : « وليت أهل البلاد شكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل بل نسب كل ذلك لمحمد علي وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاءَ بعد ذلك » . ذلك أنه بعد إجلاء الشعب الانجليز عن رشيد والحماد أغار الجنود الأتراك على الحماد وما جاورها واستباحوا أهلها ونساءها وأموالها وماشيتها ، زاعمين أنها صارت دار حرب بنزول الانجليز عنها وتملكها . ألا ساءَ ما يحكمون . ثم أحاطوا هم ورؤساؤهم برشيد ، وفرضوا على أهلها المغارم ،وطلبوا الأموال والتكاليف الشاقة ، وأخذوا ما وجدوه بها من الغلال حتى طلب منهم أهلها على لسان كبيرهم أن يخرجوا عنها بعيالهم وأولادهم ولا يأخذوا معهم شيئا (١) ، ناجين بأبواتهم تاركين بلدتهم للمغول والتتار الجدد يفعلون بها ما يشاءون .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ، ص .

وهكذا جوزي الشعب الشجاع جزاءَ سنمار ، على حين كافأ محمد علي هؤلاء الشراذم الرعاديد الباغين ، فأَنعم على المقربين منهم بالخلع ، فأَمعنوا في جبروتهم وعدوانهم .

ثم لا يكاد الانجليز ، بعد هزيمتهم في الحماد وانسحاب فلولهم مدحورة إلى الاسكندرية يجلون عن هذه المدينة في نفس العام حتى استغل محمد علي وأَعوانه هذا الحدث جريا على عادتهم في ابتزاز الأَهلين . فأَصدروا ما يسمى (أَوراق البشارة) في شأَن جلاءَ الانجليز عن البلاد ، وأَرسلوها إلى المدن والقرى وعليها رسم مفروض يسمى (حق الطريق) يلزم به كل وطنى . وأَفحش جنودهم في التعدي على الآمنين ، وأَخذ بيوتهم غصبا . فكانت الطائفة منهم يأْتون الدار الآهلة بسكانها فيدخلونها دون أَن يستأْنسوا أَو يستأْذنوا ، ويهجمون على سكن النساء بحجة إلقاء نظرة على أَعالى الدار . فتصرخ النساءَ ويحتشد أَهل الحى ويعرضون على الجند الجنوح إلى الحسنى في المعاملة . فإذا ارتضوا بالذهاب فلا يخرجون من الدار إلا بمال وهدية ذات قدر ، ويشترطون في ذلك أَغلى ما عند القوم . ويقارفون في مساوتهم أَعمالا تنبىء عن الخسة والجشع . فهم لا يقنعون بما صالحوا عليه أَهل الدار وكلما استجيب لهم قالوا : هل من مزيد . ولا ينصرفون قبل ذلك فإذا انصرفوا وظن صاحب

الدار أَنهم انجلوا عنها لم يلبثوا إلا يوما أَو يومين ثم يفاجأَ بهم عائدين يطالبون مرة أَخرى كأَنهم بعض الشياطين .

وقد يطلبون استضافتهم في الدار وإفساح مكان لنومهم ولهوهم ، زاعمين أَنهم على عهد بالسفر بعد أَيام فلا بأَس على صاحب الدار من مكثهم فإِنه موقوت ، ونظرة إِلى ميسرة . فيذعن الرجل على تخوف وكره . فينزلون بخيلهم ورجلهم وأَسلحتهم ويأَبون عليه أَن يخلى الحجرات التى خصصها لهم من أَمتعته فيتركها لهم حياءً وقهرا . ويطالبونه بالطعام والشراب ثم يأَتيهم رفقاؤهم شيئا فشيئا حاملين أَسلحتهم حتى يضيق عليهم المكان . فيأَمرونه بإِخلاءِ مزيد من الغرف لهم على حين لم يبق سوى غرف النساء . فإِن تراخى عاجلوه بالقسوة والعنف. وتستمر إِقامتهم طويلا حتى يستظهر الرجل أَنهم غير مفارقين ، فيقول لنفسه بلسان حافظ إِبراهيم في الانجليز الذين جثموا على ملى صدر مصر سبعين عاما أَصدروا فيها مئات الوعود بالجلاءَ :

وأَكبر ظنى أَن يوم جلائهم
ويوم نشور الخلق مجتمعان

وهم في حلهم الذميم يمضون أَيامهم ولياليهم في ارتكاب الموبقات ، فيضجون ويعربدون متصايحين ويملأُون الدار اقذارا

فيضيق صدر الرجل وأَهله ، وهؤلاءَ الأَشرار لا يختارون للمقام إلا دور كرام الناس وكبار القوم ، فيضطر أَولئك إلى مفارقة مساكنهم كارهين طالبين لأَنفسهم مأَوى عند ذوي القربى .

وتغادر النساء بيوتهن في غفلة . فإذا شرع رجالهن في إخراج المتاع قال لهم الجنود العثمانيون في صفاقة وتكبر : إنا جئنا داركم بغير متاع . فما كان في حوزتنا قد استهلك في السفر والجهاد ودفع الكفار عنكم ، وأَنتم مطمئنون آمنون في بيوتكم وبين نسائكم . وينتهى الأَمر بينهم وبين صاحب الدار على أَن يتركها بما فيها ، أَو يقاسمهم إياها ، أَو بالمصالحة على يد الوسطاءَ والشفعاءَ (١) .

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

المبحث الثاني

شخصية محمد على صنيعة العثمانيين

تلك هى ملامح شخصية الجندي العثماني تشف عنها أفعال الأَتراك بمصر . وليس محمد على إلا النموذج الذي تتمثل فيه هذه الملامح بقوة . فقد كان من رؤساء الجنود في الحامية العثمانية بعد خروج الفرنسيين من مصر ، ثم تقلد السلطة في أَعقابهم بعد أَن خدع أَهلها بدهائه ، وجعلهم غافلين عما جناه هو وتابعوه ، إذ كان متلونا كالحرباء ، فتوسموا أَنه خير من خورشيد باشا الذي سبقه في الحكم ، غير مدركين أَنهما من معدن واحد ، وأَن كل إناء بالذي فيه ينضح . وأَسلم إليه زعماؤهم برئاسة السيد عمر مكرم أَمرهم بعد أَن تعهد بمعاملة الأَهلين بالحسنى ، واجتناب فرض الضرائب إلا بموافقتهم .

وما لبث المصريون أَن أَدركوا حقيقة محمد على بعد أَن خلع عنه القناع وأَسفر عن جبلته ، فوضح الخفاء حين سار على منوال من سلف من الولاة العثمانيين . فمن الإكراه في فرض الضرائب الباهظة وجمعها ، إلى السكون ــ وهو الراعى المسئول

عن رعيته - عن نهب جنوده للمتاجر وسلبهم للمنازل وانتهاكهم للحرمات وقتلهم للآمنين . بل أَن محمد على كان يصدر الأَوامر بذلك لتحقيق مآربه بأَيدي صنائعه ومخالبه من جلادي الشعب وكلاب حراسه الحكم العثماني في مصر .

ومن ثم كانت نفسه تنطوي على الختل والقسوة ، كما كانت تطفح بالضغينة والجشع ، وتنزع إلى الاستبداد والتسلط. وقد بلغ الغاية من هذه الدنايا التى لا يوسم بها إلا الكافرون الذين باءوا بغضب من الله وخسران مبين . فما أَن أَوتي ملك مصر بأَيدي أَهلها حتى رفض أَن يشارك زعماءهم في حكم البلاد ، ولم يعترف بفضلهم في توليته الحكم ، وفي تزويده بالمال ، وصدهم الحملة الانجليزية . بل استبد بهم وفرض عليهم القهر والاستعباد ، وشرع في فرض الضرائب ناقضا في ذلك عهده لهم . وعندما طلب منه السيد عمر مكرم أَن يخفف الضرائب رفض محمد على ، وأَمر بنفيه إلى دمياط ، وانفرد هو بحكم البلاد .

لقد نظر إلى مصر كأَنها غنيمة باردة وقعت بين يديه أَو ثمرة ناضجة حان قطافها وإنه لصاحبها ، وأَدارها كبقرة حلوب لولا أَن مالك الماشية يعنى بها ليزيد دَرّها . أَما محمد على فقد

كان على النقيض من ذلك مغترا بأَن البقرة لن تستطيع الإقلاع عن عطائها ، لأَنها لن تموت جوعا أَو عطشا أَو لفرط إهمالها . فالضرع نهر النيل الذي لا يغيض ، وهو ربه الأَعلى . وصدق المتنبى إذ يقول في كافور ، ذلك الثعلب الذي وثب إلى حكم مصر في غفلة من الزمن وأَهله ، وتجسد بعد مئات السنين في شخص جندي أَلباني اسمه محمد على :

نامت نواطير مصر عن تعالبها

وقد بشمن وما تفنى العناقيد

وقد بلغ من ولع محمد على بالمال وإسرافه في جمعه بشتى الطرق غير المشروعة والأَساليب الوحشية التى لا يرتكبها إلاقطاع الطرق ـ ولا عجب فقد كان يفرض ضريبة تسمى« حق الطريق » أَنه لم يكد يلى الحكم حتى قضى بتغريم أَهل رشيد مبلغا تقصر عنه طاقتهم ، ولم تفلح شفاعة المشايخ والسيد عمر مكرم نقيب المصريين لديه في التجاوز عن هذه الغرامة (١) .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ وصلت قافلة الحجيج إلى مصر فأَراد محمد على باشا نهبها ، فصالحه التجار على أَحمالهم بمبلغ كبير . ولم يترك مُواسِرا أَو كبيرا في قومه من المسلمين أَو الذميين إلا

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

اقتضاه مالا بغير حق . وكان يتجر بالمناصب فيوزعها بحسب ما يرسو عليه مزادها . فانتشرت على عهده الوساطات والرُّشَى . وقد عزل أَمير الحج التركى وحبسه هو وغيره لامتناعهم قهرا عن دفع ما فرضه عليهم من جُعْل (١) .

فكان يأَمر بنشر قوائم الأَموال المفروضة على المدن والقرى التى كانت في التزام المحتسب المعزول بعد أَن يحبسه ، وعرض هذه القوائم في المزاد فيشتريها القادرون والراغبون ، ويُكرة أَهل البلاد على سداد تلك الأَموال وأَكثر منها . وهكذا كان محمد على يبيع الأَرض والإِنسان الذي يسقيها بعرقه ، ويستأَدي الضرائب الكثيرة المتعددة الأَنواع حتى لا يُبقى للناس شيئا (٢)

وقد أَسفرت هذه الأَفعال التى قارفها محمد على أَو ارتكبها جنده بأَمره إلى حالة من القحط والكساد قبيل أَن يلى الحكم ، وكان من رؤساء هؤلاء الجنود ، وبعد أَن تقلد الولاية ، وكاد يموت الناس جوعاً . وامتنع السُّقاة عن نقل الماء حتى شح الماء وغلا سعره ، وكاد الناس يهلكون من فرط الظمأ ، فضلا عما ابتلوا به من خوف ومن نقص في الثمرات وضائقة اقتصادية

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

أَشرفت بهم على المجاعة ، على حين وصل كل صعلوك من العثمانيين لما لم يدر قط بخلده أَو يتوهمه في الحلم ، على الرغم من سوء طبعه وجهله وعمى بصيرته وفظاظته [1] وامتناع خشيته من الله وحيائه من الناس وانعدام مروءَته . فكان له كل الغنم من أَموال وأَراض ودور منيفه ورياش ونساء وحشم ، مما جعل الجبرتي يقول :

أَمور تضحك السفهاءُ منها   ويبكى من عواقبها اللبيب

ولا غرو – وتلك هى النعم التى يرفل فيها أَجناد بنى عثمان الأَتراك – أَن يختص كبيرهم محمد على نفسه بأَجود الأَراضى التى اغتصبها من أَرضهم ، ويبتنى القصور بسواعد أَبناء الصنائع الذين يسخرهم لمطامعه .

أَما ما جناه محمد على وأَجناده من تخريب وإِفساد في المدن والقرى ، فإِن القلم يكل كما يقول الجبرتي – عن تسطير بعضه ، ويستحى الإِنسان من ذكره ، ولا يمكن حصره . وحسبنا أَن نعلم مما تقدم أَنهم كانوا يستعبدون الناس الذين ولدتهم أَمهاتهم أَحرارا ويقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق.

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص   .

وكانوا يدمرون القرى في ذهابهم لمحاربة أَمراء المماليك وفي إيابهم من مقاتلتهم . ومن فرط ما خربت الديار وأَصاب الضُرّ والفقر ساكنيها باتت مقفرة فغادرها أَهلها مكرهين . فكان يجتمع أَهل عدة من القرى في قرية واحدة بعيدة ، وما يلبث أَن يلحق بهم فيها محمد على وشيعته فيخربونها تخريبا . وقد أَصاب المدن الساحلية ما أَصاب القرى ، فهرب أَهلها بعد أَن ضربها هؤلاء المفسدون وهدموا دورها وجعلوا أَخشابها وقودا [١] للنار التى بها يصطلون .

ولقد خلف لنا معاصرو محمد على صورا دقيقة عن خلقه ومسلكه كما دلت عليهما أَفعاله وشهدت بهما علاقاته مع مختلف الأَفراد والجماعات ، من رؤساء وأَعوان من جنسه أَو غير جنسه ، ومن أَعداء وأَصدقاء ، فقد كان ربيئة للشر والغدر ووعاء للكذب والنفاق . وكان ميت الضمير دنيئا نهازا للفرص يسلك أَحقر الأَساليب في كافة ما يصدر عنه من قول أَو فعل بغية الوصول إلى غرضه . فالغاية عنده تبرر الواسطة . وكأَنه استوعب ذلك الدرس الشيطاني الذي أَوصى به ماكيافيلى Machiavelli في القرن السادس عشر أَميره الايطالى ليدحر عدوه ويوطد أَركان حكمه ويوسع ملكه ، إذ نصحه أَلا يقف ضميره

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

عقبة أمام عمل مهما بلغ من القسوة في سبيل تحقيق هدفه ، فيتبع وسائل البطش والخديعة والمغالطة ، وينتهك حرمة المعاهدات والمواثيق ، ويسلك درب الغش والتقلب والدسائس إلى حد القتل السياسى . فالقوة فى اعتباره هى السلطان الحق ، وكل خطة تتبع للوصول إلى الغاية السياسية لعبة صالحة . ولان يكون مرهوب الجانب خير من أن يكون محبوبا . وإن الساسة ينقسمون إلى أسود وثعالب ، وعلي الامير أن يجمع بين صفاتهما ويقول فى ذلك « إن الناس لئام بطبعهم ، ولا يعدم الامير باي حال من الاحوال ان يلتمس الاسباب والذرائع التى يحتمى بها لتبرير فعالة وكسب الذين يدينون له » وفى وسع الامير أن يلقى بتصريحات تتضمن عبارات الرحمة والتدين والحق وأن يعمل بنقيضها لمصلحته . « وإذا توقفت حياة الدوله على اتخاذ قرار معين ، فلا يجب بحال أن يقام أي وزن للصواب والخطأ والشفقه والقسوة والشهرة والعار [١] .

ومن البَيّن أن استعراض سياسة محمد على وأسلوبه في الحكم يؤكد أنه نموذج للحاكم الذي خلع عليه (ماكيا فيلى) صفة مكر الثعلب وخبثه وبطش الحيوان الجائع . وقد أضاف

---

(١) د . أحمد سويلم العمرى ، أصول العلاقات السياسية الدولية ، ص .

محمد علی إلى ذلك شدة كراهيته للشعب وحرمانه من استياف نسيم الحرية . ويزيد من قبح سياسة ذلك الوالى العثماني الأَثيم أَنه انتهج تلك السياسة في عصر التنوير . فشتان بين ظلمات القرن العاشر الهجري الذي عاش فيه ماكيافيلى وأَميره الفلورانسى حيث أُهدرت المبادىء الإنسانية ونُبذت القوانين الدولية ولجأَ كل سياسى أَو حاكم إلى كافة الوسائل مهما كانت ظالمة ووضعية لتحقيق مآربه ، وبين مطالع القرن الماضى حيث بدأَت الدعوة في قلب أَوربا المسيحية إلى تحكيم هذه المباديء وتلك القوانين في حل المنازعات وتصفية الخلافات بين الدول ، وإلى نبذ نظرية الحق الإلهى القائلة بأَن الملك ظل الله في الأَرض ، وأَن له مطلق الحرية في التصرف في رقاب العباد وديارهم ، وإلى استبدال النظم الدستورية بنظم الحكم الأَوتوقراطى القائمة على تلك النظرية .

وليس أَدل على تهافت محمد على باشا على انتزاع السلطة بالعسر أَو الخديعة لينال بها كل ما تشتهيه نفسه الامارة بالسوء بلا تفريق بين الحلال والحرام ، من قوله بعد أَن بلغه نبأَ موت خصمه اللدود الأَمير المملوكى الأَلفى بك : « الآن ملكت مصر »[1] . وقوله حين استيقن من مصرع المترجم وكان من

(١) تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ج ٣ ، ص .

أمراء المماليك أيضا ، وكان مشهودا له بقوة البأس والشكيمة ، وقد أعيا محمد على فيما جرى بينهما من وقائع : « الآن ملكت مصر وما عدت أحسب لغيره حسابا »[1] .

ويشف قوله هذا عن خبيئته وما اتصف به من جشع وحقد وضغينة ، فكأنه يرسم به صورة لنفسه فتغنينا عن شاهد من الآخرين ولو كان من أهله . ولئن كانت كلماته تقدم لنا صورته تلميحا فإن كلمات المترجم الأمير المملوكى الآنف الذكر في تحذيره لأتباعه من كيد محمد على يقدم لنا صورة الطاغية تصريحا ، وهى كلمات غير متهمة برغم العداوة بين المترجم ومحمد على لأنها تصف طباعا دلت عليها وقائع تاريخية لا مراءَ فيها : « لا تغتروا بملاطفة الوزير لكم – يعنى محمد على – فإنما هى حيل ومكايد وكأنها تنطلى عليكم . فإن هؤلا العثمانيين منذ سنين عديدة وأزمان مديدة يتربصون بكم الدوائر ، ويتمنون نفوذ أحكامهم وتملكهم لهذا الإقليم . وقد مضت الاعوام وأمراءَ مصر قاهرون لهم وغالبون عليهم ، ليس لهم معهم إلا مجرد الطاعة الظاهرة وخصوصا في عهد دولتنا

(١) المصدر السابق . ج ٣ . ص .

الأَخيرة . وكانت أَفعالنا معهم تقوم على الإِهانة ومنع الخزينة وعدم الامتثال لأَوامرهم . وكل ذلك مكنون في نفوسهم ، زيادة على ما جبلوا عليه من الطمع والخيانة والشره . وقد ولجوا البلاد الآن وملكوها على هذه الصورة ، وتآمروا علينا ، فلا يهون عليهم أَن يتركوها لنا كما كانت بأَيدينا ويرجعوا إلى بلادهم بعد أَن ذاقوا حلاواتها » .

وقول المترجم أَيضا في وصف محمد على بصفة خاصة والعثمانيين بصفة عامة ، وهو ينظر من معسكره في الجبل إلى أَرض مصر بينما يجود بأَنفاسه الأَخيرة ، ليكون قوله هذا وصية يعمل بها رجاله من بعده : « يا مصر انظري إلى بنيك يقصد أَمراءَ المماليك - وهم حولك مشتتون متباعدون مشردون . وقد استوطنك أَجلاف الأَتراك واليهود وأَراذل الأَرنؤود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أَولادك ، ويقاتلون أَبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » .

ويصور إبراهيم بك من أَمراءَ المماليك كيف كان محمد على يخدع المماليك فيظهر لهم الود ويضمر لهم البغضاءَ ، فيقول :

« انه فعل مع شاهين بك مالا تفعله الملوك فضلا عن الوزراء وليس ذلك لسابق معروف فعله هذا الأمير معه ليستحق به ذلك . بل هو لغرض يخفيه في نفسه وشبكة يصطاد بها غيره . فإننا سبرنا أحواله وخيانته ، وشاهدنا ذلك في كثير ممن خدموه ونصحوا معه حتى ملكوه هذه المملكة وأولهم مخدومه محمد باشا خسرو » . ويستطرد إبراهيم بك قائلا بعد أن عدّد وقائع الخيانة التى ارتكبها محمد على وذكر بعض ضحاياه من الولاة والأمراء الذين أظهر لهم خلوص الصداقة والأخوة وعاهدهم بالأيمان حتى خدعهم ، ثم أغرى بعضهم ببعض فقتل من قتل وولى من ولى ، فاستقر له الأمر وشفى صدره الحقود .

ويستطرد إبراهيم بك قائلا : « لقد أوقع محمد على بالسيد عمر مكرم ما أوقع وأخرجه من مصر وغربه عن وطنه ، ونقض العهود والمواثيق التى كانت بينه وبينه كما فعل بعمر بك وغيره. وكل ذلك معلوم ومشاهد لكم ولغيركم. فمن يأمن لهذا ما يعقد معه صلحا . إنه ما كناه إيراد الأقليم وما أحدثه من الجمارك والمكوس وما قرره على القرى والبلدان من فرض المال والغلال والجمال والخيول ، والتعدي على الملتزمين ومقاسمتهم في فائظهم ومعاشهم ، وذلك خلاف مصادرات الناس والتجار في

مصر وقراها والدعاوي والشكاوي والتزايد في الجمارك وماأحدثه من سك النقود واستغراقها أموال الناس بحيث صار إيراد كل قلم من أقلام المكوس بإيراد إقليم من الأقاليم ، وهو يبخل علينا بما نتعيش به ، وقصده صيدنا وهلا كنا عن آخرنا » [1]

وشهد شاهد من أهل محمد على كان ربيب نعمته ويدعى (ديوان أفندي) ، فقال حين أوفده محمد على ممثلا له لدى مشايخ الأزهر ومن أحاط بهم من المواطنين الذين أثقلت كاهلهم الضرائب : « ينبغي ذهابكم إليه وخطابه مشافهة بما تريدون وهو لا يرد شفاعتكم . وإنما القصد أن تلاطفوه في الخطاب لأنه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم ولا يقبل رأيا لغيره . وربما حمله غروره على الإضرار بكم وعدم إنفاذ غرضكم » . فقالوا بلسان واحد : « لا نذهب إليه أبدا ما دام يفعل هذه الفعال ، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا من قبل . فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور » [2] .

على أن تصوير الجبرتي ، ذلك العلامة المؤرخ الثقة ،

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص .

لشخصية محمد على يقوم شاهد صدق عليه مما يستوجب ذكره في هذا السياق إذ يقول : « إنّ ما جرى بمصر من الوقائع بتقدير الله تعالى ، البارز بتدبير محمد على ونفاقه وحيله . فإنه سعى أَولا في نقض دولة مخدومه محمد باشا خسرو بتواطئه مع طاهر باشا وخازندار ومحمد باشا المحافظ للقلعة . ثم الاغراء على طاهر باشا حتى قتل . ثم معاونته للامراء المصريين – يعنى المماليك – ودخولهم وتملكهم وإظهار المساعدة الكلية لهم ومصادقتهم وخدمتهم ومعاونتهم وتدبيره ضدهم في غفلتهم لحقده عليهم وغيرته منهم حتى قضى منهم أَغراضه . فأَوقع بهم بين قتيل وأَسير ونسب جميع قبائحه اليهم » .

ويقول عنه في موضع آخر إنه اعتدى على « مساتير الناس وأَغلق البيوت المفتوحة لأَن في طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع لما في أَيدي الناس وأَرزاقهم (١) » . فليس له من هم سوى صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب ، وقطع أَرزاق المسترزقين ، والحجر والاحتكار لجميع الأَسباب . ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراءاته ومقاصده ، ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له مطلقا ، ومن

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص .

تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع حقد عليه ، وربما أقصاه وعاداه معاداة من لا يصفو أبدا . وعرفت طباعه وأخلاقه في دائرته وبطانته فلم يمكنهم إلا الموافقة والمساعدة في مشروعاته إما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، وإما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة » [1] .

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص

فصل

حملات محمد على في الجزيرة العربية ونضال الدرعية

المبحث الأول

حقد العثمانيين على السلفيين دعوة ودولة

كانت الدولة العثمانية عند ظهور دعوة السلفيين الموحدين تسيطر على العراق وعلى الشام ومصر والحجاز واليمن ، أي أنها كانت تبسط سلطانها على المنطقة العربية كلها باستثناء المغرب الأقصى وعمان (مسقط) ، فقد عصمت هذه الأقطار على الترك وأبت الدخول في طاعتهم . وكان كل شيخ أو أمير في نجد مستقلا استقلالا تاما في إدارة بلاده .

واستهانت الحكومة بالدعوة في أول بزوغها ، ولم تلق إليها بالا بحسبانها حركة داخلية تدور في نطاق محدود ولا تكاد تختلف في شيء عن المنازعات التى تتكرر بين القبائل بدون انقطاع . وكما تبدل نظر حكام الحجاز إليها عند بلوغها حدود

نجد الشرقية فقد تبدل نظر حكام الترك فى العراق إليها عند بلوغها حدود العراق الجنوبية [1] . وكأنما كانت سرعة انتشار الدعوة سيفا شعر به العثمانيون مسلطا على رقابهم ، ونذيرا يستقبل غارب يتراءى لهم ، ولا سيما أنهم غرباء دخلاء في البلاد العربية ، وأن تلك البلاد لم تكن لتخضع لهم لولا أنهم كانوا ينتسبون إلى الإسلام ، ويرفعون شعاره ، ويعدون رمزا له في مواجهة العالم المسيحى ذي المطامع القديمة الجديدة في ديار الإسلام . فإذا آنس أهل هذه البلاد أن ثمة دولة إسلامية أخرى تدعو إلى الله وتنتقل من نصر إلى نصر انصرفوا عن الترك إليها ، وقد هان هؤلاء في عيونهم وثاروا على استضعافهم لهم وتنكيلهم بهم . فلا مناص في نظرهم من صد هذه الموجة العارمة ومحاصرة ذلك السيل الكاسح .

ومن ثم لم يكن الباب العالى ليشهد اتساع حدود الدولة الإسلامية التى أسسها الإمام محمد بن سعود وبنيت أركانها على الدعوة السلفية وتعاظم مكانتها دون أن يحرك ساكنا . فقد عدها خطرا داهما يتهدد ملكه ويتحيف أطرافه وهو الذي تمثلت فيه طبيعتان : الاستعلاء في الأرض ، والتماس كل سبيل حلال أو حرام للكسب والثراء إشباعا لغريزة النهم وعبادة المال

---

(١) أمين سعيد ، سيرة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٧٩ .

من دون الله . فلا غرو أن ينقم على الدولة العربية الإسلامية وجنودها دخول الناس في دعوتها أفواجا . وصدق الحق سبحانه إذ يقول : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . ولا جرم أن يعد السلطان العثماني رجال هذه الدولة الجديدة معتدين على سلطته الدينية ، إذ كان يدعى أنه خليفة المسلمين غير مدرك أن سلطته هذه ما أنزل الله بها من سلطان . بل كان يعمل بنظرية الطغاة في العصور القديمة ومؤداها أن الملك ظل الله في الأرض . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

لقد كانت دولة العثمانيين ودولة محمد بن سعود نقيضين فلم يكن ثمة مفر من الصراع . فالآستانة عاصمة دولة قامت على القوة الحربية الغاشمة وتوسعت بالنهب والقتل وقهر المسلمين والخروج على الدين . والدرعية حاضرة دولة أحيت عقيدة التوحيد وكان شعارها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وقامت دعوتها على الإقناع من طريق عقد مجالس للمناظرة والمناقشة ، وما خاضت حروبا إلا في سبيل الدين الحق ودفاعا عن النفس . كان التناقض بين الدولتين انعكاسا للتناقض بين التوحيد والشرك ، بين الحق والباطل ، بين العدل والبغى ، بين المعروف والمنكر ، بين النور والظلام .

وبيّت السلطان العثماني النية على العدوان ، وبات يتربص الدوائر بدولة محمد بن سعود يريد أَن ينقض عليها بعد أَن أَعمى بصيرته الحقد لما أَصاب نفوذه من زلزالها ، ولانحسار الأَقاليم العربية التى كانت في حوزته وانضمامها إليها ، وطفق يتحين الفرص للانقضاض . ولم يكن العثمانيون يعيرون الجزيرة العربية اهتماما ذا شأَن من قبل ، إذ لم تكن من أَقاليم الدولة الغنية ولم يكن موقعها مما يفيد العثمانيين . ولكن السلطان حين رأَى أَن سيادة الدولة السعودية على بلاد العرب أَصبحت حقيقة واقعة ، وأَن السيطرة العثمانية أَوشكت على الزوال ، وأَن الدعوة السلفية تنتشر في العالم الإسلامى بأَسره ، كاد أَن يموت بغيظه واستمات في الاحتفاظ بتلك البلاد واسترداد ما اقتطع منها (١) . وقد أَوغر صدره تتابع هزائم ولاته العثمانيين في العراق والأَحساء وفي الحجاز والشام على يد رجال الدعوة السلفية ، وفشلت جهوده في القضاء على فتوحاتهم في أَقاليم دولته . كما ضاعف من حقده أَن أَصحاب المبادىء السلفية قد أَعلنوها صراحة أَن سبب هزائم العثمانيين أَمام دول أَوربا في الحروب التى شبت بين الجانبين هو تهاون الدولة

(١) د . على إبراهيم حسن ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، مكتبة مصر بالقاهرة ، ص ٣٤ .

العثمانية في أَمر الدين ، ونظروا إلى تلك الحروب بوصفها صراعا بين المسيحية والإسلامية ، فاشتدوا في دعوتهم إلى ضرورة العودة إلى العمل بأَصول الإسلام وقواعده لأَنه بغير المنابع لا تكون الأَنهار .

مبحث

استخدام الباب العالي محمد على مخلبا لقمع الدعوة

انتهز الباب العالى فرصة القضاء على الحملة الفرنسية في مصر بعد استسلامها للعثمانيين والانجليز بموجب اتفاق عقد في القاهرة سنة ١٢٢٦ ، ليضرب ضربته في معقل الدعوة بعد أن عاد إلى حكم مصر وزال كل خطر خارجى يقض مضجعه . ورأى أنه مطلق اليد في مقاومة دولة سعود السلفية ، متفرغ لها ، قادر على الخلاص منها بعد أن وضعت يدها على الحجاز وعلى ضفة الخليج الغربية ، ووصلت إلى شاطيء المحيط الهندي جنوبا وإلى البصرة والعراق شمالا وإلى مشارف الشام شمالا ، وصارت لها دولة كبري فى قلب بلاد العرب يحسب حسابها [(١)] .

بيد أنه لم يخف على السلطان أن قوته الحربية وموارده المالية لا تساعدانه على شن حرب على الدعوة في الجزيرة العربية ولا سيما بعد سيادتها في العراق والشام والحجاز [(٢)] ، فعزم

---

(١) أمين سعيد ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٢) د . على إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

على الاستعانة في هذه الحرب بأَشد ولاته ضراوة وأَكثرهم تمثيلا لطبائع العثمانيين وهو محمد على الذي عينته الآستانة سنة ١٢١٨ (١٨٠٦ م) واليا لمصر . فأَصدر إليه السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأَول أَمرا بمحاربة الإمام سعود وإخراجه من الحجاز . ولم يكن في وسع محمد على أَن يرفض أَوامر السلطان باعتباره أَحد ولاته . غير أَنه خشى إن هو أَرسل جيشه إلى بلاد العرب أَن ينتهز أَعداؤه المماليك خلو مصر من أَقوي عناصر القوة فينقلبوا عليه فصالحهم وعادوا إلى القاهرة ، على حين كان يدبر لهم بليل للتخلص منهم حتى لا تقوم لهم قائمة في المستقبل فيخلوا له وجه مصر هو وسلالته من بعده .

لذلك تردد محمد على صنيعة العثمانيين وطاول في تنفيذ الأَمر ريثما يجهز على المماليك ، ولكنه اضطر أَخيرا إلى الاستجابة والخضوع إذ كان السلطان في عجلة من أَمره . وتفتق ذهنه عن خطة شيطانية يستطيع بها أَن يحقق الأَمرين المتعارضين في آن واحد ، وهما إعداد قوات الغزو وتصفية أَعداءة في الداخل .

(٢) عرس الدم بين يدي حملات محمد على .

ولقد عجل المماليك بنهايتهم بما أقدموا عليه من فعل ، وأَوحوا إلى محمد على ، وهم لا يشعرون ، بخطة استئصال شأْفتهم . فبينما كان محمد على بالسويس يشرف على تجهيز الحملة على الحجاز شرع المماليك في تدبير مؤامرة لاغتياله بالانقضاض عليه بالصحراء في أَثناء عودته من السويس إلى القاهرة . وقد كشف أَمرهم « لاظ أَوغلى » الذي كان قائما مقامه بالقاهرة ، فسارع إلى إبلاغ الباشا ، فعاد مسرعا في غير موعده وتحت جنح الليل ، وبذلك فشلت المؤامرة .

وحينئذ شرع محمد على في التدبير للفتك بالمماليك ، فهيأَ حفلة بمناسبة سفر الحملة على الجزيرة العربية ، دعا إليها أَمراءَهم ورؤساءَهم وفرسانهم فحضروا بالقلعة وكان عددهم يربو على خمسمائة . وعند خروجهم مشتركين في الموكب أَغلقت أَبواب القلعة بحيث حوصروا في مكان ضيق وانهال عليهم الجند ذبحا وتقتيلا حتى أَبادوهم جميعا [١] لم ينج منهم إلا فارسان لم يفلحا بعدها .

---

(١) الجبرتى

وهكذا أقام السفاح الألباني بين يدي حملته عرسا همجيا « ودشنها » بالدم قبل أن تسير باسم الشيطان ، وكأنما أراد أن يجعل من هذا الدم المسفوح شعارا لها تعمل به في بلاد الدعوة فلا تأخذها شفقة ولا رحمة . وعلى روابي نجد ، وفي الدرعية معقل الدعوة وعاصمة دولتها ، دارت بين ورثة البرابرة السفاحين من جنود محمد على العثمانيين وبين دعاة التوحيد معارك ضارية سجلتها صفحات سوداء تنضج بالعار في تاريخ العثمانيين ، وصفحات غراء تنضح بالمجد والبطولة في جبين أنصار الدعوة .

مبحث

حملات محمد على الوالي العثماني على الحجاز

جهز محمد على ربيب الباب العالى حملته الحربية على الجزيرة العربية ، مهبط رسالة النور والرحمة ، بمدفعية قوية كانت الجزيرة خالية منها كما ذكرنا آنفا . وزودها بوافر من المال واصطنع كل ما خطر بباله من وسائل الشر وأَساليب القمع لسحق أَنصار الدعوة وتدمير ديارهم تدميرا ، وله من السوابق في مصر ـ على ما فصلناه من قبل ـ ما يشهد له بطول الباع في الاستهانة بشريعة الله للناس في الأَرض ، وإهدار القيم الأَخلاقية ، وانتهاك المثل العليا التى يدين بها الإنسان الصالح ، والعيث في الأَرض فسادا .

وقد أَلهب طبيعته العدوانية أَن حملته على الدعوة تمثل بالنسبة لسيده في الآستانة معركة حياة أَو موت . وهو لم يكن يرغب في خدمة هذا السيد اعترافا بنعمته عليه أَو تقديرا لظنه في قدرته على التنكيل بأَعدائه ، بل كان يؤمل من وراء ذلك في زيادة نفوذه وبسط سلطانه في العالم الإسلامى والاستيلاء على

الأَراضى المقدسة مما يحقق ما أَضمره في نفسه من نية الغدر بمخدومه بالانفراد بالحكم والاستقلال عنه . فلم يكن ثمة نهاية لتطلعات هذا الجندي الاجنبى الذي ابتلى به وبعصبته وبسلطانه الوطن العربي .

وإن متابعة أَفعال محمد على ورصد سلوكه منذ كان رئيسا للجند العثمانيين في مصر حتى أَصبح واليا لها ليدلان فيما نري على هذا المخطط السياسى . فلا ريب في أَنه وجد أَن الدعوة بعد انتشارها قد غدت خطرا على أَهدافه . فما لبث أَن أَقلع عن تردده في الانصياع للباب العالى ، واندفع في غزو الجزيرة العربية ، لا درءًا عن خطر يحيق بولى نعمته ، وإنما عن خطر يتهدد أَطماعه التى لم تكن تقف عند حد ولم يكن يقف في سبيله إليها دين أَو مبدأ يجعله يرعوي عن غيه ويترك أَمرالناس شورى بيهم ، فمن شاءَ أَن يتبع الدعوة فليفعل ، ومن شاءَ أَن يبقى على ولائه للعثمانيين فهو حر .

ولسوف نتبين مصداق رأْينا هذا ، وهو أَن محمد على كان يعمل في الحقيقة لحسابه وفي الظاهر لحساب السلطان ، في المسار الذي اتخذه في تطور حملاته المتتابعة على بلاد العرب وما آل إليه أَمرها – إلى حين – ، من تحكمه دون الباب العالى فيها وتمليك

أَولاده عليها ، فلو أَنه كان صوت سيده الصادق لترك له الأَمر بعد أَن أَنفذ المهمة التى عهدها إليه ، وبئس التابع والمتبوع .

وهكذا أَشرع محمد على سيفه تحت راية السلطان ، وأَراد أَن يغمده في قلب الدعوة الخالصة باسم الخلافة العثمانية صاحبة البلاد وحامية الحرمين يموه به على السذج والجهال ، والخلافة الإِسلامية الحقة براءَ من خلافة الترك وورثة الروم براءَة الذئب من دم ابن يعقوب . وحارب الباب العالى دولة العرب التى أَرادت أَن تستعيد مجد الدولة الإِسلامية الأَولى فأَحيت شعائر الدين الصحيحة ، حاربها بسيف محمد على الملطخ بدم الآلاف من المسلمين في مصر لقاء متاع الدنيا القليل ، غافلا عن قوله تعالى . « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وتدل وقائع الحروب التى أَضرمها محمد على في الجزيرة العربية على أَن الهدف الأَساسى الذي سعى إليه السلطان وتابعه كان غزو الحجاز ونجد المشمولتين بولاية السلفيين من قبل آل سعود ، والوصول إلى الدرعية لسحقها ، إذ كانت الدرعية موطن محمد بن سعود الذي احتضن الدعوة السلفية ، وعاصمة الدولة التى أَسسها . وكانت من ثم مركز اشعاع على العالم الإِسلامى كله ومنارة للعلم والدين منذ راح الشيخ محمد

ابن عبد الوهاب ينظم حلقات الدرس في مسجدها الجامع وفي منزله في حى البجيري ، فكثر تلاميذه ومريدوه من أَبناء الدرعية والقري المجاورة وحتى من المناطق الأَخرى البعيدة . وبذلك غدت الدرعية أَول مركز ثقافي إسلامى ، لا في نجد وحدها بل في شبه جزيرة العرب . كما بلغت شأْوا ملحوظا في طريق التقدم والازدهار إبان حكم أَمراء آل سعود وعمها الخير والرفاه [1] .

فلا جرم أَن كانت الدرعية قذى في عين الباب العالى عدو الدعوة اللدود ، وأَن رأَى فيها درعا تحول دون تحقيق شهواته في السيطرة على البلاد العربية واذلال أَهلها واستنزاف خيراتها . ولما عجز ولاته في البصرة وبغداد ومكة عن قهر الدرعية دعوة ودولة أَسلم الأَمر إلى محمد على الذي سيّر إلى الحجاز كتائب جرارة استُقطعت نفقاتها من أَرزاق المسلمين بمصر ، وغُلب فيها أَبناء الكنانة على أَمرهم ، فجُنّد بعضهم مع طغمة العثمانيين والمغاربة لغزو الدولة السلفية والاستيلاء على عاصمتها.

(١) مجلة قافلة الزيت ، العدد الثانى ، المجلد العشرون .

الحملة الأولى لمحمد على باشا على أنصار الدعوة (١٢٢٦ ـ ١٢٠٠)

الاستيلاء على ينبع والزحف الى المدينة (١٢٢٦ ـ ١٢٣٠)

سار « طوسون » ابن محمد على باشا على رأس جيش عرمرم من الألبانين الأتراك ومن أهل المغرب ، بلغت عدته أربعة عشر ألف مقاتل أو يزيدون قاصدا الحجاز لإخضاع أنصار الدعوة بقيادة آل سعود . فابحر من السويس في أسطول بُنَى في مصر ، ونزل فريق من الجيش في ميناء ينبع وانتهبوها واستولوا على المدينة ـ مدينة ينبع ـ واحتشدت ـ هنالك ـ القوات البحرية العثمانية بعد أن انضمت إليها القوات التى جاءت عن طريق البر . واستطاع جابر بن جبارة وهو من رجال السلفيين بعد أن استولوا على قريته (السويق) أن يهرب من العثمانيين وينضم إلى رجال الدعوة ، وكان منزلة الأمير عبد الله في الخيف الذي يقع في وادي الصفراء على مشارف المدينة واستعد للقاء القوات المغيرة . ونزل عثمان بن عبد الرحمن المضايفى على رأس أهل الحجاز و أهل بيشة وقحطان بالجديدة . وأمر مسعود ابن مُضَيان ومن معه من بوادي حرب وجيش أهل الوشم أن

ينزلوا في الوادي المجاور لديارهم مخافة أَن تزحف إليه طائفة من العدو فتفتك بأَهله . وفي الجديدة التأَم شمل الجميع وعبأَوا قواتهم وأَعلنوا الناحية دار حرب ، وحفروا في مضيق الوادي خندقا احتمى به منهم أَهل نجد . واحتمى عثمان وجماعته بالجبل المطل على الخندق .

القتال حول المدينة واصابة العدو بهزيمة منكرة .

واصل جيش طوسون زحفه إلى المدينة ، فأَرسل إليه عبد الله طليعة جيش وفرسان . والتقى الجمعان وظفر طوسون في الجولة الأَولى ، وقتل اثنين وثلاثين رجلا ثم نزل بعسكره مقابل عسكر عبد الله . وندب عبد الله أَخاه فيصل بن سعود وحباب ابن قحيصان المطيري على رأَس الفرسان . وما لبث القتال أَن شب بين الفريقين وكثر القتلى منهما ، وأَبلى المدافعون بلاءً شديدا ، ودارت المعارك تباعا . فانهزم الأَعراب وثبت غيرهم من جيش عبد الله ، وأَقاموا على ذلك نحو ثلاثة أَيام .

وأَرسل عبد الله إلى مسعود بن مضيان ورجاله يأَمره بالحملة على العثمانيين جنبا إلى جنب مع عبد الله ورجاله . ودارت موقعة تاريخية كبري مُنِيَ فيها أَحمد طوسون وجنوده بهزيمة شنعاء . ذلك أَنهم تبينوا أَنه لا طريق لهم إلى اقتحام معاقل

خصومهم ، فأَخذوا يضربونهم بالمدافع ، وأُحبط عملهم إذ كانوا يضربون ضرب عشواء ، فلا تصيب رمياتهم أَهدافها ، وكانوا إذا رفعوها مرت وما أَضرت ، وإن خفضوها دفنت في التراب . فزحفوا على عثمان المضايفى وقواته في الجبل ، فتركهم حتى إذا قربوا منه رماهم بما أَعده لهم من رصاص البنادق فما أَخطاهم ، وقتل كثيرا منهم قتلا ذريعا . فتحولوا إلى الجانب الأَيمن من الجبل ، واستطاعوا أَن يوقعوا بكل من كان عليه من أَهل بيشة وقحطان وسائر العربان إلا من كان من حرب فلم يحضر . وتابعوا زحفهم حتى بلغوا أَعلى الجبل ، فاشتد الأَمر على المرابطين أَدنى الجبل بما رموا به من فوقهم . وحمى وطيس القتال آخر ذلك اليوم وفي غده ، حتى إذا كان الغروب تمكن فريق من رجال عبد الله من الصعود ، وأَخذوا يقذفون الجنود الذين تسنموا الذُّرَى بالبارود ، فهبطوا لائذين بالفرار ، فما يشعر الذين كانوا منهم أَدنى الجبل إلا وإخوانهم يهبطون عليهم منهزمين ، فاختلط حابلهم بنابلهم وانطلقوا على وجوههم يولون الأَدبار تاركين خيامهم وعتادهم قاصدين بلوغ السفن التى أَقلتهم . فتتبعهم جيش عبد الله وأَثخنهم ضربا ، فازداد اختلاط أَمرهم ، ودب الوهن في خيلهم ، وظهر عليهم فريق من فرسان عبد الله ومشاته من جانب الخندق فازدادوا تقهقرا وخيل

المسلمين في أَثرهم [1] . فلم ينج منهم إلا جماعة الفرسان الذين نفق أَغلب خيولهم ظمأً .

ووصلت فلول الغزاة المهزومين إلى البرك [2] ، ومنها اتخذوا البحر طريقا إلى ينبع ، وكانوا قد أَرسوا في البرك بعض

---

(١) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وتاريخ ابن بشر ص ٢٠٨ — ٢١١ . ويروى الجبرتى ما كان عليه جنود طوسون من اضطراب في تقهقهرهم بقوله إنهم « انهزموا جميعا وولوا الأدبار ، وطفقوا ينهبون ماخف عليهم من أمتعة روسائهم ، فكان القوى منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ويأخذ دابته ومركبها وربما قتله واخذ دابته » . وقد سخط محمد على باشا على عسكره بعد مجيئهم مهزومين إلى مصر ، وكأنهم كانوا قادرين على النصرة والغلبة وفرطوا في ذلك ، وأخذ يلومهم ، « فطفقوا يتهم بعضهم بعضا ، فتقول الخيالة سبب هزيمتنا القرابة وتقول القرابة سبب هزيمتنا الخيالة . ولقد قال لى بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع : أين لنا النصر وأكثر عساكرنا على غير ملة ، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا ، وصحبتنا صناديق المسكرات ، ولا يسمع في عرضينا (مخيمنا) أذان ، ولا تقام فيه فريضة ، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين. والقوم (السلفيون) إذا دخل الوقت أذّن الموذن ، وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع . وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذّن المؤذن وصلوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر أخرى للصلاة ، وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلاعن رؤيته .

(٢) تعرف بالجار وهى ميناء المدينة القديم . وتقع غرب بلدة بدر وتبعد عنها مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا .

سفنهم على سبيل الاحتياط [1] . كما رجع أيضا طوسون ورؤساء جنده جميعا إلى ينبع . وبادر بعضهم إلى الإبحار إلى مصر بعد أن كاد الجنود يقتلونه . ولما علم محمد على بهذه الهزيمة النكراء أمتلأ قلبه حقدا ، وأصدر أمره إلى طوسون بسرعة العودة إلى مصر من طريق ميناء القصير . ولكن هذا كان قد أعد عُدَّته لذلك دون أن ينتظر إذنا من أبيه في الرجوع أو المكث .

ولقد قتل من العثمانيين عدد كثير قدّر بأكثر من أربعة آلاف رجل ، وأخذ المجاهدون منهم مالا يحصى ولا يحصر من الأموال والسلاح . أما الذين استشهدوا من جيش عبد الله بن سعود فقد بلغ عددهم نحو ستمائة رجل ، منهم مقرن بن حسن

(١) يقول الجبرتى في وصفه لحال جنود طوسون المدبرين بعد أن وصلوا إلى ميناء البرك : « وقع في قلوبهم الرعب واعتقدوا أن القوم في اثرهم ، والحال أنه لم يتبعهم أحد لأنهم لا يذهبون خلف المُدْبِرولو تبعوهم ما بقى منهم شخص واحد . فكانوا يصرخون على القطائر (السفن البخارية) فتأتى إليهم القطيرة وهى لا تسع إلا القليل فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها ، فيصعد منهم الجماعة ويمنعون البواقي من إخوانهم ، فإن لم يمتنعوا ما نعوهم بالبنادق والرصاص ، حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم النزول في القطائر يخوضون في البحر إلى رقابهم وكأنما الشياطين في اثرهم تريد أن تتخطفهم ، ولما شاهد كثير من العسكر هذا الازدحام ذهبوا مشاة إلى ينبع » .

ابن مشاري ابن سعود ، وبرغش بن بدر بن راشد الشبيبى ، وسعد بن إبراهيم بن دغيشر ، ورئيس قحطان هادي بن قرملة ، ورئيس عبيدة مانع بن كرم ، وراشد بن شبعان أَخو محمد بن سالم أَمير بنى هاجر ، ومانع أَبو وحير العجمى الفارس المشهور وغيرهم . وكانت هذه الموقعة في العشر الأَواخر من ذي القعدة سنة ١٢٢٦ .

حملة محمد على الثانية

لم تَحُلْ هزيمة محمد على باشا في شخص ابنه طوسون دون مُضِيّه في تنفيذ ما أَزمع عليه من غزو السلفيين في بلادهم . فأَخذ يجهز حملة أَخرى ويفرض على مصر الضرائب والمغارم للإنفاق عليها . وسيّر ابنه أَحمد طوسون على رأَس هذه الحملة فتمكن من فتح المدينة والاستيلاء عليها . ثم قصد مكة من طريق جدة فاستطاع الاستيلاء عليها أَيضا . وبذلك عاد الحرمان الشريفان إلى حوزة الدولة العثمانية ، وعادت من ثم البدع إلى الحج بعد أَن كانت قد اختفت في ظل دولة سعود . وأَراد طوسون مطاردة أَنصار الدعوة ، ولكنهم أَلحقوا به هزيمة قرب مكة كبدته خسائر فادحة .

ولذلك قدم محمد على إلى الحجاز سنة ... (١٨١٣ م) فوقعت مناوشات بينه وبين جيش الدعوة ، واستطاع أَن يهزم الأَمير عبد الله بن سعود في سنة ... (١٨١٥ م) ، ولا عجب فالحرب سجال . ثم عاد إلى مصر في تلك السنة لحدوث قلاقل بها . أَما طوسون فقد استمر مع جنوده يوالى حملاته على بلاد العرب .

الحملة الثالثة

لم يلبث رجال الدعوة إلا قليلا ثم عادوا إلى الجهاد . فأَرسل محمد على ولده الثاني إبراهيم عن طريق القصير في سنة ١٢٣٣ ، فذهب إلى ينبع ثم إلى المدينة واتخذها قاعدة حربية . وظل يغالب أَصحاب الأَرض والدعوة مستعينا ببعض المرتزقة من الضباط الفرنسيين [١] ، وكأَنما لم تكفه معداته الحربية الحديثة فاستجلب الأَجانب لغزو المسلمين أَصحاب الدين الحنيف والوطن الحر العريق .

(١) د . توفيق حامد المرعشلي ، صفحات في تاريخ مصر ، مطبعة مصر ، ط ٢ ص ١٢٢ .

مبحث

نضال الدرعية

ليس ثمة وجه للمقارنة بين قوات الدعوة المؤلفة من رجال الدرعية وحلفائهم وبين قوات محمد على الكثيفة التى توالى ورودها إلى الحجاز بدون انقطاع سحابة سبع سنوات وعدة أشهر (شعبان سنة ١٢٢٦ ـ ذو القعدة ١٢٣٣) . بيد أن رجال نجد وأهل الدرعية منهم بصفة خاصة وقفوا صفوفا متراصة في وجه عدوهم الأثيم ، يدافعون عن عقيدتهم العصماء ، وينافحون عن أرض العروبة ، وقد استرخصوا أرواحهم فداء للدعوة ، واستعذبو الاستشهاد في سبيل الله . ورغم أن القوة المعادية قد تغلبت في النهاية بتدمير الدرعية ، فإن مسيرة محمد على وولديه طوسون وإبراهيم إليها لم تكن نزهة أو تدريبا للجيش الذي أنشأه من دم المصريين كما لعل نفسه قد حدثته ، إذ كلفته تلك المسيرة غاليا من العدة والعتاد .

لقد أبلى مجاهدو الدرعية أعظم بلاء عرفه التاريخ عن أوطانهم ، فكانوا رغم ضعف مواردهم المادية والبشرية بالقياس إلى العدو ـ كما نوهنا ـ يتدافعون إلى القتال يوما بعد يوم ،

بل ساعة بعد ساعة ، بل لحظة بعد لحظة ، ويصدون بسلاحهم ، فإن عز السلاح فبأجسادهم ، موجات الغزاة المتعاقبة المدججة من الرأس إلى القدم بأحدث أدوات الهلاك موجة بعد موجة .

واستمرت الدرعية التى انبثقت منها رسالة الحق كالطود الأشم ، صامدة لا تتزعزع ، قوية لا تتضعضع ، فلم تفلح جحافل طوسون الجرارة في الاقتراب منها بله فتحها ،حتى اضطر إلى عقد صلح مع رجال الدولة من أبنائها . واضطر محمد علي إلى قيادة الحملات بنفسه لعله أن يحقق أمانيه الغادرة . ثم أرسل من بعد ذلك ولده الثاني وأمده بالمزيد من الأنفس والأسلحة ليتم ما بدأه أخوه في حملات الحقد والضغينة والعار .

وحاصر إبراهيم باشا الدرعية وركز مدافعه حولها وأخذ يمطرها بوابل من القذائف ، فما عرف الخوف طريقه إلى قلوب أبنائها الشجعان بقيادة امراء آل سعود ، ولا تسلل إليهم الوهن على ما سكبوا من دماء زكية رووا بها أرضهم الطاهرة دفاعا عن مدينتهم عاصمة الدعوة . وإذا كانت الدرعية قد استسلمت فإنها لم تسلم الغزاة نفسها بل أسلمتهم حطاما من دورها التى خربوها. وهم لم يضعوا يدهم عليها وإنما على جثتها الهامدة . وقد مات رجالها واقفين في حومة الوغى غير راكعين ، فما عرفوا الركوع

والسجود إلا لوجهه تعالى ، على حين أَسلم الغزاة أَرواحهم إلى الشيطان فماتوا أَحياءَ . وصدق المتنبى إذ يقول :

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأَحيــاء

إن سنابك الغازي العثماني الهمجى التى وطئت أَرض الدرعية إنما وطئت أَشرف البقاع ودنست أَعلى القيم والمباديء . فحُقّ لحصونها وأَبراجها وأَسوارها أَلا تسلمهم إلا قبض الريح وحصاد الهشيم . وحُقّ لِكُماتها الصناديد بعد أَن نفذت ذخيرتهم وشحت مؤونتهم أَلا يأْذنوا لأَهل الباطل أَن يدخلوا إلى حماهم إلا من طريق مفروش بالجماجم سوف يسلك بهم إلى النار خالدين فيها أَبدا ، بما اجترحت أَيديهم من جرائم يندي لها جبين الإنسانية ، يؤمهم محمد على صنيعة العثمانيين وعدو أَنصار الدين وكأَنما تَجسده شبح أَبي لهب الذي نزل فيه قوله تعالى :« تبت يدا أَبي لهب وتب ، ما أَغنى عنه ماله وما كسب » .

ونورد فيما يلى مراحل تطور القتال بين جنود محمد على وبين أَبناءِ الدرعية أَصحاب الدعوة ، ووقائع المقاومة الباسلة التى أَبداها أَبطالها المغاوير ذودا عن عرينهم (١) .

خروج عبد الله بن سعود لقتال ابراهيم بن محمد على

في عام ١٢٣١ أَمدّ محمد على ابنه إبراهيم في نجد بأَجناد كثيفة من مصر وتركيا والمغرب والشام والعراق ، فسار إلى المدينة المنورة وضبط نواحيها ، ثم سار منها إلى (الحناكية) على مسيرة مائة وخمسة عشر كيلو مترا من يثرب ، فأَقام فيها وأَكثر الغارات على ما حولها من العربان وأَخذ أَموالا وقتل رجالا وأَنضم إليه رجال من حرب ومطير وعتيبة ومن عنزة الدهامشة ، وشرع يغير على بوادي نجد .

وتجهز عبد الله بن سعود غازيا من الدرعية واستنفد جميع القوات من أَبناء نجد الحاضرة والبادية . وخرج من الدرعية في طريقه إلى القصيم حتى بلغها ولحق بحجيلان بن حمد أَميرها ثم سار إلى وادي الرمة حتى نزل (بالعلم) ، وهو يريد الغارة على الأَعراب الذين انضموا إلى إبراهيم باشا ، فرحلوا إلى الحناكية ليلحقوا به ، فلما علم عبد الله بذلك رجع من العلم ونزل عالية نجد . ثم بلغه أَن جنودا كثيرة من العدو قد سارت إلى (ماوية) وهي الماء المعروف قرب الحناكية ونزلوها . فقصدها

وانقض بغتة عليهم وهم على مائهم ، فنصبوا مدافعهم وبدأوا في الرماية .

فأمر عبد الله بعض المسلمين أن يرحلوا وينزلوا الماءَ . فلما همو بالرحيل فر من المعركة رجال البادية الذين انضموا إلى السلفيين ، وتتابعت فيهم الهزيمة ووقع الرعب في قلوبهم . فاتصلت الهزيمة إلى سائر الرجال واختلط بعضهم ببعض ، وتبعهم العثمانيون وأحلافهم من البدو ، وقتلوا عددا منهم واخذوا كثيرا من السلاح . وركب عبد الله في كتيبة من الخيل وحمى مؤخرة المسلمين ثم رحل إلى عنيزة ونزلها . وقد هلك في تلك الهزيمة بين القتل والأسر والظمأ نحو مائتى رجل وكان هذا أول وهن وقع في صفوف أبناءِ الجزيرة .

معركة الرس :

رحل إبراهيم بعدئذ مع عسكره حتى نزلوا (الرس) فثبت له أهلها وحاربوه . وأرسل إليهم عبد الله بعض رجاله فحوصروا أشد الحصار وتتابعت الحرب عليهم في الليل والنهار ، وجنود العدو في ازدياد ، وقد ضربوا سور البلد بالقبوس (المدفعية) حتى سووه بالأرض . وأنزل الله السكينة على أهل البلد والمرابطة « وقاتلوا قتال من حمى الأهل والعيال وصبروا صبرا ليس له

مثال » . فكلما دمر السور نهارا بنوه ليلا . وكلما حفر الروم (العثمانيون) حفر للبارود حفر أهل الرس تجاهه حتى يبطلوه وإن تفجر فيهم البارود أحيانا وهم لا يعلمون . وقد طال الحصار من شعبان إلى اثنى عشر ذي الحجة سنة ١٢٣٢ .

ورُوِيَ أن الروم رموا الرس في ليلة واحدة بخمسة آلاف رمية بالمدافع والقنبر (القنابل) والقبس ، وأهلكوا ما خلف القلعة من النخيل وغيرها . وقتل من أهل البلدة ومن المرابطة في هذه الحرب نحو سبعين رجلا ، وقتل من عسكر إبراهيم ما ينوف على ستمائة رجل .

وأرسل أهل الرس إلى عبد الله بن سعود إما أن يرحل إلى العدو ويناجزه ، وإما أن يأذن لهم بالمصالحة . وتوالى إمداد إبراهيم ومن معه في الرس بالرجال والسلاح ، واستعظم أمره وكثرت دولته . فوقعت المصالحة بينه وبين أهل الرس على دمائهم وأموالهم وسلاحهم وبلادهم وجميع من عندهم من المرابطة يخرجون إلى مأمنهم بسلاحهم وبجميع ما معهم . فخرجوا من البلدة وقصدوا عبد الله وهو في عنيزة على رأس المدافعين .

ولما استقر الصلح بين أهل الرس وإبراهيم رحل منها بعسكره

ونزل بلدة (الخبرا) ، فوقع الفزع في القلوب وتفرق أهل البادية . وواصل الغزاة مسيرتهم إلى (عنيزة) ونازلوها . وكان عبد الله قد رحل عنها بعد أن أمرها برجال من نجد وشيء كثير من المئونة والسلاح واستعمل عليها أميرا محمد بن حسن بن سعود . وسار حتى نزل في بُرَيْدَة . وسلم أهل عنيزة للغزاة وامتنع رجال عبد الله المعتصمون في قصر (الصفا) المعروف بها . فظلت المدافع تنهال عليهم وهم يطلقون الرصاص يوما وليلة حتى ثلم جدار القصر ، وأصابت قنبلة مخزن الأسلحة به فاشتعل مما أدى إلى تدميره . فاضطر المرابطون إلى طلب المصالحة وأُجيبوا إليها فرحلوا إلى أوطانهم . ولما بلغ ذلك عبد الله وهو في بريدة رحل عنها وقصد الدرعية ، وأذن لأهالى النواحى أن يرجعوا إلى ديارهم .

وأستأنف إبراهيم مسيرته الحربية إلى بريدة ، وكان أميرها يومئذ مع ناحية القصيم حجيلان بن حمد ، ونازل أهلها فأطاعوه فغادرها مقتادا معه أميرها ورجالا من رؤساء أهل القصيم ، وكان هذا دأبه في كل بلد إذا أراد أن يرتحل عنها خشية أن تقع به هزيمة فيحاربه أهلها . ونزل ببلدة المُذْنَب فأعلنوا له الطاعة ، ثم قصد بلدة (أشيقر) و (الفرعة) فاستأمنوه ودخلوا في طاعته . وركب من أشيقر تاركا مخيمة بها وحاملا مدافعه إلى

(شقراءَ) فأَتاها وتفحص حدودها ومعالمها ليحدد مواقع جنده ومدافعه ، لأَنه يعلم أن أَهلها له محاربون . وأَنهم أَهل صدق في الحرب مجربون . ثم رجع إلى مخيمه . فلما كانت صبيحة اليوم التالى الموافق الجمعة السابع عشر من ربيع الأَول سنة١٢٣٣ سار إلى شقراءَ وقد صاحبته عدة وعديد وأَتت إليه أَمداد من العسكر والسلاح ، فنزل أَسفلها وشمالها .

معركة شقراء :

خرج أَهل شقراءَ إلى إبراهيم يرفعون رايات المقاومة والجهاد ، ووقع بينهما قتال شديد في وسط النخيل وخارجها ، فقتل وجرح من الترك خلق عديد ، فتكاثرت على مقاتلى البلدة أَفزاع العدو ، وأَصيب أَميرها حمد بن يحيى بالرصاص إصابة شديدة . وتمكن إبراهيم من دخول شقراءَ ومحاصرة أَهلها فيها . وأَنزل مدافعه وجعلها فوق المرقب بالجبل الشمالى وصب نيرانها ، فأَرهب ما حوله من القرى والبلدان من أَهل سدير ومنيخ والمحمل وغيرهم ، حتى سمعه من كان في العَرَمة ومجزل وما حولها . ثم أَنزل مدفعيته من رأَس الجبل وقربها من السور وتابع الرمى حتى قيل إنه رمى البلدة في ليلة واحدة بثلاثمائة حمل من الرصاص والبارود ، وإن القذائف كانت تنهال عليها متضاربا بعضعها

ببعض في الهواء من فوقها وفي وسطها ، وهدم الغزاة ما يليهم من سورها وقطعوا نخيلها إلا قليلا .

وظل رجال شقراءَ ثابتين في مواقعهم صامدين وفي أَكنافها يقاتلون ، فقرب إبراهيم نيران مدافعه من السور وهدم مايليه من الدور والقصور . ولما هم بالحملة عليهم ثنى عزمه وفت في عضده ذلك الخندق الذي استكمل حفره المناضلون بأَمر حمد ابن يحيى لما خاف عليهم إبراهيم وجنوده ، وكانوا قد بدأَوا في الحفر على أَيام طوسون ولما صارت المصالحة تركوه . فجعلوه خندقا عميقا واسعا وبنوا على شفيره جدارا من جهة السور ، واستعانوا في الحفر بالنساءَ والولدان لحمل الماء والطعام . وأَلزم حمد بن يحيى كل رجل غنى بشراء قدر من الحنطة اتقاءَ للمجاعة إذا طال عليهم الحصار . ثم أَمر أَن تشذب عسبان النخيل التى تلى الخندق والقلعة ولا يبقى إلا خوافيها . وقد ساعد هذا الخندق المنيع على صمود أَهل شقراءَ الذين صدقوا في مواطن اللقاء بالسيف أَول نزول إبراهيم عليهم وأَذاقوه صنوف الويل من شدة بأَسهم . فطفق كل يوم وليلة يدعوهم إلى الصلح وهم يأَبون عليه . ثم وقعت المصالحة بينه وبينهم بعد أَيام .

وأَطلق إِبراهيم شراذم من جنده على ناحية سدير ومنيخ ، وكانت جميع بلدان الوشم قد أَعلنت له الطاعة ، فنزلوا بلدة (جلاجل) وتفرقوا في البلاد ، وأَخذوا ما فيها من الجياد الثمينة والحنطة ثم رحلوا من سدير إلى الوشم . ووشى بأَهل شقراءَ رجل من أَهل نجد ممن ساعدوا إِبراهيم وساروا معه ، فأَفضى إِليه أَن ارتحل عدة رجال من أَعيانهم وعامتهم إلى الدرعية ، وأَنهم يريدون أَن ينقضوا العهد بعد أَن يفارقهم ويقطعوا سبله . وأَفزع ذلك إِبراهيم فترك مخيمه في شقراءَ ودخلها مغضبا وكان الوقت شتاءَ . فلما دخل عاث عسكره في المسجد وأَوقدوا فيه النيران دون أَن يراعوا حرمة بيت الله ، أَلا ساءَ ما يفعلون . وجيءَ بالأَمير حمد وهو جريح كما جيءَ بغيره ، وأَرغى إِبراهيم وأَزبد ثم هدد وتوعد وجاءَ بوثيقة الصلح وقام وقعد وهو يردد قراءَتها وكان قصده أَن يفتك بهم . وكفى الله القوم شر إِبراهيم إذ خرج من البلدة بعسكره بعد أَن أَمر أَهلها أَن يخلوا بيوتا للجرحى ففعلوا . وهدم السور ودفن الخندق وآقام في شقراءَ نحوا من شهر . ثم ارتحل عنها ومعه عشرة رجال من رؤسائها ، وسار منها إلى (ضرما) حيث بلغته رسائل من أَهل المحمل وحريملاءَ يعربون فيها عن طاعتهم .

معركة ضرما :

ما أَن تبين عبد الله بن سعود مصالحة أَهل شقراءَ لإبراهيم وإعلان جميع أَهل الوشم وسدير والمحمل وغيرهم طاعتهم له حتى أَصدر أَمره إلى سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود في عدة رجال معه من أَهل الدرعية وغيرهم ، كما أَمر متعب بن إبراهيم ابن عفيصان صاحب الخرج وعدة رجال معه من أَهلها وغيرهم وأَمر أَيضا محمد العميري وعدة رجال معه من أَهل ثادق والمحمل ، أَمرهم جميعا أَن يسيروا إلى ضرما ويدخلوها ليصيروا عونا لأَهلها ورِدْءًا لهم ، فساروا إليها ودخلوها .

وفي صباح اليوم الرابع عشر من ربيع الثاني في نفس السنة نزل إبراهيم شرقي جنوبي ضرما قرب قصور المزاحميات التى تقع على مشارفها ، وكان قبل نزوله قد عاينها . وحمل جنده معداتهم العسكرية إلى شمال البلد قرب السور ونصبوا مدافعهم . ودارت رحى الحرب بينهم وبين أَهلها الذين استماتوا في الدفاع عنها ، وثبتهم الله فلما يعبأُوا بالعدو . وعرضت عليهم المصالحة فأَبوها . ولم تكن في تلك النواحى بعد الدرعية بلد أَقوي من ضرما رجالا وأَموالا وعددا وعدة . بيد أَن العثمانيين حشدوا كل طاقاتهم البشرية والمادية وهدموا جزءًا من السور .

واستمر أَهل ضرما في صبرهم وصدق جلادهم ، فحمل عليهم العدو حملة واحدة ، فلم تهن عزيمتهم بل ازدادوا ثباتا وجلادا ، وقتلوا نحو ستمائة رجل وردوهم إلى كبيرهم إبراهيم ، وبنوا بعض ما انهدم من السور . فعدل إبراهيم خطته وقام بحركة التفاف إذ أَمر ثلة من جنوده بوضع بعض المدافع جنوب ضرما حيث كان يتولى الدفاع متعب بن عفيصان ومن معه من أَهل الخرج . وتوالى القصف والتدمير في الموضع الأَول ، ومازاد المدافعون ذوو النخوة من أَهل البلد والمرابطة إلا صمودا عند السور المهدوم في مواجهة عدو شرس . بيد أَنهم فوجئوا بالصارخ من خلفهم أَن ثلة من العدو قد اقتحمت دور أَهلهم وأَولادهم ، فكروا لبلدهم راجعين ، وتعقبهم جنود إبراهيم . وشاءَت إرادة الله ولا راد لأَمره أَن ينصب المطر من السماءَ مدرارا كأَفواه القرب في تلك الليلة التى اشتد فيها القصف ، وأَن يصحب هذا المطر المهطال برد شديد يجمد منه في الجو القطر .

وقد ظل أَهل ضرما يقاتلون العدو في ظل تلك الظروف الصعبة منذ كر في اثرهم داخل البلدة بعد صلاة الصبح في السابع عشر من ربيع الثاني إلى ارتفاع الشمس . وانجلى غبار تلك المعركة المستعرة عن قتلى كثيرة من العثمانيين . ولكنهم دخلوا ضرما الباسلة من كل ناحية وأَخذوها عنوة ، وقتلوا أَهلها

في الأسواق والطرق والبيوت . وبلغ عدد القتلى من مقاتلى ضرما نحو ثمانمائة رجل ، ومن أهلها حوالى اثني عشر مائة رجل ، وقتل من المرابطة نحوا خمسين رجلا .

وفضلا عن أن المعركة بين الطرفين لم تكن متكافئة نظرا لما كان بحوزة العثمانيون من أسلحة حديثة شديدة الفتك والتدمير ، فقد كانت حربهم غير شريفة أيضا إذ خدعوا أهل ضرما بالأمان . ولا عجب فهذا الثعيلب من ذاك الثعلب . أليس إبراهيم السفاح ولد محمد على المخادع ؟ فالشيء من معدنه لا يستغرب . ذلك أن جنوده كانوا يأتون إلى أهل البيت فيقولون : أمان أمان ، ويأخذون سلاحهم ثم يقتلونهم . وقد نهبوا جميع ما احتوت عليه البلدة من الأموال والمتاع والسلاح واللباس والماشية والخيل وغير ذلك .

وخرج من ضرما محمد العميري في نفر معه من أهل ثادق والمحمل بعد أن قتل بعضهم فأدركهم العثمانيون ، فقاتلوهم بالرماح والسيوف حتى خلصوا من بين أيديهم . وحوصر سعود ابن عبد الله في قصر بالبلدة ومعه أكثر من مائة رجل من أهل الدرعية وغيرهم ، فأرسل إليهم إبراهيم ومنحهم الأمان على دمائهم فخرجوا وساروا إلى الدرعية . وهام رجال من أهل البلد

على وجوههم في البرية ، فمنهم من نجا ومنهم من قتل ، وبقيت ضرما خالية مقفرة من رجالها . وجمع إبراهيم جميع من فيها من النساء والذرية وأَرسلهم إلى الدرعية وهم نحو ثلاثة آلاف نفس ، فلما قدموا إليها أَنزلهم عبد الله وأَهل الدرعية أَكرم منزل .

معارك الدرعية المجيدة :

واقعة العلب :

سار إبراهيم إلى الدرعية بعد أَن نهب ضرما وأَخلاها من أَهلها . واتخذ طريقه عبْر (الحيسية) حتى بلغ وادي حنيفة من طريق العيينة والجبيلة . ثم سار في الوادي حتى نزل (الملقى) حيث نخل عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود المعروف في الوادي أَعلى الدرعية وبينه وبينها مسيرة ساعة . فلما استقر وجنوده في هذا الموضع ركب بخيله ومعه بعض المدافع ليرتاد المواقع التي يريد النزول بها عند الدرعية .وسارت فرسانه على جانبيه يمينا وشمالا ، ورجال المدفعية مع بطن الوادي حتى وصلوا (العلب) حيث نخل فيصل بن سعود المعروف قرب النخيل أَعلى الدرعية ، فنزلوا فيه وأَطلقوا قذائفهم النارية .

ووقع بينهم وبين أهل الدرعية قتال شديد ، ثم رجعوا من حيث جاءوا إلى مخيمهم وأقاموا فيه نحو يومين أو ثلاثة . فلما كان الغد الموافق يوم الثلاثاء ثالث جمادي الأولى سنة **١٢٣٣** زحفوا على امتداد الوادي إلى الدرعية ، ونزلوا في العلب ، بعضهم في بطن الوادي والبعض الآخر يمنته ويسرته في تلك الجبال تجاه جموع أهل الدرعية .

وكان عبد الله بن سعود قد نظم جموع أهل الدرعية ومن كان عنده من البلاد الأخرى ، وذلك أن أهل نجد لما أطاعوا العثمانيين هرب من كل بلد وناحية نفر من أهلها وقصدوا الدرعية ، فكان فيها من أهل الآفاق عدد كبير . ورتبهم عبدالله في بطن الوادي ويمنته ويسرته خارج النخيل والسور . فكان فيصل بن سعود وأخوه إبراهيم وأخوه فهد ومعهم عدد من رجال الدرعية وغيرهم في بطن الوادي في مواجهة العدو . وكان لدى فيصل وإخوانه ثلاثة مدافع ، وعن يمينهم في الجانب الشمالى فوق الجبال سعد بن سعود وأخوه تركى بن سعود ورجالهم في شاطىء الشعيب المعروف بالمغيصيبى . ويليهم عبد الله بن مزروع صاحب منفوحة ومعه رجال من أهل منفوحة وغيرهم . وتقدم تركى بن عبد الله الهزاني صاحب حريق نعام ومعه رجال منها وآخرون ، وصاروا بين قوات عبد الله وبين العثمانيين .

وكان على ذلك الجانب أَيضا عدة أَبطال من رؤساء نجد من آل دغيثر وغيرهم ، كل رئيس معه عدة من الرجال في موضع معروف لا يفارقه إلى باب سمحان داخل السور ولديه مدافع . وفي قري عمران عند النخل المسمى بالرفيعة كان هنالك فهد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ومعه فريق من أَهل الدرعية وأَهل سدير يرأَسهم عبد الله بن القاضى أَحمد ابن راشد العرينى وفي حوزتهم مدفع .

واتخذ رجال الدعوة مواقعهم للقتال دفاعا عن الدين والوطن فكان كل مترس وموضع مما ذكرنا يقابله مثله من جنود العدو . ومن وراء هذه المتارس والمواضع في تلك الجهة إلى أَسفل الدرعية كان كل برج فيه رجال من رؤساء أَهلها وأَشياخها الذين ليس لهم شدة في الحرب وفنونها . ولدى كل فريق من هؤلاء مدفع ولم يكلفوا بالهجوم وإنما نيط بهم الحفاظ على تلك الناحية . وفي أَسفل الدرعية في بطن الوادي قرب الجبل المعروف (بالقُرَين (١)) سعود بن عبد الله بن محمد ومعه عديد من أَهل النواحى لم يكلفوا أَيضا بحرب .

(١) القرين بضم القاف وفتح الراء المهملة . جبل ينحني عنده وادي حنيفة متجها غربا .

وإلى جانب فيصل بن سعود وإخوانه في بطن الوادي اتخذ عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود موقعه في البرج الكائن فوق الجبل على شاطىء الوادي عند النخل المعروف (بسمحة) ومعه محاربون من الدرعية ومن النواحى من أهل الوشم وغيرهم ، ويليه عمر بن سعود بن عبد العزيز في رجال من أهل الدرعية وغيرهم على شاطىء شعيب (الحريقة) . وإلى جانب أخوه حسن بن سعود مع جمع من الدرعية وغيرهم أيضا . ويليه في تلك الناحية تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود وأخوه زيد ومعهما حشد من أهل الدرعية ، وإلى جانبهم مملوك سعود فرج الحربي في جمع من المماليك وغيرهم . وفي فرع (شعيب غبيراء) فهد بن تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود ومحمد بن حسن بن مشاري بن سعود ومعهما رجال من أهل الدرعية . وكل جمع من هؤلاء كان في مواجهته عدد أكثر منه من العثمانيين ، ومن ورائهم في هذه الناحية أيضا مشاري ابن سعود بن عبد العزيز ومعه جمع من أهل الدرعية وغيرهم في مسجد العيد المعروف في رأس الجبل عند المنازل الجنوبية . وكان في شاطىء شعيب سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود ومعه جمع من أهل الدرعية وغيرهم ، وكان دور هؤلاء مقصورا على الحفاظ على تلك الناحية دون الاشتباك في الحرب .

وما لبث القتال أن شب بين العثمانيين وأبطال الدرعية الموحدين ، واضطرم سعير الوغى ، وتتابعت القذائف كالمطر المنهمر على مدى عشرة أيام منذ إبراهيم في العلب وفرق جنوده تجاه جموع أهل الدرعية . وكانت الحرب سجالا . وقد بدأت وقائعها في اليوم التالى من وصول العدو ، إذ حمل أهل الدرعية على أعدائهم في المغيصيبى وهو الشعيب المعروف خارج الدرعية شمال الوادي . وفي أعقاب تلك الواقعة جرت أخرى في شعيب الحريقة خارج البلدة جنوب الوادي . وقتل من الفريقين عدة قتلى في هذين اللقاءين .

واقعة الغبيراء

بعد عدة اشتباكات أخري كانت واقعة غبيراء وهو الشعيب الواقع في أقاصى المتارس الجنوبية الغربية . وذلك أن إبراهيم جمع خيلا في الليل وجعلها في وسط الشعيب إلى جانب غبيرا بحيث لا يكشفها القائمون على المتارس من أهل الدرعية ، وفي الفجر أرسل مددا إلى جنوده المتحصنين تجاه أهل الدرعية في غبيراء . واندلعت نيران الحرب فخرج فرسان العدو من الشعب المذكور من خلف متارس الدرعية في هذا الموضع فانهزم جنود عبد الله ، وتبعهم الروم فقتلوا منهم نحو مائة رجل ، منهم

فهد بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعد ، ومحمد بن حسن ابن مشاري بن سعود ، وحسن الهزاني وعدة رجال من أهل الوشم وسدير وغيرهم . وتراجع أهل الدرعية وما لبثوا أن نظموا صفوفهم وثبتهم الله تعالى فقتلوا بعض أجناد العدو ، ولاذ بالفرار في تلك الليلة عدة رجال من أهل النواحي . هذا وأهل الدرعية في متارسهم لم يتزحزحوا أو يأخذهم الوهن .

واقعة سمحة النخل

ثم كانت واقعة سمحة النخل أعلى الدرعية جنوب الوادي ، وانهزم أهل الدرعية عن تحصيناتهم من جراء خيانة ضعاف النفوس من أهل البلد كانوا قد خرجوا إلى إبراهيم بعد واقعة غبيراء ، وأخبروه بعورات جيش المقاتلين من أبناء الدرعية ومواطن الضعف في صفوفهم ونقاط التسلل والنفاذ إليها . وكان إبراهيم بعد تلك الواقعة قد سحب رجالا من متارس عسكره ، وضمهم إلى فرسانه وأرسلهم إلى (على أزن) رئيس جنده في المواقع الجنوبية ، ثم أمر جنوده من المغاربة والدالتلية الموكلين بجبهة القتال الشمالية بمقاتلة من يليهم من رجال الدرعية لعل النجدات تنحاز إليهم من المتارس الجنوبية فترجح بذلك كفة على أزن المدعم بالأمداد .

وتخلص واقعة سمحة النخل في أن إبراهيم زحف بجيشه مع الوادي لاقتحام البروج الواقعة على جانبيه ، وشرع يقصف البرج الذي تحصن فيه عبد الله بن عبد العزيز وإخوانه عمر وعبد الرحمن ومن معهم في مترسهم ، وتابع الرمى والحرب عليهم وعلى تلك البروج . واشتعلت النار في الأرض والسماء ، فثلمت البروج وهدم أكثرها . واضطر عبد الله وجنوده إلى اخلاءء ذلك المترس وآخر قريب منه فاحتلهما العثمانيون . ثم حملت جنودهم في الجبهة الجنوبية على مترس عمر بن سعود ، فصمد رجاله وجالدوهم بالسيوف والبنادق ، وقاتلوا قتالا شديدا صادقا . بيد أن العدو رماهم رميا متتابعا ماله من نظير ، فلم يدر عمر إلا والعثمانيون قد جاءوا من خلفهم من جهة مترس عمه عبد الله ، وحمل عليهم الجنود الذين كانوا في مواجهتهم حملة واحدة فأنهزموا مدبرين .

وتبع ذلك حملة إبراهيم وجنوده مع بطن الوادي على فيصل والذين معه في سمحة ، فثبتوا لهم وقاتلوهم مستبسلين . وقد لحقت بإبراهيم في أثناء القتال جماعة الفرسان والمشاة التى كان قد أمد بها تابعه على أزن ، وكان هذا قد أرسلهم وقت انبلاج الفجر إلى (الغياضي) نخل ناصر بن سعود بن عبدالعزيز فدخل بعضهم مقصورة النخل وكمن البعض الآخر عندها .

ولما انهزم عمر بن سعود خرجوا من خلف متارس أَهل الدرعية وأَعانوا إِبراهيم على الموحدين . واستطاعت تلك الحشود الكثيفة ذات الأَسلحة القوية الحديثة أَن تقتحم متارس أَهل الدرعية فتركوا أَكثر المدافع والأَثقال . ولكنهم لم يتراجعوا إلا عند السلماني وهو النخل المعروف على شفير الوادي لإبراهيم بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) . فوقف فيصل وأَخوه سعد وكثير من الأَعيان والشجعان يجالدون الغزاة المعتدين جلاد صدق حتى ردوهم على أَعقابهم خاسئين ، وقتلوا منهم عدة قتلى .

احكام محاجي الدرعية ومتارسها لصد الهجوم

لازم أَهل كل مترس الموضع الذي نيط بهم ، فوضعوا محاجيهم في بطن الوادي وعلى يمنته ويسرته ، وبنوها بالحجارة وأَحكموها وجعلوها محاجى وحجاير . ونزل كل جمع من أَهل الدرعية في محجى وحجيرة . فصار في بطن الوادي فيصل بن سعود وأَخواه تركي وفهد وأَعمامهم عبد الله بن عبد العزيز وأَخوه عمر ، ومعهم رجال كُثْر من أَهل الدرعية وغيرهم . وفي جبانة الوادي من جهة الجنوب إبراهيم بن سعود ومعه جمع من أَهل البجيري والمريح أَهل الدرعية ، ومعهم أَناس من غيرهم .

---

(١) السلماني : نخل من نخيل الدرعية ما يزال يحمل اسمه إلى اليوم .

وفي أَعلى الجبانة فوق إِبراهيم ابن أَخيه سعد بن عبد الله بن سعود ومعه مدفع كبير في رأَس الجبل على شاطىء الوادي ومن حوله جمع من أَهل الدرعية وغيرهم . وقد اشتد القتال في هذا الموقع ، وأَثر مدفعه هذا في العثمانيين وأَكثر القتل فيهم وفي خيلهم .

وكان أَمام سعد بن عبد الله ابن تركى بن عبد الله بن محمد ابن سعود وابنه فيصل على شاطىء شعيب غبيراء ومعهما عدة رجال من أَهل الدرعية ومن غيرهم . وعلى شاطىء الوادي لدي شعيب البليدة عمر بن سعود ، ويليه في تلك الناحية حسن ابن سعود ، ثم يليه في تلك الجهة فرج الحربي مملوك سعود ومعه عدة من المماليك . واتخذ عبد الرحمن بن سعود ومعه جمع من أَهل الدرعية وغيرهم موقعهم بين شعيب البليدة وشعيب كتلة عبد الرحمن بن سعود . وفي مسجد العيد كان هنالك مشاري ابن سعود ومعه رجال من أَهل الطريف وغيرهم . وكل محجى من هذه المحاجى كان يقابله محجى من العثمانيين مبنى بالحجارة ملازمين لهم ليلا ونهارا ، إلا محجى مشاري بن سعود وما بعده ممن تقدم ذكرهم في المتارس الأُولى ، فلم يحتشد أَمامهم العثمانيون ، وظلوا حُفَّاظا على مواقعهم ولم تنزل بهم هزيمة .

أما محاجى أهل الدرعية ومتارسهم في الجهة الشمالية من الوادي شرقي البلد وفي النخل المعروف بالسلماني فقد كان على يمنة الوادي عبد الله بن مزروع ومعه عدد من أَهل الدرعية وأَهل منفوحة وسواهم . ويليه في تلك الجهة عبد الله بن إبراهيم ابن حسن بن مشاري بن سعود عند (ناظرة) وهى موضع معروف هنالك ، ومعه رجال من الدرعية ومن أَهل المحمل بقيادة رئيسهم محمد العميري .

وتحصن (شديد اللوح) [1] وهو من بلدة الصفرة المعروفة في المحمل على رأَس ذروة جبل ناظرة في حجيرة كبيرة محكمة بالحجارة ومعه رجال من بلده ومن الدرعية وغيرهم . وكان القتال في ذلك الموقع شديدا ، وقد صبر هؤلاء المرابطون البواسل صبرا جميلا ولم ينلهم مكروه ، وصار لشديد اللوح شهرة بسببها . وكان يليه بين شعيب قليقل وناظرة سعد بن سعود ومعه جمع من أَهل الدرعية وغيرهم .

واستحكم في شعيب قليقل حسن بن إبراهيم بن دغيثر وأَخوه على مع جمع من أَهل الدرعية ، وتحصن بين البابين ، باب سمحان وباب قلعة البلد المسمى باب الظهرة ، عبد الله

---

(١) بفتح الدال المهملة وتشديد المثناة التحتية وكسرها .

ابن سعود وآل الشيخ ومعهم عدد من الرؤساءِ والأَعيان والشجعان وبنوا خيامهم فيه ، وكان لديهم مدافع كبار . أَما بقية البروج والمتارس فقد كانت على ترتيبها المتقدم إلى أَسفل الدرعية . وهكذا تراصت المحاجى التى ذكرناها آنفا من قليقل إلى وسط الوادي ، كل محجى من جنود الدرعية يقابله مثله من العثمانيين على الوصف المتقدم فيما عدا موضع عبد الله إلى أَسفل الدرعية فلم يكن يواجهه متارس للعدو إلا قليل . ولكن كثيرا من القتال دار في هذا الموقع في أَغلب الأَيام . فمرة يغير إبراهيم بجنوده على من بالرفيعة ومن حولهم في شعيب قرى عمران ، ومرة يغير الجنود وحدهم على المدافعين الموكلين بالحفاظ على تلك المواضع والمتارس

ثم انتقل إبراهيم وعسكره من مواقعه المذكورة آنفا إلى الموضع المعروف بقري قصير شمال الدرعية : ورحل (على أذن) وعسكره من موقعة فى الجهة الجنوبية ونزل فى مواجهة محاجى أَهل الدرعية الجنوبية حيث أَقام تحصيناته قريبا منها وفرق جنوده حول البلد . واستعرت نيران حرب ضارية لم يجرمثلها من قبل بين الفريقين كما يقول ابن بشر ، ولا روي مثلها عن الأَوائل أَو الأَواخر ، وما خلا منها يوم من الأَيام ، وقد استمرأَ أَوار المعارك بالغدو والآصـال . وكان القتال من المحاجى بالبنادق والسيوف

والقرابين ، وتطايرت الطلقـــات والقنابل في الأَرض والفضاء كأَنها رجوم الشياطين .

وأَنزل الله الصبر والسكينة في قلوب أَهل الدرعية المؤمنين ، فقاتلوا العثمانيين حتى ملأُوا الفجاج بالقتلى . فتارة يحملون على العدو في محاجية ، وتارة يحمل العدو عليهم بقيادة إبراهيم ، وأَحيانا يشتبكون بالسيوف ، ونار الحرب مشتعلة دائما في وسط المحاجى وجنوبها وشمالها وفي كثير من جهات الدرعية . فإِذا رأَيت في موضع حربا رأَيت مثله في الموضع الثاني ، ومثله في الآخر ، وفي كل وقعة بينهم ، والغلبة فيها لأَهل الدرعية على العثمانيين إلا قليلا . بيد أَن العثمـانيين كانوا كلمـا قتل منهم أَلف أَتى بدلا منه أَلفان . وتتابعت الأَمداد من مصر إلى الدرعية . ففى كل أَسبوع أَو شهر تـأْتي أَرسال الجنود وقوافل الطعام والمتاع والعتاد .

فلما طال حصار الدرعية وكثرت الأَمداد من مصر ، تناقض أَهل الدرعية يوما بعد يوم ، واستمروا في محاجيهم قرابة ستة أَشهر جرت خلالها وقائع عديدة لا يحيط بها العلم ولا يدركها الحصر . وغاية ما تبين من الأَمر أَن كل رجل من الدرعية كان في مترسه مع رفقته والعثمانيون يحاصرونهم . ولا يعلم أَهل الناحية الغربية ما يجري من قتال في الناحية الشرقية . ولا

يستطيع الرجل أن يترك مترسه لملازمة المقاتلين المستبسلين بعضهم لبعض ، ولكثرة القتال واتساع رقعة الدرعية وترامى أطرافها وتنائى نواحيها بعضها عن بعض بمسافات شاسعة .

اضطرام القتال حول الدرعية

ظل فيصل وأخوه سعد ومن معهم من أهل الدرعية وغيرهم صامدين عند السلماني بعد تراجعهم من متارس سمحة ، فأنشأوا تحصينات عند هذا النخل ، وحملوا على العثمانيين فأوقعوا بهم وقتلوا كثيرا منهم وأخرجوهم من دار السلماني . ثم دارت وقائع كثيرة في هذا الموضع . وأراد العثمانيون بعدئذ أن يحملوا على المتارس الجنوبية قبل أن يقيم أهل الدرعية محاجى ، فاشتبكوا معهم في معركة استمرت منذ العصر إلى ما بعد العشاء . وتبعتها واقعة أخرى عند شعيب البليدة في الجهة الجنوبية سقط فيها قتلى من الفريقين . واحتدم القتال مرة أخرى عند البليدة وتمكن العثمانيون في هجومهم على أهل الدرعية في متارسهم من الاستيلاء عليها . ولم يجزع الموحدون بل استمروا في النضال منذ الظهيرة حتى العصر . وحملوا على أعدائهم وأخرجوهم من المحاجر ، وأردوا عديدا منهم واستولوا على قتلاهم .

معركتا شعيب قليقل وعرقة وتحريق القرية :

نشبت معركة كبيرة في شعيب قليقل بالجهة الشمالية على

أَثر هجوم شنه العدو على أَهل الدرعية ، فثبتوا له وقاتلوه وتحصن العثمانيون في مواجهة متارس الدرعيين واصيب الفريقان بخسائر بشرية . ثم أَغار بعض فرسان إبراهيم على قرية عرقة أَسفل الدرعية ، وكان قتال أَسفر عن مقتل ثلاثين رجلا أَو نحو ذلك من رجالها . فولى الباقون وجوههم شطر الدرعية لينضموا إلى أَهلها المقاتلين ، واستولى العثمانيون على عرقة ، وأَشعلوا فيها النيران ثم تركوها شأَن القتلة المخربين من أَعداء الإنسان ومنتهكى الشرائع والأَديان في قديم العهود والأَزمان . « فويل لهم مما كسبت أَيديهم وويل لهم ممايكسبون »

وقد أَرسل عبد الله إلى بلدة عرقة مائة رجل ليحفظوا ثمر النخيل ، إذ كان قد نضج فبعث إبراهيم إليهم بعض فرسانه فأَجلوهم عن البلدة .

امتداد القتال الى جميع جهات الدرعية :

وقعت بعد ذلك معارك عديدة شملت كل جهات الدرعية . وكان شعار أَهل الدرعية النصر أَو الموت في سبيل الله . فلم تنخلع قلوبهم لما وجدوا عليه إبراهيم من إصرار على فتح مدينتهم العريقة مركز الدعوة ومعقل أَنصارها من آل سعود . وما فت في عضدهم أَن رأَوا هذا الجندي العثماني السفاح يسير إليهم بعسكر

كثير ، وقد انضم إليه أَمير الرياض ناصر بن حمد بن ناصر العايذي ، ومعه عدة رجال من أَهل الرياض وأَهل منفوحة وأَهل الخرج وغيرهم . وكان إبراهيم لما طالت الحرب قد أَشار عليه أَناس من رؤساء أَهل نجد الذين أَعانوه أَن يأَخذ من كل بلد رجالا يقاتلون معه في الدرعية فعمل بمشورتهم ، أَلا ساءَ ما يفعلون . ولما بلغ في مسيرته بلدة عرقة التى أَشعل جنوده فيها النيران حاصر من فيها وضربهم بالمدافع ، وأَخرجهم على أَن يؤمنهم على دمائهم وسلاحهم ، فقصدوا الدرعية .

اشتعال النار في مخازن ذخيرة العدو :

في أَثناءَ هذه الحرب اشتعلت النار في مخازن ذخيرة العدو ، وكانت أَصوات انفجار الرصاص والبارود تسمع كالرعود الهوادر وتبرق كالصواعق على مسيرة ثلاثة أَيام أَو أَربعة . ونجم عن ذلك هلاك خيل ورجال ، واحتراق خيام وأَثاث ومؤن ، وفرار الجنود العثمانيين هائمين على وجوههم إلى رءَوس الجبال ، وقد وقع في قلوبهم الرعب ودب الوهن . ولقد هم أَهل الدرعية أَن يحملوا عليهم في خيامهم ويدهموهم فيها ولكنهم لم يفعلوا . ويؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي لهذا

الحريق بقوله (١) إنه في منتصف شهر رمضان سنة ١٢٣٣ ركب إبراهيم إلى جهة من نواحى الدرعية لأَمر يبتغيه وترك نائبا عنه ، فاغتنم رجالها المجاهدون غيابه وهجموا على هذا النائب على حين غفلة وقتلوا عدة وافرة من العساكر واحرقوا الجبخانة (الذخيرة) . فأَصيب جنود إبراهيم بالفزع وارتحل جملة منهم في دفعات ثلاث برا وبحرا يفقد بعضهم بعضا .

وأَرسل إبراهيم رجاله إلى جميع نواحى نجد يأَخذون من كل بلد ما فيها من ذخيرة غصبا ، وجاءَته بعد ذلك الذخائر والرجال من مصر في قوافل تنثال تباعا عليه في مخيمه بالدرعية . كما أَتت عليه قوافل من الأَرز والحنطة وجميع حاجات عسكره من جميع نواحى نجد . وقد منح الأَمان لكل من خرج منها سواءَ من أَهل النواحى أَو من أَهلها .

مصرع بطل مغوار :

مات شهيدا في هذه الحرب فيصل بن سعود بن عبد العزيز إذ أَصابته رصاصة وهو يمشى من موضع إلى موضع ، وقد رمى من موقع لا تبلغه الرمية لبعد مسافته . وكان رحمه الله مقداما مهيبا ورعا يضرب به المثل في زمانه بالشجاعة . وكان مصرعه

(١) تاريخ عجائب الاثار ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٥٧٩ وما بعدها .

في جمادى الآخرة سنة ١٢٣٣ . وخلفه في محجاه أخوه تركي . وجرت عدة وقائع بين العثمانيين وأهل الدرعية في المحاجى تبادل فيها الفريقان الهجوم .

توالى المعارك :

ثم توالت الوقائع بين الفئتين فنشبت إحداها في كتلة الشعيب جنوب الدرعية ، وأعقبتها أخرى في قري عمران عند نخل الرفيعة في الشرق . ثم حمل أهل الناحية الشمالية على أصحاب المدافع من جند إبراهيم وقتلوا بعضهم ، وأرادوا أن يجروها فوجدوها مشدودة بسلاسل من الحديد ، وكان العثمانيون قد ملأوا المدافع برصاص البنادق والكبريت وأطلقوها على أهل الدرعية فأصابوا عددا منهم ثم تراجعوا . وممن قتل في تلك المعركة حسن وعلى ولدا إبراهيم بن دغيثر ، وعبد العزيز بن عبد الكريم بن معيقل من أهل الوشم .

وقع بعد ذلك قتال في الرفيعة ، وذلك أن إبراهيم سار بعسكره من مخيمه ومعه مدفعان ، وسار خلفه القرابة وأعوانه من الأعراب وهم أهل الخرج وناصر صاحب الرياض ورجاله . وهاجم فرسانَ الدرعية ومتارسها ومحاجيها التى كانت في شعيب الرفيعة فكانت له الغلبة . بيد أن فهد بن عبد الله بن عبدالعزيز

ظهر عليهم من الرفيعة ومعه جمع من أَهل الدرعية وأَهل سدير وغيرهم فدار قتال شديد ، وحمل عليهم إِبراهيم بالخيل فأَوقع فيهم قتلى منهم قائدهم فهد رحمه الله . فتكاثرت الأَفزاع من الدرعية وأَخذت تحمل على العدو ، فأَنهزمت خيله وقرابته ومن معهم من أَهل تلك النواحى وقتل كثيرون منهم . ثم كر إِبراهيم راجعا فثبتوا له صامدين ، واقتتل الفريقان قتالا شديدا استمر منذ طلوع الشمس حتى الظهيرة ، وانفضت المعركة عن قتلى كثيرين منهما . ولم تهدأَ المعارك رغم ذلك لتصميم كل فريق على الإِطاحة بالآخر .

وقد اشتدت الضائقة بأَهل الدرعية لما ابتلاهم به الله من نقص في الثمرات والأَنفس فعزت الأَقوات . وخرج من المدينة المحاصرة كثير من أَهلها ومن سائر النواحى . وفي الأَيام الأَخيرة من الحصار خرج في الظهيرة غصاب العتيبى قاصدا إِبراهيم ، وكان غصاب رئيس الخيالة في الدرعية وممن يظن بهم الصدق مع آل سعود والصبر معهم وسر خروجه العدو فلج في طغيانه ، على حين أَصاب أَهل الدرعية كآبة ووهن من ذلك .

الوشاية من ضعاف النفوس والدعم من محمد على :

فلما كانت صبيحة السبت الموافق الثالث من ذي القعدة

اقتحم العثمانيون محاجى أَهل الدرعية الجنوبية والشمالية والشرقية والغربية ، وأَحدقوا بهم من كل صوب فأَلحقوا بهم الهزيمة . ومن العوامل التى ساعدت على ذلك أَن ضعاف النفوس الذين أَصابهم الهلع فانضموا إلى إبراهيم أَخبروه بعورات المجاهدين ، فعلم منهم الموقع الذي لا يعرف عن أَهله شدة في الحرب والموقع الذي يتفرقون عنه بالليل ، والموقع الذي ليس فيه إلا قليل ، والموقع الذي يدخل منه على أَهل الدرعية وهم لا يعلمون .

وهكذا انجلى للعدو ما كان خافيا عليه من خطط الموحدين المناضلين ، وظهر ما استتر ، فانكشفت المدينة المطوقة الصامدة كلها أَمامه . ومن العوامل التى زادت إبراهيم بأَسا ودعما ورجحت كفته في الحرب أَن الامداد كانت ترد إليه من مصر مددا تلو الآخر من المصريين المجندين ومن المغاربة وغيرهم .

فأَرسل تلك الليلة إلى أَسفل الدرعية مدفعا وعسكرا وأَمرهم أَن يحاربوا من يلقونه ، قاصدا من ذلك أَن يشغل المجاهدين بعضهم عن بعض . ثم جمع رجالا أَشداء من الخيالة والقرابة وأَرسلهم إلى (على أَزن) في الجهة الجنوبية ودفع بهم هذا عند طلوع الفجر إلى محجمى عبد الرحمن بن سعود وهو من فوق

مشيرفة نخل سعود بن عبد العزيز ، فوجدوه خاليا فدخلوا واستولوا عليه وهو خلف محاجى أَهل الدرعية من جهة البلد . ونقبوا جداره المطل على شفير الوادي وجعلوا منه مترسا ثم ارسلوا على المجاهدين وابلا من النار ينصب عليهم بين السماءَ والأَرض فلا يسلم منه محجى من المحاجى الجنوبية والشمالية . وفوجىءَ أَهل الدرعية بالعثمانيين وقد أَتوهم من خلفهم من جهة مشيرفة وحملوا عليهم أَيضا من أَمامهم ، فأَنهزموا عن محاجيهم . ودار قتال كبير سقط فيه كثير من جنود الفرقين صرعى ، وكان ممن قتل من أَهل الدرعية إبراهيم بن سعود ابن عبد العزيز . وتفرق أَهل الدرعية في بلدهم ، كل أَهل حى قصدوا حَيهم واتخذوا من سوره ودوره مترسا . وقصد سعد ابن عبد الله بن سعود قصر غصيبة المشهور الذي بناه سعود ابن عبد العزيز وجعل بابه من حديد ، فدخله واعتصم به ومعه عدة رجال من الأَعيان وغيرهم . فحمل إبراهيم على القصر بالمدافع وثلم رءوس البروج والجدران . وحملت جنوده على أَهل الدرعية في منازلهم واقتحموا بعضها . واحترب العثمانيون وأَهل السهل من أَهل الدرعية وهم من البجيري والحوطة والنقيب والمريح وكانوا موكلين بصون ناحيتهم ومنازلهم .

صلابة أهل السهل والبجيري البواسل :

كان عبد الله بن سعود ومن معه من الأَعيان في موقعهم بين البابين : باب الظهرة وباب سمحان . فلما رأى ما أَنزله العثمانيون من تدمير بقصر غصيبة وما حوله انتقل من سمحان وقصد منزله في الطريف ، وترك مخيمه ومدافعه في موضعه ذاك . فما لبث إبراهيم أَن احتل بعسكره ومعداته موقع عبد الله ووجه مدافعه إلى باب الظهرة وتابع الرمى والقصف . وتفرقت جنوده تهاجم أَهل السهل لتستولى على البيوت والنخيل وكادوا أَن يأَخذوه عنوة . وتصدى لهم الرجال مدافعين عن حماهم لا يهابون وإن كانت وطأَة العثمانيين شديدة عليهم . فكف العثمانيون عنهم وهموا بالمصالحة . فقال نفر من أَهل السهل لقومهم لا صلح بلا إجلاء للجنود المعتدين أَعداءَ الحق عن البيوت والنخيل وقتل ما أَمكن منهم . فشمر عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وشهر سيفه ، والتف حوله أَهل البجيري وقاموا على العثمانيين من كل جانب قومة رجل واحد كأَنهم الضراغم ، وقاتلوا قتالا يشيب من هوله الوليد ، فثار النقع وأَظلمت الهجيرة كأَنها الليل وصريخ السيوف في الرؤس كأَنه صهيل الخيل ، فأَخرجوهم منها صاغرين وقتلوا منهم مائتين .

فما وطئت قدم من موضع إلى موضع إلا على قتيل . وكان أن استبد الوجل بالعدو بعد هذا الفشل الذريع .

عرض المصالحة وفشل المفاوضات الأولى :

أَرسل أَهل الدرعية إلى إبراهيم يطلبون الصلح بعد أَن أَخرجوا جنوده من منازلهم ونخلهم وقتلوا كثيرا منهم ، فلم يكن في وسعهم أَن يستمروا في القتال بعد أَن دمرت حصونهم وخربت ديارهم ، وأَحرقت بلدهم ، واستشهد المئات منهم وانقطعت عنهم الامداد ، على حين كان يوفد العدو أَضعاف ما يفقده من رجال أَو أَسلحة . وكانت نصرتهم الأَخيرة التى ذكرناها تمثل أَفضل وقت للحصول على صلح مشرف ، وذلك بالنظر إلى ما ترتب عليها من إلقاء الذعر في قلب العدو . وقد صدق ظن الرجال كما صدق جلادهم ، إذ أَجابهم إبراهيم إلى المصالحة بعد أَن كان آبيا ، ولان لهم بعد أَن كان متغطرسا قاسيا . فخرج إليه من الأَعيان عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ابن سعود ، والشيخ العالم على بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن مشاري بن معمر . فأَرادوا منهم أَن يصالحهم على البلد كلها ، فأَبي أَن يصالحهم إلا على أَهل السهل أَو يحضر قائدهم عبد الله بن سعود . فأَنقطع حبل التفاوض بين الفريقين وكان ذلك يوم الأَربعاء الموافق السابع من ذي الحجة .

عقد الصلح بعد سقوط آخر موقع :

زحف العثمانيون في السهل لمحاربة عبد الله ، ودارت حرب ضروس على أَهل الطريف من جهاته الأَربع ، إذ استدار إبراهيم وجنوده إليه ووجهوا إليه مدافعهم ورموه من رأَس جبل سمحان ، فاشتعلت النيران من كل ناحية ، فثلمت مقاصير آل سعود وخرقت ، فطمع العثمانيون واستشرفت نفوسهم لأَخذها عنوة في ذلك اليوم العصيب الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أَرضعت.

ولكن عبد الله أَخرج المدافع التى كانت في القصر ونقلها إلى مسجد الطريف ورماهم بها ، وإنحاز إليه رجال كثيرون من أَهل البجيري وأَهل النواحى ودارت الحرب نحو يومين . ثم تفرق عن عبد الله أَكثر من كان معه وبذل لهم الدراهم فأَخذوها وولوا هاربين فلما رأَى ذلك بذل نفسه للعثمانيين وفدى بها النساءَ والولدان والأَموال . فأَرسل إلى إبراهيم يطلب المصالحة ، فأَمره هذا أَن يخرج إليه فخرج ، وتصالحا على أَن يسلمه إلى السلطان في الآستانة فيقضى فيه بما يراه من إحسان أَو إساءَة .

وأَما قصر غصيبة الذي احتمى به سعد بن عبد الله كما سبق القول ، فإن إبراهيم لما نزل سمحان أَمطره بالقذائف النارية حتى ثلم جدرانه فصالح أَهله وقت مصالحة أَهل السهل .

وهكذا انعقد الصلح بعد أن قاوم عبد الله بن سعود وصحبه من الموحدين حتى آخر طلقة وآخر نفس ، ولم يسلم نفسه إلا انقاذا لذرية ضعاف ، ضاربا بذلك مثلا فريدا في البطولة والتضحية ، مسجلا على صفحات من نور في تاريخ العروبة والإسلام (١) .

قتلى العثمانيين :

نقل المؤرخ الشيخ عثمان بن بشر عن الرواة أن عدة من لقى مصرعه في الحرب من العثمانيين منذ أرسلهم محمد على من مصر إلى رجوعهم إليها ، بلغت اثنى عشر ألف رجل . ويدل هذا العدد الضخم على ضراوة القتال وشدة أبطال الحرية من أهل الدرعية في جلادهم وبلائهم المشهود في الحرب والدفاع والمقاومة ، وطول باعهم في استخدام ما أتيح لهم من أسلحة محدودة في كمها ونوعها بالقياس إلى أسلحة العدو . ولا غرو فهم باعثو الدين الحق وهم رهبان الليل فرسان النهار ، شأنهم في ذلك شأن أسلافهم من جنود النبى عليه السلام وخلفائه

(١) لم يفر رجال أهل الدرعية المناضلون رغم هول النيران التى صبها عليهم العدو ومحاصرته لهم من كل جانب وقد دخلوا جميعا إلا نفرا قليلا منهم سعود ابن عبد الله بن محمد بن سعود من الطريف ، وقد أسره جنود الخيالة العثمانيون بعد تسلله من البلدة هو ومن معه واقتادوه إلى إبراهيم ، فقتل صبرا .

الراشدين ، أولئك الصحابة الذين نزل فيهم قوله تعالى « أَشداءَ على الكفار رحماءَ بينهم » .

ولقد كان للدرعية القدح المعلى في إلحاق تلك الخسارة الجسيمة بجيش العدو لأَمرين أولهما : بطولة رجالها وقوة شكيمتهم في الحرب ، والثاني كثرة عدد أَجنادها المناصرين للدعوة وصدقهم في مواقع اللقاءَ . ويرى ابن بشر على سبيل الاستنتاج في شأَن من قتل من الأَعداءَ في الوقائع المختلفة أَنه إذا كان قد هلك منهم ذلك العدد الكبير ، فإن من قتل في الرس وعنيزة وشقرا وضرما أَلفان على الأَكثر وأَلف وخمسمائة على الأَقل ، وأَما الباقي وهو أَضعاف ذلك العدد ففى الدرعية .

شهداء الدرعية في الحرب :

أَما شهداءَ المجاهدين الأَبرار الذين لاقوا ربهم في حرب الحصار من أَهل الدرعية ومن كان معهم من أَهل النواحى ، فقد بلغ عددهم حسب تقدير مؤرخنا الحجة أَلفا وثلاثمائة رجل ، وهو عُشر من قتل من جنود العدو على الرغم من رجحان كفته في العدة والعتاد .

ومن هؤلاءَ على بن حمد بن راشد العرينى قاضى ناحية

الخرج ، وصالح بن رشيد الحربي من أهل الرس ، وعبد الله ابن صقر الحربي من أهل الدرعية .

وممن قتل بالقرابين والبنادق رشيد السردي قاضى الحريق والحوطة ، وعبد الله بن أحمد بن كثير ، وعبد الله بن محمد ابن عبد الله بن سويلم ، ومحمد بن عيسى بن سويلم ، وهو من أهل الدرعية ، ومحمد بن إبراهيم بن سدحان صاحب شقراء وغيرهم .

تعذيب عالم جليل :

كان الشيخ العالم القاضى أحمد بن رشيد الحنبلى صاحب المدينة في الدرعية من رجال عبد الله بن سعود ، فأصدر إبراهيم السفاح أمره بتعزيره ، فضرب وعذب وقلعت جميع أسنانه .

مصرع القائد البطل الشهيد عبد الله بن سعود :

أمر إبراهيم عبد الله بن سعود بعد المصالحة بيومين أن يتجهز للمسير إلى السلطان ، وأمر (على رشوان) و (على الدويدار) ومن معهما من الجند أن يصحبا عبد الله ، فرحل معهم من الدرعية وليس معه من قومه إلا ثلاثة رجال أو أربعة . وسار به الجنود العثمانيون حتى بلغوا مصر حيث اقتادوه إلى محمد على . وارتحل في اليوم التالى يصحبه حراس وخادم له إلى

الأسكندرية ومنها إلى استنابول (الآستانة) . ولما وصل إليها في شهر جمادي الأُولى سنة ١٢٣٤ طافوا به في المدينة وقتلوه عند باب همايون ، وقتلوا أَتباعه أَيضا في نواحى متفرقة كما يقول الجبرتي في تاريخه (١) .

رحم الله الإمام عبد الله بن سعود وجزاه عن دفاعه وجهاده خير الجزاء ، وأَنزله منزل صدق في عليين : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أَمواتا بل أَحياءَ عند ربهم يرزقون » . وماكان مقتله على تلك الصورة ليشينه ، ولكنه يدمغ قاتليه السفاحين السفهاءَ بالعار ، ويصمهم بالخروج على دين التوحيد .

وكأَن لسان حال عبد الله في مصرعه هذا قول الشاعر :

ولست أَبالى حين أَقتل مؤمنا
على أَي جنب كان في الله مصرعى
وذلك في ذات الإله وان يشأَ
يبارك على أَوصال شلو ممزع

وفي سيرته الغراءَ يقول الشيخ ابن بشر إنه كان مقيما للشرائع ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، كثير الصمت ،

(١) عجائب الاثار . المرجع السابق . ص .

حسن السمت ، باذل العطاء ، موقرا للعلماء . وكان صالح التدبير في مغازيه ، ثبتا في مواطن اللقاء ، وفي مصابرة الأعداء . وكانت سيرته في مغازيه ، وفي الدرعية ومجالس الدروس ، وفي قضاء حوائج الناس ، وغير ذلك على سيرة أبيه سعود .

عجب فالله تعالى يقول :(إن يكن منكم) ......

وقد استشهد من أهل الدرعية من آل سعود نحو من واحد وعشرين رجلا ، منهم فيصل بن سعود ، وأخوه إبراهيم ، وأخوه تركى وقد مات في آخر الحصار مريضا ، وفهد بن عبدالله ابن عبد العزيز ، وفهد بن تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود ومحمد بن حسن بن مشاري بن سعود ، وأخوه إبراهيم ، وأخوه عبد الرحمن ، وعبد الله بن إبراهيم بن حسن بن مشاري بن سعود ، وإبراهيم بن عبد الله بن فرحان ، وعبد الله بن ناصر ابن مشاري ، ومحمد بن عبد الله بن محمد بن سعود ، وسعود ابن عبد الله بن محمد بن سعود ، وابنه محمد ، والباقون من آل ثنيان (١) ، وآل ناصر (٢) ، وآل هذلول (٣) . ويستدل من استشهاد هذا العدد من آل سعود على صدقهم في الحروب ومباشرتهم القتال بأنفسهم . وقد توفي عبد الله بن عبد العزيز ابن محمد بن سعود بعد انقضاء الصلح .

شهداء النواحى :

واستشهد من آل معمر أَهل العيينة خمسة عشر رجلا منهم رجال في معركة ضرما . واستشهد من آل دغيثر ستة رجال . واستشهد محمد بن الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب . واستشهد من سائر نواحى نجد من الرؤساء ومن دونهم خلق كثير . فبلغ عدد شهداءَ أَهل الوشم نحو مائة رجل ، ونحو ثلاثين رجلا من أَهل الحريق والحوطة ، ومن ثادق والمحمل نحو أَربعين رجلا ، ومن أَهل عرقة نحو أَربعين أَيضا ، ومن منفوحة أَكثر من خمسين رجلا ، ومن أَهل حريملاءَ والأَفلاج وسدير والقصيم وغيرهم عدد كثير .

شهداء أعدمهم الطاغية ابراهيم :

لما صالح إِبراهيم أَهل الدرعية واستقر به المقام فيها وشى لديه في أَعيان المسلمين وأَهل الصلاح والعلم منهم أَناس فاسقون من أَهل نجد ، فرموهم بالبهتان وتظاهروا عليهم بالإِثم والعدوان . فقتل المجرم العثماني عدة رجال منهم . بعضهم قتل صبرا بالقرابين والبنادق ، وبعضهم وضع في فوهة المدفع وصار رصاصة للبارود فمزق جسده إِربا إِربا وتطايرت أَشلاؤه في الجو

١ هـ.ماذكره حسن فتح الباب .

عهد الضياع واستشراء الفتن

استسلمت الدرعية للقضاء المحتوم وتلقت هذا المصاب بالرضا والتسليم وجعلت العساكر تذرع أسواقها جيئة وذهاب ونقل إبراهيم باشا معسكره وخزائنه وأسلحته إلى (العويسية) أسفل الدرعية وفرق حراسه وجنوده وكتائبه في مواضع من الدرعية واستخفوا بها وبأهلها وجعلوا يجبرون أهلها على حمل الماء لهم لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا وجعلوا يجبرونهم على هدم المنازل ونقل أخشابها ومخلفاتها إلى معسكراتهم للوقود بها وشالت قيمة ذوي السمت والوقار وعلت قيمة الفسقة والمنافقين واهدرت القيم والمثل العليا والطاعة والجماعة وارتكبت المنكرات واهملت أوامر الله وعطلت شرائعه ودبت الفوضى في البلاد وعاد الحال في الدرعية بل في نجد كلها إلى ما يشبه الجاهلية الجهلاء ..

وظل إبراهيم باشا في الدرعية على هذه الحال قرابة تسعة أشهر وصدرت الأوامر إليه بنقل بقية آل سعود وآل الشيخ وذراريهم إلى القاهرة ولم يبق منهم إلا من اختفى أو هرب .

وممن اختفى الأمير تركي بن عبد الله وأخوه زيد والشيخ

علي بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب هرب إلى قطر وعمان .. وهرب أناس آخرون ..

وفي هذه الأثناء وردت الأوامر من مصر إلى إبراهيم باشا بتدمير الدرعية تدميرا كاملا واحراقها وإجلاء أهلها عنها وقطع نخيلها وأشجارها وتركها خرابا يبابا كأن لم تكن . فاعملوا فيها المعاول وأوسعوها تخريبا وهدما واحراقا وتفرق أهلها في الأقاليم الأخرى وتشتتوا نهب الضياع والخوف والجوع ..

ولما تم فيها القضاء المحتوم وتركت خاوية على عروشها ليس بها ساكن ولا داع ولا مجيب ونقل إبراهيم معسكره إلى (الحور) في أعلى (ضرما) فاقام به أكثر من شهر وجعل يغزو العربان وينهب منهم وضرب بخنجر كادت تقضى عليه .

وانتقل من (الأحور) إلى المدينة المنورة وأخذ معه حجيلان ابن حمد أمير القصيم وتوفي بالمدينة .

وكان نفسه لم تطب بمغادرة نجد قبل أن يجوس خلالها ويقتل من ثبتت لديه مساعدته للدرعية فارسل فرقا إلى بعض الأقاليم . ومن ذلك أن من وكل إليه الذهاب للجبل قتل محمد ابن عبد المحسن بن علي أمير الجبل وأخاه عليا وبعض الأعيان هنالك . ومن وكل إليه أمر القصيم قتل عبد الله بن رشيد أمير

عنيزة . ومن وكل إليه أمر الجنوب قتل آل عفيصان فهد بن سليمان وأخوه عبد الله ومتعب بن إبراهيم واستأصل جميع خزائنهم وأموالهم وشرد ذراريهم .

واخذوا أيضا علي بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقتلوه قرب الدرعية .

محمد بن مشاري بن معمر.

ما أن تركت الدرعية خرابا يبابا وفارقها أهلها وعادت العساكر إلى مصر حتى طمع محمد بن مشاري بن معمر في الانتقال إليها من العيينة وكان غنيا ولديه أسلحة واستعداد وهو أيضا بينه وبين آل سعود مصاهرة فأمه أخت الإمام سعود ابن عبد العزيز ..

نزل الدرعية وبدأ في عمارتها ودعا إلى الامارة وانضمام بلدان نجد إليه فكتب إلى أهل البلدان ودعاهم لذلك والتف حوله من التف وقامت إمارته كان هذا عام (١٢٣٤ هـ) .

وفي سنة (١٢٣٥ هـ) أوجس منه بعض أهل الأقاليم خيفة فكتبوا إلى ماجد بن عريعر رئيس الأحساء وأشاروا عليه بان هذه الحركة في مهدها قبل استفحال أمرها .. فاستجاب لذلك

وجاءَ فانضم إليه أَهل حريملاءَ والخرج والرياض فنازلوا بلاد منفوحة ووقع بينهم وبينه قتال وأَخيرا صالحوه فارتحل عنهم.. وكتب إليه ابن معمر وتعطفه وبعث إليه بشيءَ من الهدايا والاموال وأَخبروه أَن ماله قصد يخالف ما يريده .. فارتحل ابن عريعر وتركه .

وبدأَ شأَن ابن معمر يكبر وانضمت إليه بعض الأَقاليم والبلدان وحملت المؤن والأَطعمة إلى الدرعية .

ووفد إليه فيها تركي بن عبد الله وأَخوه زيد آل سعود فصارا عونا له ومساعدان . .

وامتنع عن متابعته حمد بن مبارك صاحب حريملاءَ وناصر ابن حمد بن ناصر العائذي صاحب الرياض وابن زيد بن زامل صاحب الخرج . واستعدى هو طائفة من أَهل حريملاء واغراهم بالمال والسلاح فثاروا علية مما جعل حمد بن مبارك يستسلم للأَمر الواقع ويفد على ابن معمر ويبايعه .

فدانت بلدان نجد لابن معمر خصوصا العارض والوشم وسدير .

مشاري بن سعود :

في هذة الاثناء كان مشاري بن سعود بن عبد العزيز قد هرب من مصر وكان من ضمن الذين نقلوا إلى هناك وبدأ يكون نفسه قبل المامه بالدرعية فانضم إليه جمع من القصيم والزلفي وثرمدا وجمع من أهل الدرعية وعبأ نفسه بالمؤن والأطعمة فدخل الدرعية ونزل في بيت من بيوت اخوانه .. فكبر المصاب على ابن معمر ايمتنع عليه ويطرده أم يستسلم له ففضل الأخيرة واستسلم له وبايعه فاستقام الأمر لمشاري بن سعود ووفد عليه أهل سدير مع رئيسهم محمد بن جلاجل وأهل المحمل والشعيب والرياض وأكثر أهل الوشم فبايعوه وقد بايعه أهل الدرعية .

وقام معه تركي بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز وابناؤه عبد الله ومحمد وعبد الملك وكانوا قد هربوا من الدرعية وقت المصالحة كما قدم عليه مشاري بن ناصر وحسن بن محمد بن مشاري وكانا أيضا قد هربا من الدرعية .

ولما استتب له الأمر أمر بالغزو فجمع كل من حوله وغزا السلمية من الخرج واستولى عليها وعلى اليمامة وأخرج البجادي منها ثم نازل الدلم فخرج عليه زقم بن زامل فبايعه ثم قفل راجعا .

ابن معمر يعود :

وقد ندم ابن معمر على الاستسلام بدون مسببات فاظهر التمارض في الدرعية ورحل إلى سدوس فكاتب آل حمد أَهل حريملاء فاستجابوا له ودعوه إليهم فتوجه إلى حريملاء واستوطنها وأَعلن المخالفة لمشاري وأَخرج من كان في قلعة حريملاء وضبطها وأَقام فيها أَياما وكاتب فيصل الدويش فبعث إليه فرقة من قبيلة مطير واجتمع حوله جيش فسار بهم إلى الدرعية ودخلوها بغتة فدخل بن معمر على مشاري بن سعود في قصره فقبضوا عليه وسجنوه وجعل ابن معمر ابنه مشاري في القصر وواصل سيره إلى الرياض حيث تركي بن عبد الله ومعه عمر بن عبد العزيز وبنوه فدخلها بن معمر وهرب تركي ومن معه إلى الحائر .. فاستقر ابن معمر في الإمارة واستتب له الأَمر .

وكانت الدولة قد وجهت حملة إلى نجد بقيادة (ابوش أَغا) ونزلت عنيزة واستقرت فيها واطاع لها القصيم . فكاتبه ابن معمر وذكر له انه تابع للسلطان وأَنه قد أَمسك مشاري ابن سعود . فأَمره(ابوش أَغا) على إمارته فكتب إلى الأَقاليم بذلك فوفدوا إليه في الدرعية .

تركي بن عبد الله :

جرد تركي بن عبد الله عزمه وهم بالعمل فانتقل من الحائر بقوة صغيرة معه وقصد (ضرما) فلما وصلها أخبر ابن معمر بذلك فبعث ابن معمر ابنه مشاري بسرية قوامها مائة رجل لتتبع آثار تركي وبعث أمامه رجلا يتسقط الأخبار فقبض عليه تركي وأخذ الكتاب الذي معه لاتباع ابن معمر وعمد تركي إلى مصر هنالك وأخذ من صاحبه سلاحا ولما كان بالليل خرج تركي وقبض على شخص من القوم الذين يوالون لابن معمر وسريته المتحصنة في دار هنالك وأخذ ه معه لكي يستفتح له الباب ففتح الباب فبادرهم تركي بسيفه وفرق جمعهم وهربوا ثم عادوا وانضموا إلى تركي وبايعوه . وهرب مشاري بن معمر على فرسه ومعه فارس أو فارسان .

فاقام تركي في (ضرما) أيام انضم له فيها أقوام من البداة والحاضرة وسار من ضرما إلى الدرعية وذلك سنة (١٢٣٥ هـ) فدخلها بمن معه وقصد بن معمر في قصره فهم بالامتناع ولكن خذله قومه فامسكه تركي وحبسه . ثم واصل سيره إلى الرياض فتمكن من القبض على مشاري بن معمر فاستولى على الرياض وتم حبس الولد وأبيه . وقال تركي لابن معمر : إذا اطلقت مشاري بن سعود من الحبس اطلقتك وإلا قتلتكما .

فكتب ابن معمر إلى عشيرته في سدوس يطلب منهم اطلاق مشاري فامتنعوا من اطلاقه خوفا من الترك لانهم قد وعدوهم بتسليمه إليهم .. فاقبل الترك مع (خليل أَغا) وفيصل الدويش فنزلوا سدوسا وسلموا لهم مشاري عند ذلك أَمر تركي بضرب عنقي ابن معمر وابنه ..

فسار الترك ومعهم الدويش إلى الرياض فحاربهم تركي وصدهم ثم عادوا فنزلوا بلدة ثادق ومنها إلى ثرمدا وكان (ابوش) ومعه جمع من الترك في عنيزة وأَرسلوا مشاري بن سعود إلى عنيزة وحبسة الترك هنالك فمات في عنيزة .

وطفق فيصل الدويش ومعه عساكر ينتظم بلدان سدير فينهب ويخرب ويقتطع ويبيح للعساكر أَن يفعلوا ما يريدون .

وفي سنة (١٢٣٦ هـ) جهز الاتراك حملة أَخري للقضاءِ على هذه التحركات في نجد وكان رئيس الحملة (حسين بك) فانضم إليه ابوش وعساكره فقصدوا الوشم ونزلوا ثرمداءَ وأَمر على البلدان بالتجمع لديه ليغزو الرياض ويخلصها من تركي فاجتمع لديه خلق كثير فتوجهوا مع (أَبوش) إلى الرياض فداهموها وحاصروا تركيا في القصر ومعه ثلة من جنده ولما شددوا عليه الحصار هرب تركي واستنزل البقية بالامان ولكن

لا أمان لهؤلاء الأتراك فقتلوا الجميع صبرا ما عدا عمر بن عبد العزيز وأولاده فقد أجلوا إلى مصر .. بعدها رحل حسين من ثرمداء إلى الرياض وأخذ ما أخذ ونكل وعبث .

الجزرة الرهيبة :

أمر على أهل الدرعية الذين سكنوها بعد بعث ابن معمر لها بان يرحلوا إلى ثرمداء فساقوهم بنسائهم وذراريهم واتخذت لهم أحواش هنالك ووعدوهم أن ينزلوهم أي مكان يشاءون من نجد وأظهروا لهم شيئا من التقدير .

فجاء حسين من الرياض وأمر المنادي أن ينادي في أهل الدرعية من أراد بلدا من البلدان فليحضر من أجل أن نكتب له كتابا بذلك فلما اجتمعوا كلهم لديه أمر الترك أن يقتلوهم جميعا فاعملت البنادق والسيوف والخناجر فقتلوهم جميعا وأخذ الترك أموالهم وبعض أطفالهم وتركوا نساءهم .

وهكذا يفعل هؤلاء الطغاة غلاظ القلوب قليلوا الرحمة مراض العقول . هكذا يفعلون وأن ربك لبالمرصاد

الغوغائية وسفك الدماء واستباحة الاعراض :

بعد هذه المذبحة الرهيبة فرق (حسين بك) جنده في نجد

كلها وضربوا عليها مالا طاقة لها به من الضرائب والاتاوات والنهب والسلب فأَخذو جميع ما في البلدان من الذهب والفضة وحلي النساءَ والطعام والأَواني حتى هربوا على وجوههم في الجبال والبراري وقطعت النخيل فقطعوا نخل رغبة ونخل بلد الداخلة وجلاجل والتويم والحوطة وقتل من حريملاءَ عبد الله بن مانع وعبد الله بن حميد من أَهل الدرعية وضرب سليمان الحر وزامل بن بنيان من أَهل الدرعية حتى ماتا ومن ثادق ضرب عبد الله بن حيدر وعبد الرحمن بن ماجد حتى ماتا أَيضا وحبس الشيخ عبد العزيز بن سليمان بن عبد الوهاب في حريملاءَ ونهب بيته واخذت مكتبته . أَخذها الزملى قاضي حسين وأَشعل النار في بقيتها . وقتل في القصيم عبد الله بن حسن ومحمد بن غانم ..

ولم يبق إقليم ما عاثوا فيه وعبثوا وقتلوا ونهبوا وأَسروا وعملوا الفضائع والفضائح بما لا يمكن أَن يتصور أَو يعمله طغاة التتار والمغول وهكذا تفعل الدولة العلية حامية الإِسلام وردءَ المسلمين .

معـــالم الدرعية وأعلامها

في وادي حنيفة حينما يقبل منحدرا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ويأخذ شكلا متعرجا تحفه الجبال من جانبيه وتنبسط على حافتيه شقائق خصبة تضمر وتتسع حسب تكوين الوادي وطبيعته . في هذه الشقائق تقوم بساتين الدرعية وحدائقها ففيها النخيل والأعناب والأشجار المنوعة وتمتد ما بين (الملقى) شمالا إلى حدود (عرقة) جنوبا بمسافة تقدر بنحو عشرين كيلا وتتخللها بعض الأحياء والبيوت المتناثرة هنا وهنالك وبقية أحيائها وأسوارها وحصونها تقوم على ظهور الجبال المحيطة بها وتطل على ممر الوادي وحدائقه وشقائقه ويتخلل هذا القدر من مساحة الدرعية طولا روافد تنحدر من جبليها وتسقى – غالبا – نخيلها وحدائقها وما زاد يأخذه واديها العظيم ومن هذه الروافد من الناحية الغربية : شقير ، وشقرا ، والخسيف ، والعلياني ، والحريقة ، وغبيراء ، والبليدة ، وكتلة ، وصفار ، والجريبا ، والغاشمية ، وسدير ، وأم العبيد

ومن الناحية الشرقية : دبوس ، وغنيات ، وقري قصير ، وقليقل ، وقري عمران ، والشعيبة ، وقريوه وقميلان ..

وتختلف هذه الروافد كبرى وصغرى وإتساعا وضيقا حسب تكوينها وامتدادها ويدخل العمران والزراعة في هذه الروافد فيشكل اتساعا للبلدة وامتدادا لعمرانها وزراعتها وعلى هذه الروافد والتلال والجبال قامت حصون الدرعية وأَسوارها وابراجها ومناطقها الحساسة التي وزعت عليها فرق الدرعية الحربية أَيام حربها مع جيوش محمد علي ، على ما فصل في مكانه من هذا الكتاب ..

فهناك منطقة (العلب) في أَعلى الدرعية أَول منطقة حصلت فيها المواجهة وهى قرية في أَعلى الدرعية بها نخل لفيصل بن سعود وهناك منطقة (سمحة) نخل في أَعلى الدرعية حصلت فيه الوقعة الأَخري ومنطقة (غبيراءَ) حصلت بها الوقعة الثالثة ومنطقة (قليقل) ومنطقة (كتلة) ومنطقة (الرفايع) ومنطقة (خيسن نصر الله) ومنطقة (السهل) ومنطقة (القرين) .. كل هذه مناطق حصلت بها معارك رهيبة أَبلى فيها أَهل الدرعية بلاءَ حسنا واستبسلوا ومن مسار سور الدرعية الذي سوف نحدده تتبين هذه الأَمكنة وتتحدد ..

ولنطلق مع سور الدرعية من أَعلى جبل (القرين) في الجهة الجنوبية متجهين نحو الشمال الشرقي فوق الجبل مع هذا السور

الضخم المبني بالحجارة والطين على عرض نحو ثلاثة أمتار في الغالب وكل ما بين مائتي متر في الغالب تزوي قلعة بنفس العرض ومادة البناءَ وبها خصاص ومنافذ للبنادق والمدافع كجزءَ من السور في أَمكنة مناسبة في الارتفاع وكشف مداخل العدو ومراقبة تحركاته .. ونمضي مع هذا الاتجاه حتى يعترضنا شعب قريوه وهو شعب به المقبرة العامة للدرعية وبه قبور الأَئمة من آل سعود وآل الشيخ وأَعيان الدرعية وعامتهم ويبرز من السور جناح في طرفه من الشرق حصن لحماية هذا الشعب على بعد نحو ثلاثمائة متر من مسار السور ..

ثم يتجه السور شمالا قاطعا شعب (قريوه) مارا على الظهر المحاذي لحي السهل ثم يقطع شعب (الشعيبة) المقبرة الحالية للدرعية ويعلو بعدها على رأَس واقع بين (قري عمران) ، (الرفايع) و(الشعيبة) ويبرز منه أَيضا جناح يمتد شرقا على أَعلى جبل قري عمران حتى الرفايع وفيه حصون متقابلة شمالية وجنوبية لحماية هذا الوادي ثم يقطع (قري عمران) متجها شمالا في محاذاة (ظهر سمحان) ثم يقطع شعب(قليقل) ويذهب مشملا بمحاذاة حي غصيبة والسلماني حتى (قري قصير) معسكر إبراهيم باشا ويمتد منه جناحان على حافتيه من أَعلى الجبل وبها حصون ومعاقل لحماية هذا الشعب ، ثم يقطع

هذا الوادي متجها شمالا بمحاذاة العودة إلى منطقة سمحة بأعلى الدرعية ثم ينعطف مغربا قاطعا وادي حنيفة بمحاذاة شعب الحريقة ثم يتجه مجنبا جاعلا العودة يساره مارا (بقصر الغياظي) للأمير ناصر بن سعود بن عبد العزيز آل سعود ثم ينحدرا مارا باسفل شعب (غبيراء) ويأخذ مع أسفل شعب (جرار) ويعلو الجبل من هنالك جاعلا (أم السـلا) و (الجابرية) يساره قاطعا أسفل شعب (البليدة) متجها جنوبا جاعلا شعب (كتلة) يساره متجاوزا شعب (السديرية) جاعلا (حى الطريف) يساره قاطعا شعب (صفار) أخذا على الجبل الذي بينه وبين (وادي حنيفة) قاطعا (وادي حنيفة) أخذ اعلى الجزع الذي يلي أسفل (المليبيد) ثم يعلو الجبل الجنوبي ويتجه شرقا حتى يلتقي (بالقرين) من حيث بدأنا ..

وهناك مقطع متين يقرن ما بين جانبي السور ينزل من (ظهرة ناظرة) مما يلي قلعة شديد اللوح (ويمر جنوبي) نخل السلماني (جازعا) (وادي حنيفة) خارجا على نخل (أم السلا) صاعدا جبلها ملتقيا بالسور هنالك .

وهناك قلاع وحصون وأبراج منتشرة في جوانب الدرعية في الأمكنة المهمة منها .. وهناك أحياء وأجنحة و (حجايا) وتلال ومعاقل كثيرة نذكر منها :

حي غصيبة حي آل دغيثر واقع على مثلث جبل يطل على حي قليقل من ناحية ويطل على وادي حنيفة من ناحية أَخري ورأَس المثلث واقع بين (قليقل) و (حنيفة) والجانب الشمالي الشرقي محاط بسور ضخم جدا وله باب يتوسطه وضع على شكل ملتو بحيث لا يقابل ما هو خارج السور وحي غصيبة هذا هو الذي التجأَ إِليه الأَمير عند اشتداد أَزمة الحصار على الدرعية وهو لم يحتل حربا وإِنما استسلم حينما استسلمت الدرعية .

حي ظهرة سمحان محاط بسور مستقل له حصون محكمة ومنفصل عن بقية الاحياء ..

وهناك (حي الطريف) محاط بسور ضخم وحصون وله أَبواب وهو منزل آل سعود واتباعهم وبجانبه حي الموالي وهو على رأَس جبل مثلث أَيضا غربي الدرعية جنوبيها وفيه قصر سلوى منزل آل سعود وبيت المال وقصر عمر بن سعود وسعد ابن سعود وغيرهما من قصور الأَمراء وبة حصن (الدريشة) أَكبر واضخم حصن في الدرعية يطل على وادي حنيفة وبه (قوع الخيل) الاصطبل العمومي لخيول آل سعود وبة حمام موضوع على شكل الحمامات الخارجية بقنواته ومواقده وأَحواضه ..

وهناك أحياء أخري كالبجيري والسهل وملوي والنقيب والسريحة وغيرها من الأحياء المتجاورة المفعمة بالسكان والعمران وهناك حي الطرفية بين غصيبة والدرعية وحي الطوالع في أسفل الدرعية وهناك قصر البليدة وبرجه الذي يليه وقصر ابن طوق في السريحة وقصر الشعراء في جانب طهرة سمحان الغربي .

وهناك حصون كثيرة متصلة بالسور العام وبالأسوار الجانبية كحصون الرفايع في قري عمران و (حصن شديد اللوح) في (ظهرة ناظرة) وحصن (المعانية) وحصن (سمحة) وحصون (قري قصير) وحصن (أم عنز) (والبرج الكبير) حصن يتوسط (ظهرة سمحان) خارج الحي وحصون (العويسية) و (المليبيد) و (مربعة البريكي) وحصون (شمالي الطريف) و(السديرية) وحصن (المغترة) وغير ذلك حصون كثيرة منتشرة هنا وهنالك .

وبالجملة فالدرعية إلى جانب أنها بلاد تجارة وحضارة .. فهي أيضا بلاد مؤهلة للحرب معدة لها فكأنما هي قلعة كبيرة تنوء بما فيها من حصون وقلاع ومتاريس وأسوار .. إلى جانب شجاعة بنيها وقوة بأسهم وشدة حراسهم ولكن لما طال الأمد

عليها في الحرب ونفذت ذخيرتها واقواتها وخذلها كثير من أَهل نجد خصوصا البادية قضى الأَمر وتناهى ولله في خلقه شئون .

حاضرة جزيرة العرب

لا غرو والدرعية عاصمة لدولة تمتد سلطتها من البحر الأَحمر إلى الخليج العربي ومن عمان وأَطراف حضرموت واليمن جنوبا إلى أَطراف العراق والشام شمالا وكل هذه الأَقاليم والأَطراف تقدم للدرعية فروض الطاعة وتدين لها بالولاءِ وتأْتمر بأَمرها وتنتهي بنهيها .. لا غرو أَن تكون عاصمة ذات شأَن كبير ومد وفير و وأَن تغص بالأَموال وتزدهر بالأَعمال وتزهوا بالمباني الفاخرة وتطفى بها حركة لا يماثلها حركة في بلد غيرها .. فمن رأَى أَسوارها وحصونها وقلاعها وضخامة مبانيها وفخامة دورها وقصورها .. رأَى شيئا غريبا جدا في ذلك الزمان .

ومن رأَى امتداد رقعتها وإنبساط اسواقها واندياح عمرانها وعلو شأَنها أَيقن أَنها تنطلق من قوة وتأْوي إلى ركن شديد وتطور عتيد ..

(يقول ابن بشر :) وكانت قوة هذه البلدة وعظم مبانيها وقوة أَهلها وكثرة رجالها وأَموالها .. لا يقدر الواصف صفتها ولا يحيط العارف بمعرفتها .. فلو ذهبت أَعد رجالها واقبالهم فيها وادبارهم في كتائب الخيل والنجائب العمانيات وما يدخل

على أَهلها من احمال الأَموال من سائر الأَجناس التي لهم مع المسافرين من أَهلها ومن أَهل الاقطار .. لم يسعة كتاب ولرأَيت العجب العجاب . وكان الداخل في موسمها لا يفقد أَحدا من أَهل الآفاق من اليمن وتهامة والحجاز وعمان والبحرين وبادية الشام ومصر وأَناس من حاضرتهم إلى غير ذلك من أَهل الآفاق ممن يطول عدهم . هذا داخل فيها وهذا خارج منها وهذا متوطن فيها ..) (١)

ويقول صاحب كتاب (تذكرة أَولى النهى والعرفان) موزعا أَسواقها وأَماكن البيع والشراءَ بها : يقول كان بها سوق للخيول وسوق للإبل وسوق للنعام وسوق للرجال وسوق للنساء ..

وكنت لا تفتقد العملات الأَجنبية الريال الافرنسي والبقشة والأَحمر والمحمدي والزر والمشخص وما إلى ذلك ..

ويقول ابن بشر :) وكانت الدور لا تباع فيها إلا نادرا وأَثمانها سبعة آلاف ريال والداني بأَلف ريال وأَقل وأَكثر وكل شيءَ يقدر على هذا والتقدير .. وكروة الدكان في الشهر خمسة وأَربعين ريالا وسائر الدكاكين الواحد بريال في اليوم وشيء بنصف ريال وذكر لي أَن القافلة من الهدم إذا أَتت إليها بلغت

---

(١) ابن بشر .

كروة الدكان في اليوم الواحد أربعة أريل . وأراد رجل منهم أن يوسع بيته ويعمره فاشتري نخيلات تحت هذا البيت يريد قطعها وتعمير موضعها .. كل نخلة بأربعين ريالا وخمسين ريالا فقطع النخل وعمر البيت ولكنه وقع عليه الهدم قبل تمامه .

ويقول : أن ذراع الخشب بريال وأجرة النجار الذي يعمل الميزاب من الخشب بريال وتركيبه بريال وحمل الحطب للوقود بخمسة ريالات ..

يعلق على هذا صاحب تذكرة (أولى النهى والعرفان) بقوله : أما ما ذكره الشيخ ابن بشر رحمه الله فهو عجيب من جهة العز والرفاهية فكانت هذه الأشياء المقدرة بهذه التقادير أمرا بديعا بحيث أن حمل الحطب في ذلك الزمان وما بعده لا تزيد قيمته عن ربع ريال في سائر البلدان النجدية وغالب البيوت في البلاد الأخري لا تبلغ قيمتها أكثر من ثلاثمائة ريال فرانسي أضف إلى ذلك كساد الأشياء بعد ذلك كان غالب البيوت بثمانين ريالا ومهور النساء لا يتجاوز المهر ثلاثة ريالات

ويصف ابن بشر حالة سوقها فيقول : فإذا وقفت في مكان مرتفع ونظرت موسمها وكثرة ما فيها من الخلائق ونزالهم فيه

واقبالهم وإدبارهم ثم سمعت رنتهم ونجناجهم فيه فكأنه دوي السيل القوي إذا صب من عالي الجبل .. فسبحان من لا يزول ملكه ولا يقاوم سلطانه ولا يرام عزه ..

وينقل إبراهيم بن عبد المحسن عن بعض المؤرخين المعاصرين للدرعية ما نصه : (ولقد رأيت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب وموسم اللحم في جانب .. وما بين ذلك من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام والبيع والشراء والأخذ والإعطاء وغير ذلك وهو مد البصر ولا نسمع فيه إلا كدوي النحل من النجناج وقول بعت وشريت والدكاكين على جانبيه الغربي والشرقي وفيها من الهدوم والسلاح والقماش ما يعرف ولا يوصف ..)(١)

ويتحدث صاحب كتاب (لمع الشهاب) عن الأمن فيقول : وكانت الأقطار والرعية في زمنه آمنه مطمئنة في عيشة هنيئة وهو حقيقى بان يلقب مهدي زمانه ، لان الشخص الواحد يسافر بأمواله العظيمة أي وقت شاء صيفا وشتاء يمنا وشاما شرقا وغربا ، في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك لا يخشى أحدا إلا الله لا سارقا ولا مكابرا ، وكانت جميع

(١) ملف الثقافة والفنون من مقال لمحمد سعد الشويعر .

بلدان نجد من الشمال إلى الجنوب في أيام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيل والجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ليس لها راع ولا مراعي بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع أو يحتاجون لها أهلها لسقي زروعهم ونخيلهم وربما تلقح وتلد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها ..

قال عثمان بن بشر : وذكر لي شيخنا القاضي عثمان بن منصور أن رجلا من سرات الأعراب وجد عنزا ضالة في رمال نفود السر المعروف في نجد وهم جياع وأخبرني انهم قاموا يومين أو ثلاثة مقوين فقال بعضهم لبعض لينزل أحدكم على هذة العنز فيذبحها لنأكلها فكل منهم قال لصاحبه أنزل إليها فلم يستطع أحد النزول خوفا من العاقبة وقالوا دعوها فان عبدالعزيز يرعاها فتركوها وهم في أمس الحاجة إليها ..

ويقول إبراهيم باشا في رسالة وجهها إلى والده : أن عبد الله ابن سعود بني في وادى الدرعية وبساتينها القصور والحصون والبروج وشحنها بالمقاتلين وبنى في المدينة نفسها تحصينات قوية وأقام لها سورا يضاف إلى ذلك كله كثرة مؤنه وذخائره وحماسة رجاله للدفاع عن دينهم ووطنهم .. ولذلك لا ينجح

الهجوم عليهم إن كان هجوما مباشرا عاما .. فقررنا حصارهم والتضيق عليهم .. وارهاقهم..وسنقوم متى وصلتنا الامدادات الجديدة وفي الوقت المناسب بزحف جماعي من كل الجهات ونفتح هذه البلدة ثم نبيدها ..

وبالجملة فان الدرعية بما فيها من أموال وقوة نادرة وبما تتمع به من حصانة طبيعية ومعدة وبما تملك من حماسة نادرة يحملها أَهلها . هي التي الجأَت عبد الله بن سعود ليستتر بها ويحارب من وراءَ حصونها وأَسوارها وأَبراجها ولكن لا مرد لما شاءَ الله ولا معقب لحكمه ..

ويصف الدرعية المؤرخ الافرنسي (كورانسيز) فيقول :

الدرعية مدينة بناؤها من حجر ، عرضها نصف فرسخ وطولها ثلاثة أَضعاف عرضها ، تمتد بين حيين : احدهما إلى اليسار وهو (الطريف) مقر آل سعود والثاني إلى الشرق وهو (البجيري) مقر آل الشيخ وفيها ثمانية وعشرون مسجدا وثلاثون مدرسة ولا توجد في الدرعية حمامات ولا مقاهي عامة وفي أَسواقها حوانيت من القصب يمكن نقلها من مكان إلى إلى مكان ..

ويقدرون عدد منازل الدرعية بألفين وخمسمائة دار مبنية بالحجارة والأجر وليست الدرعية محصنة ولكنها تقع في سفح سلسلة من الجبال العالية تمتد من الشمال إلى الجنوب وتدعى (طويق) والناس يجتازون واديا في جنوبها ليصلوا منه إلى مناطق نجد الغربية .

يخترق الدرعية واد يدعى (وادي حنيفة) وهو جاف في الصيف وفي الشتاءَ يمتلئِ بمياه السيول المتحدرة من الجبال المجاورة . وحول الدرعية بساتين تنمو فيها أشجار مثمرة كالبلح والمشمش والدراق ، وفيها أيضا (حبحب) وقمح وشعير وذرة ..

انصـــار الحق ومريدوه

منذ النواة الأَولى الذين استقبلوا الشيخ واووه وعاهدوه على أَن يكونوا معه الدم بالدم والهدم بالهدم .. فآزروه مؤازرة صادقة وأَعانوه في نشر دعوته وقاموا بذلك أَحسن قيام .. منذ أَن لقيه ثنيان ومشاري وفرحان أَخوة محمد بن سعود والشيخ أَحمد بن سويلم والشيخ عيسى بن قاسم ومحمد الحزيمي وعبد الله بن دغيثر وسليمان الوشيقري ومحمد بن حسين واخوه .. منذ خفت هذه النخبة من أَول يوم تستقبل الشيخ قبل أَن يلقاه محمد بن سعود سنة (١١٣٩ هـ) إلى أَن سبقت البقية الباقية من أَهل الدرعية إلى ثرمداءَ بعد أَن خربها إبراهيم باشا واحرقها سنة (١٢٣٤ هـ) أَي ما يقرب من قرن من الزمان وهؤلاءَ القوم مجردون سيوفهم مقدمون أَنفسهم في سبيل الله ثم في نصرة الحق وموالاة الصدق فكان آخر ضحاياهم في تلك الحقبة صالح بن إبراهيم بن دغيثر ، وعلي بن محمد بن قضيب وأَولاد موسى بن سليم تسعة ومحمد بن عبد العزيز أَبو نهية وعبد العزيز بن محمد بن عيسى إمام مسجد حوطة الدرعية ..

فنحن ندرك أَن محمد ابن سعود في هذا الجزءَ من وادي

حنيفة (قبل) لا يقوم حكمه على عقيدة دينية ولا عصبية قومية تضمن له قوة النفوذ ومؤهل الاتساع والانتشار ..

فقومه ـ وإن كانوا أَشداءَ شجعانا ـ إلا أَن ملتهم لا تمكنهم من بسط نفوذ أَكبر ولا انتشار حكم أَقوى .. وإذاً فهو حينما احتضن هذه الدعوة السلفية) مع حسن نيته وابتغائه وجه الله كان يدرك ما أَقدم عليه ويعنى ما رشح نفسه له .. فمن أَول وهلة عوت عليه الذئاب وورمت الانوف وتنكر الاصدقاءَ .. فالعيينة وحريملاءَ والدلم والرياض وحرمة وحتى منفوحة .. كانت هذه البلدان أول من تنكر له وقلب له ظهر المجن وحاربوه وامعنوا في حربه حتى ظهر الحق وزهق الباطل ..

ولكن الأَمر لم يقف عند هذا الحد ولم تمت الفتنة بموت هؤلاءَ المناوئين الأَدنين .. بل بدأَ يشب اوارها وتتوقد نارها من قبل أَعداءَ أَقوياءَ وخصوم أَشداءَ .. بدأَ الحجاز بمن فيه يزرع كيده ويظهر عداءَه ويبثه خارج البلاد وداخلها . وبدأَت الأَحساءَ ومن حولها تضرب على نفس الوتر وتغزل غزلها الدقيق. وعن طريق هاتين انتشر التضليل ، وبلغت الدعاية مبلغها ولقحت ثمار الشر وطعمت جذوره وتهيأَت النفوس لقبوله .

فكانت هذه الارهاصات الشريرة كافية لتقف الدرعية

حيالها موقف التفكير ، وإن تهزها هذه المتغيرات لتغير موقفها ولكن قوة الإيمان في حكم الدرعية من ناحية وأَسلوب الداعية الإيجابي من ناحية ثانية ، وبطولة الأَنصار أَهل الدرعية من ناحية ثالثة ..

كل ذلك جعل العقيدة والإيمان يقفان على قاعدة صلبة ، لا تزعزعها الأَحداث ولا تهزها الأَعاصير .. انهم يقابلون ذلك كله بمدلول هذه الآية : (أَلم أَحسب الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ..)

الم تكن دعوة الرسل والدعاة المصلحين قد لاقت ما لاقت من صنوف الأَذي والرد والصد .. فكان يحملها رجال صدقوا ما عدهوا الله عليه .

ثم اليس الدرعية قد عاهدت الداعية بنحو ما عاهد الأَنصار نبي الله (الدم بالدم والهدم بالهدم) وإذا فلابد من السير في هذه الطريق حتى النهاية . الم تكن دعوة حق ، ومنطلق صدق ، ومنهج فلاح وصلاح وإصلاح سار عليه سلف هذه الأَمة في بساطته ويسره ونقائه وصفائه ؟ ! فمثلوا الإسلام حقا ، وفهموه من معينة صدقا ، ونشروه جذابا يشفى ويكفى ويغري

الأَقوام بجاذبيته ويسره . فطبق الأَرض واستقبله البشر عن طواعية وإيمان ومحبة .

وإذاً فما عدى مما بدى ما معنى هذه البدع والخرافات التى ما انزل الله بْها من سلطان ، هل ابقى المشرع شيئا لم يقله ؟ هل هو في حاجة إلى مزيد ؟) اليوم أَكملت لكم دينكم وأَتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإِسلام دينا (و) تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي (و) تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) .

هذه حقيقة دعوة ابن عبد الوهاب ، وذلكم هو مسلك الحكم في الدرعية وهذا هو ما آمن به أَهل الدرعية .. فكانوا أَنصارا جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا الدعوة وآووها حتى طبقت الافاق .. ثم لقوا في سبيلها مالقوا من قتل وتحريق وهدم وفتن كقطع الليل المظلم ، فما زادهم إلا إيمانا وتسليما .. (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ..)

على هذا تتابعت سلسلة الحكام من لدن محمد بن سعود فابنه عبد العزيز فابنه سعود فابنه عبد الله ..

وعلى هذا تتابعت سلسلة الدعاة العلماءَ من لدن محمد بن عبد الوهاب فأولاده وأحفاده وتلامذته ..

وعلى هذا تتابع الانصار خلفا عن سلف منذ أن انطلق السهم الأول مع محمد بن سعود إلى أن اقتادهم طاغية مصر مقرنين في الحبال إلى ثرمداءَ فابادهم جميعا . .

ولئن لقي الحكام والدعاة والأنصار مالقوا من القتل والتشريد والعذاب فان النواة التي غرسوها باسقة ، والدعوة التي فنوا فيها لا تزداد إلا قوة وانتشارا والمبدأ الصحيح لا يموت ، والعقيدة لا تقتلع بالسيف : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم بعد خوفهم آمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

فإذا عرفنا أن الرياض وحدها كلفت الدرعية خمسا وثلاثين غزوة ما من غزوة إلا وتفقد ضحايا قلوا أو كثروا .. فما بالك بالجزيرة العربية من عمان والساحل الشرقي حتى الساحل الغربي ، ومن مزيريب الشام والعراق شمالا حتى اليمن والربع الخالي جنوبا في مدة تناهز القرن من الزمان كلها جهاد ونضال وتضحية

توجوها بقتالهم لجيوش المصريين والأَتراك الذين حشدوا لتخريب الدرعية وإبادة أَهلها فقابلوهم مقابلة الأَبطال وتفانوا في سبيل العقيدة والشرف والوطن .. ولما انفضت عنهم الأَقوام وتركوهم في الميدان وحدهم بعد أَن قتلوا من الغزاة ما يزيد عن عشرة آلاف قتيل .. هزموا وتلك (سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا) .. أَن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأَيام نداولها بين الناس) .

لقد كانت الدرعية ركيزة خير ودعامة فضل ومدينة حضارة وعمران في جزيرة العرب تضاهي الحواضر الكبري في المشرق علما وتقدما وعمرانا وتجارة وحضارة فسعى دعاة الشر وأَرباب الفتنة في اخماد جذوتها حينا ولكنها باقية وإن فنيت عظام من كادوا لها وظاهرة وان دكوا معقلها بالمعادل واحرقوه بالنيران ..

يحدثنا (ويندر) عن جرائم إبراهيم باشا في الدرعية وفضائعة وفضائحة فيقول : (والحق أَن محمد على هو صاحب الأَمر والنهي لابنه إبراهيم ولكن ولده كان ظالما بطبعه وربما ذهب إلى أَبعد مما اراده أَبوه .. وكان ضباط الجيش المصري - أَو المختلط - وأَفراده من ترك وافارقة وشركسة لا يدركون انهم في

بلاد إسلامية ويجب أن يعاملوا أهلها المغلوبين معاملة انسانية كريمة .. وعلى العكس كانوا يبيحون لانفسهم ما لا يباح ويرتكبون من الجرائم والمظالم ما تقشعر لمجرد ذكره النفوس ، وهكذا كان الغزاة ، من القمة إلى القاعدة مجموعة حاقدة لئيمة ، فلا عجب إذا صدرت عنها الجرائم وأفعال في غاية الهمجية »[1]

ويقول ابن بشر (وفي هذه السنة يعني سنة (١٢٣٣ هـ) التي تم فيها استيلاء إبراهيم باشا على الدرعية كثر الاضطراب والاختلاف ونهب الأموال وقتل الرجال .. وانحل فيها نظام الجماعة والسمع والطاعة وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يستطيع أحد أن ينهى عن منكرا أو يأمر بطاعة ، وعمل بالمحرمات والمكروهات جهرا ..وجر الرباب والغناء في المجالس وسفت الذواري على المجامع والمدارس وسل سيف الفتنة بين الانام وصار الرجل في وسط بيته لا ينام وتعذرت الاسفار بين البلدان ..)

إلى أن قال : (فقتلوا رجالا ونهبوا أموالا ولم يتورعوا عن إيذاء العلماء وتحقيرهم وقتلهم صبرا وتعذيبهم والتمثيل بهم .. ومن ذلك ما جرى للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن

(١) عبد الله بن سعود .

عبد الوهاب فقد أرسل إليه الباشا وتهدده وأمر على آلات اللهو والرباب فجروها عنده ارغاما له ثم خرج به إلى المقبرة ومعه عدد كثير من العساكر فأمرهم أن يثوروا فيه البنادق والقرابين فثوروها فيه وجمع لحمه بعد ذلك قطعا .. وفي الأحساء أخذوا الشيخ عبد الرحمن بن نامي وقتلوه .. وكثر عند الباشا القيل والقال في أعيان أهل نجد من المسلمين وأهل العلم والصلاح فرموهم عنده بالبهتان وتظاهروا عليهم بالاثم والعدوان فقتل منهم عدة فممن قتل علي بن حمد العريني وصالح بن رشيد الحربي وعبد الله بن صقر الحربي ورشيد السردي وعبد الله بن محمد بن سويلم وحمد بن عيسى بن سويلم ومحمد بن إبراهيم بن سدحان وعذب الشيخ أحمد بن عفالق وقلعت أضراسه وضرب ..

ويصف ابن بشر معركة أهل السهل والبجيري فيقول : (وتفرقت عساكر الترك على أهل السهل وأمسكوا فيه بيوتا ونخيلا وكادوا أن يأخذوه عنوة فجال أهله جولة عظيمة واشتدت وطأة الترك عليهم فحماهم الله تعالى وكف أيدي الترك عنهم فهموا بالمصالحة فرد بعضهم على بعض أن المصالحة لاتكون إلا باخراج تلك العساكر من البيوت والنخيل وقتل ما أمكن منهم .. فشهر الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن

عبد الوهاب سيفه وانتدب واجتمع حوله أهل البجيري ونهضوا على الترك من كل جانب كأنهم الأسود وقاتلوا قتالا يشيب منة المولود فاظلمت البجيري كأنها الليل وصريخ السيوف كأنه صهيل الخيل فاخرجوهم منا صاغرين وقتلوا من الترك عدة مئات حتى قال لي بعض من حضر ذلك لو حلفت بالطلاق أني من الموضع الفلاني إلى الموضع الفلاني لم اطأ إلا على رجل مقتول لم احنث ..

فاضطر الباشا أن يصالح أهل السهل على دمائهم وأموالهم وما احتوت عليه بلدهم ..)

ويمضي ابن بشر ذاكرا عدد القتلى من الطرفين فيقول : (نقدر قتلى الدرعية بألف وثلاثمائة قتيل وأما عدد قتلى العسكر منذ خروجهم من مصر حتى رجوعهم إليها فيقدر باثني عشر ألف قتيل ـ وهذا نقلا عن كاتب الباشا ـ وعلى هذا القول فلم يقتل من العسكر في الرس وعنيزة وشقراء وضرما أكثر من ألفين وباقي القتلى في الدرعية ..

ومن مشاهير قتلى الدرعية حسب احصاء ابن بشر من آل سعود نحو واحد وعشرين منهم فيصل بن سعود وأخوه إبراهيم وأخوه تركي مات مريضا . وفهد بن عبد الله بن عبد العزيز

وفهد بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود ومحمد بن عبد الله بن محمد بن سعود وسعود بن عبد الله بن محمد بن سعود وابنه محمد ومحمد بن حسن بن مشاري بن سعود وأَخوه عبد الله وأَخوه عبد الرحمن وإبراهيم بن عبد الله بن فرحان وعبد الله بن ناصر بن مشاري وعبد الله بن إبراهيم بن حسن بن مشاري بن سعود . وقتل من آل ثنيان وآل ناصر وآل هذلول ..

ومن آل الشيخ عدد منهم محمد بن الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ومن آل معمر أَهل العيينة خمسة عشر رجلا منهم تسعة في وقعة ضرما . ومن آل دغيثر ستة رجال ومن أَهل الوشم نحو مائة رجل ومن أَهل الحريق والحوطة نحو ثلاثين رجلا ومن أَهل المحمل نحو أَربعين رجلا ومن أَهل عرقة نحو أَربعين رجلا ومن منفوحة نحو خمسين رجلا .. وغير هؤلاءِ كثير رحمهم الله وعفا عنهم ..

استمرت مقاومة الدرعية لهذا الغزو ستة أَشهر وبضعة أَيام قاوم فيها حماة الدرعية مقاومة الأَبطال وجاهدوا وجالدوا وصبروا وصابروا بما لم يسبق له نظير قاوموا المدافع الكبيرة والأَسلحة

الفتاكة المختلفة التى كانوا يرمونهم بها رميا متواصلا بكثرة وعنف ..

ويقارن ابن بشر بين حرب الدرعية وبين حربه لعكا عام (١٢٤٨ هـ) أنه أخذ عكا في سهولة ويسر مع أن تحصيناتها أقوي وأشد قيل أن سورها كانت تزرع فوقه مزارع البطيخ وغيره .. ومن واقعة الدرعية شهد أهل الآفاق من العراق وغيرهم بالفضل لأهل الدرعية وقوتهم وثباتهم وشجاعتهم وصدقهم في اللقاء وصبرهم على الحروب حيث ثبتوا له كل هذه المدة وقتلوا من عسكره أمما كثيرة واستفزع عليهم أهل نجد فلم يبلغ المراد حتى كثرت الخيانة فيهم ..

ويقول ابن سند : (لما تحارب ابن سعود مع إبراهيم باشا المصري وغلب ابن سعود فما غلب من قلة عسكر أو من عدم شجاعة عساكره أو من احتياج إلى مال .. إنما غلبه إبراهيم باشا بالمدافع والآلات الحربية والنيران التي لا قبل لها به ..)

ويقول (روسيل) نقلا عن المستشار الحربي لإبراهيم باشا (فيسيير) ان المو حدين كانوا قادرين على وقف الهجوم على بعد اربع ساعات من الدرعية ولكنهم ظنوا أن مكان المعركة المفضل هو الدرعية لانها مدينة محصنة وعدد سكانها يبلغ

ثلاثين أَلفا وهذا هو الخطأً الذي ارتكبوه .

وأَما الخطأً الثاني فهو انهم لم يستفيدوا من مزيتهم الكبري وهي سرعة التحرك فكان يجب عليهم أَن يفاجئوا العدو بهجمات تشن عليه خارج المدن لم يفروا عنه بعد إِيقاع الخسائر في صفوفة ولن يقوي على ملاحقتهم لان النجدي أَسرع عدوا من غيره وأَكثر تحملا لمشاق الصحراءَ وأَعرف بها .

العلم والعلمـــاء في الدرعية

منذ أَن وطئت قدم الشيخ أَديم الدرعية والعلم والتعلم هو ديرنة لقد أَقبل أَهل الدرعية على هذه الدعوة يتبارون في معرفتها والاستزادة من معينها ويلتهمون مبادئها وقواعدها رجالا ونساءَ كبارا وصغارا .. ولم يقف الحد عند كتب التوحيد ومعرفة أَصوله والعب من مناهله بل أَخذت دائرة العلم تتسع ومناهجه تتعدد وظلت مقتضيات التحصيل تنداح وأَقبل على الدرعية جموع كثيرة لاخذ العلم فتعددت الحلق وتعددت أَوقات التدريس وتعددت مراتبه فاقتضى الأَمر أَن يكون التلامذة شيوخا لمن دونهم وهكذا حتى انقلب جو الدرعية إلى تعلم وتعليم فكان الطلاب يحصلون على قوتهم باشغال الليل ويقطعون نهارهم في تحصيل العلم ..

فهذه الدعوة الناشئة في مهدها تحتاج إلى تبليغ ولا تبليغ إلا بعلم ولا علم إلا بثورة غير عادية على الجهل يحمله اناس أَكفاءَ علما وعقلا وسلوكا وقدوة فهذا ماكرس الشيخ نفسه له ثم تلامذته المتقدمون في الطلب والتحصيل .. وهذا ما لا يدرك في وقت قصير ولا يؤخذ في عهد قريب بل لابد من الاكباب

والدأب ومواصلة الليل بالنهار لكي يتدرجوا في دعوتهم على سنن مستقيم وباسلوب ثابت وخطى وئيدة ..

يقول ابن بشر :

ان الناس يطلبون العلم على الشيخ محمد وتلاميذه في أطراف النهار والليل ويحترفون في النهار لكسب قوتهم والاستعانة على مطالب الحياة ..

ويقول ابن بشر أيضا : ان الإمام عبد العزيز بن محمد كان يمر به الصبيان إذا خرجوا من مدارسهم فيعطى جوائز جزيلة لاحسنهم خطا وأجودهم عبارة .

وكان سعود بن عبد العزيز قدوة في ذلك فقد لازم الشيخ أكثر من سنتين ملازمة تامة فبرع في كثير من العلوم واستفاد فائدة كبيرة .

وكان من عادته أثناء حكمه أن يجلس للناس مجلسا عاما في وادي الدرعية أن كان في الصيف فعند الدكاكين الشرقية وان كان في الشتاء فعند الدكاكين الغربية .. ويتجمع حوله من الناس مالا يحصى عددهم فيتصدر هذه الجلسات وحوله العلماء

والفقهاء والمتعلمون وبعد الظهر يعيد الجلسة وبعد المغرب .. يقرأ في المطولات .. (١)

ويحدثنا الشيخ ابن عبد المحسن في كتابه (تَذكرة أولى النهى والعرفان) فيقول : أن الدرعية مر عليها زمان كان فيها أربعمائة عالم كلهم كانوا أهلاً للقضاء . (٢)

ويقول الدكتور العثيمين في كتابه (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) . ومن ناحية أخرى فان الشيخ ما أن استقر في بلده الجديد حتى بدأ أنصاره في البلدان الأخري يفدون إليه ومنهم من يستقر عنده وقد ترك بعض هؤلاء بلدانهم

لما كانوا يحسونه من ضغوط على أيدي زعمائهم الذين لم يكونوا نتيجة متعاطفين مع دعوة الشيخ آنذاك أولخوفهم من حدوث ضغوط عليهم وربما كان السبب في مجيء بعض الآخرين إلى الدرعية رغبة منهم في أن يكونوا قرب الشيخ ليستفيدوا من علمه ويساعدوه في أموره ومن الملاحظ أن هؤلاء المنتقلين إلى الدرعية من طبقات مختلفة فبعض هؤلاء كانوا من أسر حاكمة .. (٣)

---

(١) ابن بشر .
(٢) تذكرة .
(٣) الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ويقول ابن بسام في مقدمة كتابه (علماءِ نجد خلال سته قرون) فالدرعية بعد أَن صارت مقر الدعوة وقاعدة الحكم الجديد وفد عليها العلماء من كل حدب وصوب وعمرت حلقات الدرس على الشيخ محمد وعلى أَبنائه وكبار تلاميذه رحمهم الله تعالى ووفد إليهم طلاب العلم والمعرفة من الجزيرة العربية وخارجها وصاروا يجدون فيها العلم وكفاية المؤنة كما يجد العلماء منهم المناصب الرفيعة والرتب العالية في النواحى التابعة للعاصمة الفتية .

فراجت فيها سوق العلم ونشطوا في تحصيله وتنافسوا في نيله حتى كان من ذلك حركة علمية كبيرة لم تعرفها البلاد العربية من قبل .) (١)

وممن نهض بعبء الدعوة بعد الشيخ وفي آخر حياته أَبناؤه البررة المبرزون في العلم والفضل والأَمانة :

الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قاضي بلد الدرعية والخليفة بعد أَبيه في القضاء والإمامة والخطابة كان إمام مسجد البجيري وخطيب مسجد الطريف وكان كفيف البصر . توفي في الوباءَ الذي أَصاب الدرعية عام (١٢٢٤ هـ)

---

(١) علماء نجد .

الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب . كان ممن نهض بعبء الدعوة بعد والده وكان عمدة في العلوم والمعرفة وعلما لا يباري في شتى العلوم تولى القضاء لثلاثة من آل سعود عبد العزيز وسعود وعبد الله .

ونقله الباشا في من نقل من آل الشيخ وتوفي هنالك .

وللشيخ من الولد الذكور : حسن وحسين وعبد الله وعلي وإبراهيم وعبد العزيز والاخيران ماتا قبل والدهما رحمهما الله تعالى ..

وكل أَولاد الشيخ ذوو معرفة وإحاطة وعلم فضل ودراية ..

ومن أَشهر تلامذة الشيخ وانبههم ذكرا وأَوسعهم إدراكا هؤلاء :

١ ــ حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر .

٢ ــ عبد العزيز بن عبد الله الحصين .

٣ ــ سعيد بن حجي .

٤ ــ محمد بن سويلم .

٥ ــ عبد الرحمن بن خميس .

٦ ـ عبد الرحمن بن نامي .

٧ ـ محمد بن سلطان العوسجي .

٨ ـ عبد الرحمن بن عبد المحسن أبا حسين .

٩ ـ حسن بن عبد الله بن عيدان .

١٠ ـ حمد بن راشد العريني .

١١ ـ عبد العزيز بن سويلم [١] .

وممن نبة قدرهم وعلا صيتهم من علماء الدرعية غير علماء آل الشيخ الشيخ عبد الرحمن بن خميس إمام وخطيب مسجد الطريف ومدرس العلوم والفنون بها .

والشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن مشرف .

والشيخ عبد الرحمن بن عبد الله آل الشيخ .

والشيخ عبد العزيز بن حمد بن مشرف .

والشيخ عبد العزيز بن حمد بن معمر .

والشيخ عبد العزيز بن سليمان الفريح .

والشيخ عبد العزيز بن سويلم .

(١) تاريخ البلاد السعودية .

والشيخ عبد الله بن حمد الوهيبي .

والشيخ علي بن حسين آل الشيخ .

والشيخ علي بن يحي بن ساعد .

والشيخ محمد بن سويلم العريني .

والشيخ محمد بن على بن غريب .

والشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ .

وبالجملة فيقول العجلاني عن الحركة العلمية في الدرعية نشطت حركة التعليم نشاطا عظيما وتولى الشيخ بنفسه مهمة التدريس والاشراف على المدرسين في الدرعية في سائر البلدان التي تنضم إلى الدعوة فاصبحت الدرعية (مدينة جامعية) يتوافد إليها الطلاب من كل مكان ويجتمع إليها العلماءُ من مختلف البلدان ..

قال الشيخ حامد الفقي : كان من أَهم ما خدم به الشيخ ابن عبد الوهاب الناس أَن رفع عن قلوبهم غشاوة الجهل فحارب الأَمية بكل ما استطاع من قوة . وكان يلزم كل واحد من أَتباعه بتعلم القراءَة والكتابة مهما كانت سنه ومهما كانت منزلته حتى كان الأَمراءَ يقرأَون مثل بقية الناس فصار منهم العلماءَ ، والمدرسون كالإمام سعود الكبير .

في رثـــاء الدرعية

كانت الدرعية في قلب جزيرة العرب درة تاجها وواجهة حضارتها وعنوان تقدمها وازدهارها . كانت محط الرحال ومآرز القصاد ومقصد الرواد ، وكانت ركيزة التجار ومنطلق العلم وموطن الاشعاع وكانت السبل إليها قائمة والتجارة متجهة إليها من كل حدب وصوب يصفها المؤرخ ابن بشر فيقول :

كانت قوة هذه البلدة وعظم مبانيها وقوة أهلها وكثرة رجالها وأموالها لا يقدر الواصف صفتها ولا يحيط العارف بمعرفتها ..

فلو ذهبت أعـد رجالهـا وأقبالهم فيهـا وادبارهم في كتائب الخيل والنجائب العمانيات وما يدخل على أهلها من أحمال الأموال من سائر الأجناس التي لهم مع المسافرين من أهلها ومن أهل الأقطار .. لم يسعه كتاب ولرأيت العجب العجاب وكان الداخل في موسمها (سوقها) لايفقد أحدا من أهل الآفاق من اليمن وتهامة والحجاز وعمان والبحرين وبادية الشام ومصر وأناس من حاضرتهم .. إلى غير ذلك من أهل الآفاق ممن يطول عدهم .. هذا داخل فيها وهذا خارج منها وهذا مستوطن فيها

(إلى أَن قال) فإذا وقفت في مكان مرتفع ونظرت موسمها (سوقها) وكثرة ما فيها من الخلائق وتزايلهم فيه وإقبالهم وإدبارهم ، ثم سمعت رنتهم ونجناجهم فيه فكأَنه دوي السيل القوي إذا صب من عالي جبل .. فسبحان من لا يزول ملكه ولا يضام سلطانه ولا يرام عزه ثم إقرأْ ما كتبه ابن بشر عن هذه العاصمة بعد أَن استولى عليها هؤلاءَ الطغام . يقول :

وأَكثر العساكر العبث في أَسواق الدرعية بالضرب والتسخير ، فكانوا يجمعون الرجال من الأَسواق ويخرجونهم من الدور ويحملون على ظهورهم ما تحمله الحيوانات فيسخرونهم يهدمون البيوت والدكاكين و يحملون خشبها ويكسرونه ويردون لهم الماءَ ويحملونه فلا يعرف لفاضل فضلة ولا لعالم قدره وصار الساقط الخسيس في تلك الأَيام هو الرئيس . (إلى أَن قال) :

فلما قدمت الرسل والمكاتبات من محمد علي إلى ابنه إبراهيم وهو في الدرعية أَمر بهدم الدرعية وتدميرها فأَمر على العساكر أَن يهدموا دورها وقصورها ، وان يقطعوا نخيلها وأَشجارها ولا يرحمو صغيرها ولا كبيرها ، فابتدر العساكر مسرعين وهدموها وبعض أَهلها فيها فقطعوا الحدائق وهدموا الدور

والقصور واشعلوا في بيوتها النيران ، فتركوها خاليه المساكن كأَن لم يكن فيها من قديم ساكن . ا ه كلام ابن بشر .

ولقد انطقت نكبة الدرعية لسان الرثاءَ فأَفاض يقطر دما ويستوقد حرارة ومرارة . يقول أَحد ادبائها مؤرخا نكبتها :

عام به الناس جالوا حسبما جالوا
ونَال منا الأَعادي فيه ما نَالوا

قال الاخلاءَ أَرخه فقلت لهم
ارخت ، قالوا بماذا : قلت غربال

ورثاها الشيخ عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر بن معمر بقصيدة منها :

وكم دمروا من مربع كان آهلا
فقد تركوا الدار الآنيسة بلقعا

فَأَصبحت الأَمــوال فيها نَهائبــا
وأَصبحت الايتَــام غرثى وجــوعا

وفر من الأَوطان من كان قاطنا
وفرق أَلف كان مجتَمعا معــا

مضوا وانقضت أَيامهم حين خلفوا
ثناءً وذكرا طيبة قد تَضوعا

وبكيتَها بقصيدة اسجل هنا بعضا منها :

لها غابر من وارف المجد شافع
وعون من الفعل الجميل بدائع

تسامت فمنها المكرمات نَواطق
وقالت وآذان الزمـــان سوامع

اشارت إلى الدنَيا باصبع هيبة
لها الحق ردءٌ والعقيدة وازع

محامد شكري بالمعـــالي فكلها
مداره في سمع النهى ومصاقع

فللهدي ما يدعـــوا إليه محمد
يقرره طـــورا وطـــورا يدافع

ويحميه من عيث الغواة محمد
فيهـــدي إليـــه تَارة ويقارع

وبينهما قامت على العـــدل دولة
تشير إليهـــا بالخلود الأَصابع

لها السيف من وادي حنيفة مصلت
تناغيه أَبطال حماة بواتـــع

أَجادوا فنون الحرب من عهد تَبع

كَأَن المنايا أَن لقــوها مراضع

إذا سمعو (العوجا) تَداعوا كَأَنهم

ظماءَ دعَتهــا للــورود شرائع

هم القوم أَن يدع الوفاءَ فانهم

ذووه وأَن يدع الوغى فطلائع

إلى الراية الخضراءَ تَهفوا قلوبهم

لهم معمعان حولهــا وتَدافــع

وما حذقوا قرع الطبول تدلها

ولكن إلى الهيجا تهيج المقارع

* * *

وحالت أَمور واستحالت مباهــج

وللدهــر في دنيا الأَنام فجائع

أَما ههنا قد كان عز ودولة

ومجد يسامي هامة النجم فارع

واودى فأَما ساكنوه فغــودروا

رميما لهم تحت التراب مضاجع

وأَما الحصون الفارعات فإِنها
طلول تهيج الذكريات خواشع
تصابي وليست للصبا بأَليفة
وتخضب منهـا اشمطا فيمانع
وَترنَوا إلى الماضي بعين اسيفة
لعل لياليها الرغاب رواجـع

ومن مقطع في ملحمة عيد الرياض يقول :

قضي الأَمر فالأَميــر أَسير
وسماءَ الدرعية الطلـق واجم
سيق للقفص انسر كاسرات
في حوار الجوزاءَ كانت حوائم
باقــة من شباب آل سعود
صفوة من لجين تَلك المناجم
منهل الجود يوم بذل العطايا
شرف السيف يوم تَحمى الجماجم
مد ليل البَأَساءِ ضحا على جنحا
نجد وغصت بالكارثَات المواسم

وتمادى الفساد بعد كمون

فالمجاني مباحة للغانم

فهنيئًا لآمن في رقاد

وهنيئًا لراحل عاد سالم

لا يخيف القطعان طلس ذئاب

بل يخيف النعاج طلس أَوادم

اين عهد أَبو الشوارب يحميه

فترعى مع النمور النعائم

هزل الدهر فاعتلى ابن مشاري

سدة الحكم في الزمان الآزم

سدة من رقائق الغيم أَوهى

ومن الثلج تحت وطء المناسم

ومن قصيدة لي تناولت الدرعية وتاريخها ونكبتها :

فلله من لطف اتيح لاهلها

تبناه من آل السعود أَماجد

لدن رفع الشيخ الوقور نداءه

بأَني للدين الحنيف مجدد

فآزره آل سعود ولم ينوا
لأعلاء دين الله أبلوا وشيدوا
فارسوا على أرض الجزيرة دولة
يحوط حماها مصحف ومهند
فمن ههنا سادوا ومن ههنا علوا
ومن ههنا تاج العلى كان يعقد
ومن ههنا شوس الملوك تتابعوا
إذا مات منهم أصير قام أصير
ومن ههنا تغزوا الجيوش جحافلا
فكم اتهموا في كل صقع وانجدوا
ومن ههنا تعلم الناس دينهم
نقيا كما أملاه من قبل أحمد
يروحـــون أفواجا إليه كأنما
لهم فيه من شطآن دجلة مورد
فعاد إلى الإسلام سابق مجده
ولم يبق من يعثوا بظلم ويفسد

* * *

فساءَ دعاة البغي من كل أَرعن
له سالف في مرتَع الظلم أَسود
فجردها تَنوءَ بالبغي حمــلة
كَأَن لها ثَأَرا على الدين يقصد
فكانت لنا قرحا أَصبنا برزئه
ولا بدع فينا قد أَصيب محمد
ولا غرو فالتاريخ يرجع نَفسه
وكل بعيد سوف يأَتي به الغد
فإن مكثت يوما طلولا دوارسا
صدى البوم في ساحاتها يتَردد
فإن لها في مسبح النجم وَثبة
تطالبها بالعــود والعــود أَحمد

ورثاها أَيضا أَحد ابنائها ممن شهد النكبة في قلب الدرعية وذاق حرارتها ومرارتها ، وصور الفاجعة كما شاهدها الشاعر الشعبي (محمد أَبو نهية) فقد قالها عام (١٢٣٣ ه) قال :

سهرت وكل العالمين هجيــع
بتغريد ورق بالغصون سجيع

من الشوق إلى قال الغني هز رأَسه
ومن الغنى يشتَاق كل وليع

حرمني لذيذ النوم تَرجيع صوتَه
واجبته بدمع بالعيون هميع

ناديتهن يالورق بسك من الغنى
لعلك تبكى يا حمام فجيع

تبكي وليف لك وتلقى سواته
من تب سواتي يا حمام وجيع

بعيد عن الأَوطان في دار غربة
امسى وأَصبح ما أَشوف ربيع

ابكي على ربع عفاف وأَهل نقى
ذبحــو ابليـــا شافع وشفيع

ابكي على ربع بمصر تشتتوا
فهد وسعد والعيـــال جميع

وحسن وعبد الله وفهد وخالد
وباقي آل مقرن لو يكون رضيع

يا عين فابكيهم على ذا وزيدي
وشيوخنا اللي للضيوف ربيع

وابكي على عوجا ربينا بربعها
صغار كبار نشتري ونبيع

للجن ميدان تطارد بركنها
مغير جـدران كذا وسفيع

ما كن فيها صار للحكم منصى
ولا بني حصن في الطريف رفيع

ولا شدت الركبان منها لغيرها
ولا بركت فيها الطروش قطيع

ولا بني فيها للعلوم مدارس
ومساجـد يأتونهـا جميـع

ولا عجت الأسواق بالبيع والشرى
ولا موسم فيه العقول تضيع

ولا درج بأسواقها خرد المهـا
من كل عذرا كالغزال تليع

دار إلى جاها الغريب يوالف
جنـابها للممحلين ربيـع

تفكرت فيما صاب ربعي وديرتي
ولا نيب من صرف إنيا بجزيع

خوف من العيلات والمال والدما
ومحرم عقب الدلال تضيع
ولو الجدايا دار خذلان مرة
صبرت مير الشق فيك وسيع
إلى صاح صياحنا نقلنا سلاحنا
يم الرفايع فازعين جميع
ياما قتل منا صبي مجوخ
وبالترك ناخذ للقضا سريع
وياما سفكنا فيك من ساخن الدما
وياما وطينا بالمداس صريع
وياما انجلى عن روسنا فيك غبوة
لكنها غيم السحاب نقيع
ذبحت بالمدفع ثمانيين لحية
وأَخذت واجبها بلا مبيع
أَيضا وعلى هذا ثلاثين شاهد
وهرج بليا شاهد يضيع
غدت لنا كالأُم وحنا عيالها
وسور لها دون العداة منيع

قعدت اسايلها ودمعي ودمعها
على الخد يجري والفؤاد يميع

فإن طابت الأَيام والقدر سابق
فسيور ما ناوي إليك رجيع

وان حالت الأَقدار بيني وبينك
فودعتك المولى خيار وديع

بكيت حولك عبرة بعد عبرة
كما صاح من حر الفطام رضيع

اللي تردوا فيك واللي تخاذلوا
رزي لهم ثوب السواد جميع

خانوا وهذا فعلهم في عمـــارهم
وعقوبة الله للعصـــاة سريع

ذي دعوة مظلوم على غير موجب
عنها غفلنا والإله سميـــع

وخيـــار ما قلنا ويقول غيرنا
صلوا على من للعباد شفيع

ومن قصائدهم إبان حربهم مع الغزاة الطغاة هذه القصيدة الحربية لعبد الله بن خالد من أهل الدرعية :

لابتي عز الديار المخيفة
كم لطمنا دونها من قشر
كم وليف نفرقه من وليفــه
لي تحزمنــا بصنع الكفر
هاضني بعواه ذيب الرديفه
شايف سرحان عسكر مصر
شبعت العرجا طري وجيفة
والسباع الحايمـــة والنسر
أَرس يا غرس بوادي حنيفة
لا تزعزع يوم جاك النذر
بالمطارق والسيوف الرهيفــة
سالت العــوجا بــدم حمر

ومما ينسب إلى بعض شعرائها قوله :

يا ديرة بالعرض ما هى قراح
ياما بها من مدمج الساق مياح
قبليها خاشر وذيك اللياح
وشرقيها بالوصف رجم ابن طلفاح

ومما قال شاعرها ناصر العريني من قصيدة له :

في ديرة تدقم شباة السنان

اللي غدت بالطايلة وأَم الأَوطان

يرهب خبرها محكمين المباني

يما ذبح في جالها كل سلطان

وهذه قصيدة لي حربية قلتها بمناسبة جدب أَصاب الدرعية ورنق صفوها وأَيبس أَخضرها :

سلام يادار تربع في مفيض الوصيل

نخوة بني مقرن هل العادات تعزى لها

دار الشرف والمرجلة والمجد عز النزيل

لاجابوادر قالة فانشد عن رجالها

يادار قولى وين صاف الما وهدب النخيل

اللي تعطف شرد الغزلان بظلالها

وين المغاني والمباني والنسيم العليل

وين الرجال اللى عرفنا تحتمى جالها

جدواي لا مني مررت الدار دمعي يسيل

وأَقول مما في ضميري آه عزالها

حلفت بالله يا بلادي ما نبي بك بديل

لو كان دار يجتنى الياقوت بسهالها

يالله ياللي لاعطا مهوب مده قليل

طالبك يا منزل بلاها تلطف بحالها

عساك يا وادي حنيفة كل يوم تسيل

تحيي بلاد جدد الإسلام بقذالها

وهذه قصيدة حربية أَيضا قلتها بمناسبة الدعوة التي وجهها لي شباب الدرعية في وادي غبرية عام (١٣٩٦) ه

دار ياللي في اليمامة لها مجد منيف

عطرت بالورد دنيا الوجود أَيامها

أَنشد التاريخ ينبيك عن حكم الطريف

والبريمي وايمن الشام عن حكامهـا

نصرة المضيوم والعدل والدين الحنيف

ما تهقواها بغالي الثمن سوامها

سم ساعة للمعادي وللملهوف ريف

وان تلظت قالة الحرب هم قدامها

كم حريب من وحمهم تجنبهم معيف

جنبوه الغوش عن هقوه له رامهـا

حن هل العوجا وحنا منزحة الحفيف
يشهد الله يوم تروي الرجال أَعلامها

كم هنوف تلطم الخد من عقب الوليف
من فعل ربعي جداها تعض ابهامها

هيه يامنبوزة الردف والوسط الصخيف
ماتنوش من الوطا الابروس أَقدامها

خدها ريان كالورد والمبسم صفيف
والعيون اللي تبوج القلوب سهامها

زودي ربعي هل الطايلة فنجال كيف
رايب البن المعطر يخضب جامها

واهصري قدامهم نَاعم الجسم اللطيف
واسمعي قول العرب لعنبو من لامها

وهذه قصيدة للشاعر عبد الرحمن بن صغيان من الدرعية يقول منها :

يا دار وين أَهل الشجاعة والأَخيار
اللي تَفانوا دون عرضك وغاليك

لطامة العايل وشبابة النــار
شيب وشبان تَحبك وتَغليك

وين الملوك اللي على قب الأَمهار

العاديات الضابحات المعاريك

وطوابها حمر الطرابيش تكرار

تسحب جنايزهم على جال واديك

وين العيال اللي يهزون الأَشعار

ذبحوا من أَجلك يومهم مارضوا فيك

هل كلمة التوحيد في سر واجهار

حاموا عليها لين دفنوا بحاميك

يوم العذاري اللي كما فلق جمار

تنخى هل العوجا وتَندب عزاويك

تخاف من جهـد البلا مثل ما صار

تبلى السراير يوم قلت عناويك

وطال الحصار وخانوا أَعوان الأَشرار

وقضت دخيرتَهم ولا فرطوا فيك

ولنا الشرف فيما تَبقى ما الاثار

ولولا الدول تَخشاك ماكان تَغزيك

عليك طوق أَخضر اللون وثمار

يفرح بها الجايع إلى جاك عانيك

يام الملوك اللي خذوا فيك للثار
عبد العزيز اللي بسيفه رجع فيك
حر كفخ من قصر دسمان باحرار
ذبح عشاشيقك وحل ونَزل فيك
وأرث حرار من صواريم سنجار
هم مثل أَبوهم دون شك وتَشكيك
وابن خميس أَديبنا ابنك البار
ذكر بتَاريخه لنا اللي حصل فيك
وأَنا من أَعيالك محب ومغوار
من أَهل البجيري مسقط الرئس حاميك
وختَامها صلوا على سيد الأَبرار
اللي تَفانوا دون عرضك وغاليك

أهـــل الـدار

لم تزل الدار تشد أَهلها إِليها وتدعوهم لمعاودتها وسكناها وإن خرب مبناها واحرق كل حي فيها .. فلقد خربت الدرعية واحرقت وتركت بلقعا يبابا ما ثم إلا البوم يتجاوب في أَرجائها ولكن أَهلها عاودوها وبدأَت الحياة تدب فيها من جديد والعمران يأَخذها من أَطرافها .. وإذا كان زعماؤها وقادتها قد نقلوا إلى مصر وبعضهم ذهبت بهم النوي إلى بلدان أَخري فلن تعدم الدرعية أَسرا من سوادها وأَفرادا من عموم أَهلها يتقاطرون إليها من بعيد ومن قريب ..

وإذا كان آل سعود قد تفرقوا في البلدان ومنهم من نقل إلى مصر وبقي فيها ومنهم من عاود جهاده واستأنف نضاله من أَجل استعادت المجد واسترداد التاريخ ..

وآل الشيخ شأنهم شأن آل سعود غير انهم عملة نافقة اينما حلوا يتعلمون العلم ويعلمونه ويفيدون ويستفيدون فمنهم من برز في العلوم وبز فيها وخرج منهم أَعلام في مصر لا يستهان بقدرهم كعبد الرحمن بن حسن وابنه عبد اللطيف الذين اصبحا دعامة فضل وأَساس نبل وجمعا كلمة أَهل نجد حول

العقيدة والدين ونفع الله بهما واعاد الكرة بعد شتات حول سلطان المجد الثاني وبطل الأَمة تركي بن عبد الله ثم ابنه فيصل مما أَعاد السلطان واحيا العقيدة واسترد ما اندثر من التاريخ .. وهذا وان كان قد انتقل إلى الرياض فما أَقرب الرياض من الدرعية وما اطيبه من كيان يستجمع ما تفرق ويلم ما تشتت .

أَما أُسر الدرعية الكبيرة فقد تحولت إلى الرياض والأَحساءَ وغيرهما فهنالك آل دغيثر تحولوا إلى الرياض وإلى حريملاءَ وإلى غيرهما .. وهنالك آل سويلم هم الآخرون تحولوا إلى الرياض وإلى الأَحساءَ وقد كان منازل آل دغيثر في حي غصيبة من الدرعية ومنازل آل سويلم في حي الطرفية منها ..

وهناك آل طوق لا يزال قصرهم قائما في حي السريحة من الدرعية وقد تحولوا إلى الأَحساءَ وهناك آل نهية أَسرة كبيرة منهم الشاعر محمد أَبو نهية الذي قتل في ثرمداءَ ضمن من قتل هنالك تحولوا إلى الأَحساءَ وهنالك البواهل أَسرة كبيرة استأَنف بعضهم سكنى الدرعية ومنهم أَميرها الشهم محمد بن عبدالرحمن الباهلي وهم أَسرة ذات قدم وشجاعة وغيرة .ومنهم آل الشعراءَ المعروفون بحي الظهرة لا يزال قصرهم قائما ومسجدهم يتوسط

حي الظهرة عامرا يصلى فيه وهم الآن يعرفون بآل عثمان أسرة كريمة ومنهم محمد اللحيدان الشعراء المشهور بفتكه وسطوته وهو صاحب القصة الشهيرة مع دهام بن دواس حينما تسلل ليلة العيد إلى قصر دهام ودخل عليه في غرفة نومه ووضع الخنجر مصلته عند رأسه وأخذ حلي زوجته وانصرف به ليلبسها زوجته نهار العيد ..

وهنالك آل حسين أسرة كبيرة وهم أهل النخل المعروف بالدرعية المسمى (سهلة) وكان كبيرهم له علم بالفلك وحساب النجوم ومعتبر في المنطقة وقد نقل إلى الشيخ محمد ابن عبد الوهاب دقة حسابه وقوة معرفته حتى اتهم لدي الشيخ بما يخالف الشرع فدعا الشيخ عند انخلاع الشتاء وبدء الربيع وفي ذلك اليوم قدم للشيخ وتلامذته غداءهم تحت شجرة تين فضربها بالقدوم فكان مضربه يابسا وبعد العصر حينما عشاهم في نفس المكان وضرب عود التين الذي ضربه صباحا بادرة الماء ينز من ذلك العود .. فعلم الشيخ أنه يصدر عن حساب دقيق ومعرفة قوية .

ومن أهل الدرعية القدماء آل داود أسرة كبيرة ذات أثر .

ومن أهل الدرعية أيضا آل حزيم أسرة لها قدم صدق ومنها رجال بارزون . .

ومن أَسرها أَيضا آل دخيل أَسرة كبيره ذات عقار وآثار

ومن أَسرها أَيضا آل خميس أَسرة علم وفضل منهم عبد الرحمن بن خميس إمام وخطيب مسجد الطريف والمدرس المعروف .

وقد عاودوا سكنى الدرعية بعدما جلا أَكثرهم إلى الأَحساءَ وضرما وحريملاءَ وهم أَسرة مؤلف هذا الكتاب .

أَما الأَسر التي سكنت الدرعية بعد بعثها الأَخير فاسر كثيرة منهم آل ناصر أَسرة كبيرة نزحت إلى الدرعية من حوطة بني تميم وهم من بني زيد وآل عواد نزحوا إلى الدرعية من العيينة وهم من عائذ قحطان . والطوال نزحوا إلى الدرعية من العيينة وهم من بني تميم وكانت إمارة الدرعية فيهم وآل فارس أَسرة كبيرة من قبيلة سبيع ، وآل العريني من عرينات سبيع ، والسمارات من بني هاجر نزحوا إلى الدرعية من الخرج وآل محسن نزحوا إلى الدرعية من الخرج وهم من عائذ وآل مانع من بني عاطف من قحطان وآل الحيد وآل سالم من بني تميم وقد نزحوا إلى الدرعية من العيينة وآل سالم أَيضا من قبيلة عائذ ومنهم أَمير الدرعية سابقا محمد بن ناصر بن سالم وآل يوسف من قبيلة عنزة وآل الحصان نزحوا إلى

الدرعية من حريملاء ومنهم عبد الرحمن الحصان إمام وطالب علم ، وآل رواف من تميم ، وآل الظفيري من الظفير ، وآل راشد بن موسى من مليح ، وآل داود .... وآل مقحم من قحطان ، وآل الجهاما من السهول ، والعقالا ، وآل شعلان ، وآل إدريس ، وآل دخيل ، وآل شبيب ، وآل مشلش .

وآل مسينر أَسرة كبيرة وفيها إمارة الدرعية بعد الطوال إلى عهد قريب وآل جديد ، وآل شامان ، وآل عثيم ، وآل خميس وآل عبد الواحد ، وآل سريع ، والبرادا ، وآل راشد ، وآل عبيد ، وآل صفيان ، وآل سلمان ، وآل مطرف ، وآل مرشود ، وآل مغيصيب ، وآل سليمان ، وآل سبتان ، وآل نصار ، وآل سبيت ، وآل عرفج ، وآل دحيم ، وآل عتيق ، والفصاصمة ، وآل بيشان ، وآل صالح ، وآل زعير ، وآل تويم ، وآل مجلاد ، وآل محبوب ، وآل مساعد ، وآل مبيريك ، وآل سلطان وآل حبشان ، وآل البلاخا ، وآل شلهوب ، وآل بريك ، وآل عليان ، وآل أَبو دهيم ، وآل سعدون ، وآل علي ابن محمد ، وآل سران ، وآل الدعيجى ، وآل الزعيبي ، وآل جبهان ، وآل مطلب ، وآل سلطان أَيضا ، وآل حلوان ، وآل غشيان ، وآل سلوم ، وآل سلوم أَيضا ، وآل صعيقر ، وآل عبد ربه ، والحميدات ، وآل الهايف ، وآل مرضي ، وآل

جوعان ، وآل الوخيلص ، وآل الدويسري ، وآل الدوسري ، وآل خليل .

حـاضر الدرعية

رغم أَن الدرعية قريبة جدا من الرياض المتطورة الناهضة ورغم أَنها مجاورة لجامعة الرياض الجديدة وللحي الديبلماسي ورغم أَنها بلدة أَثرية ومأَرز للرواد والقصاد الذين ينتجعون آثارها ويقفون على معالمها .. فهي لا تزال متأَخرة ولا يزال عمرانها متخلفا وواقعها كئيبا وما قصدت بذلك من قبل الحكومة فهي قد حضرت الهجر والقري والأَرياف وقصدت تعمير وتنوير كل صقع من اصقاع بلادها ولكن لاهل الدرعية من تخلفها نصيب فهم لا يطالبون لها بحق وإذا طالبوا اختلف الرأي وتفاوت القصد فضاعت المصلحة وفسدت النتيجة .. ويبدو أَن هزال جدها وتأَخر نصيبها لا يزالان ملازمان لها ولما ينته بعد سوء طالعها فعسى الله أَن يهيء لها من أَمرها رشدا وأَن يعاودها جدها الاثير وطالعها المنير ..

ولا أَري لفتة صاحب السمو الملكي الأَمير سلمان بن عبد العزيز لها هذا العام إلا عنوان قبول ومنطلق حياة جديدة جادة فقد خرج لها بمجموعة من المسئولين في الدولة من ذوي

الاختصاص ونتجت الزيارة عن مشروعات تعتبر مقدمة خير وعنوان تقدم ..

وقبل ذلك خصها سموه بمشروع جيد من مشروعات البر التى يرعاها سموه ويحدب عليها وسوف يرى هذا المشروع النور قريبا إن شاءَ الله ليكون قلعة من قلاع البر والخير في هذه البلاد وهو عبارة عن مجموعة من المشروعات المتناظرة في سبل البر والإصلاح ..

وفي الدرعية من الدوائر الحكومية مجموعة تتفق وعدد سكانها ومتطلبات الحياة بها ففيها إمارة تشملها وهى وقراها الملحقة بها كالعودة والعلب والملقي والعمارية والوصيل وبها محكمة وكتابة عدل وهيئة للامر بالمعروف وقسم شرطة وبلدية وبريد ومستوصف وبها مركز للتنمية يشمل أَقساما عديدة من مجالات الأَنشطة . وبها مركز للبحوث .

وبها أَحياءَ عصرية متقدمة ومربوطة بالرياض بوساطة خط الشمال ومربوطة بها أَيضا بخط هاتف (ميكرويف) .

وبها عدة مدارس للبنين والبنات إبتدائية ومتوسطة وثانوية .. وهى وان استقبلت في زمانها الأَخير عناصر متعددة

من شتى أطراف المملكة بادية وحاضرة إلا أنها لم تعوض ما رحل منها من صميم أهلها إلى الرياض وغيرها .. وكذلك فإن سني الجدب المتتابعة عليها نقصتها من أطرافها وحدت من قوة زراعتها وكثافة إنتاجها وقلصت النوعيات الزراعية الجيدة التي كانت تنتجها وطوت ما كانت تزخر به نخيلها وبساتينها من سكان يتخللونها ويعمرونها وتزدان به ورياضها وأريافها ..

ولعل قربها من الرياض وسهولة المواصلات بينهما حد من نشاطها التجاري وأضعف أسواقها وقلل من حيويتها في البيع والشراء مما جعل تجار أهلها ومموليهم ينزحون إلى الرياض ويقيمون بها .

ومما جعل السكان يتزودون بكامل حاجياتهم من الرياض إلا ما قل وما ندر خصوصا أن الكثير من أهلها يعملون في الوزارات والمصالح الحكومية وإذا خرجوا إليها بعد العمل يتزودون من أسواق الرياض بما يلزمهم ولم تكن في الدرعية دوائر نشطة تستوعب أعدادا من العاملين ينشطون أسواقها ويعمرونها بالبيع والشراء .

ولعل من العوامل التي سوف تساعد على تنشيط الدرعية ما يلاحظ من كثافة سكان الرياض وزدحام مرورها وضغط

أَحيائها وعجز مرافقها عن أَن تغطى حاجيتها .. ليجد السكان في الدرعية والخرج وضرما والمزاحمية وغيرها متنفسا يلجئون إليه إذا زودت هذه بمستلزمات الحياة العصرية وجعلت منهاالحكومة مجالات تنفس وانشأَت بها مشروعات ذات أَثر في استيعاب أَكبر عدد ممكن من العمال والموظفين والمهندسين .

باق من الذكرى رسوم للأطلال
هوج الرياح العاتية ما محتها

أظنها تبقى على مر الأجيال
تنبيك عن قدرة يدين بنتها

ابن سلوم



الوثيقة الرابعة

رسالة ابراهيم باشا الى أبيه محمد علي باشا
عن بدء معارك الدرعية

نشر هذه الرسالة الاستاذ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، في كتابه : « الدولة السعودية الاولى » ، وهو يقول إنها (ترجمة مكاتبة واردة بتاريخ ٢٥ جمادى الاولى ١٢٣٣ هـ. — ٢ ابريل ١٨١٨ م. ومختومة بخـــاتم ابراهيم باشا ، ومحفوظة في المحفظة الخامسة (بحريراً) تحت رقم ١٨٧) في دار الوثائق القوميـــة التاريخية بعابدين — القاهرة .

.. ومن المعروف أن أسرة محمـــد علي كان يتخاطب أفرادها باللسان التركي .. مع دعوتهم .. إلى الوحدة العربية ! ولم ينشر المؤلف أصل الرسالة التركي .. ويلاحظ ضعف الترجمة ..

ـــ ترجمة الرسالة ـــ

حضرة صاحب الدولة والرحمة والمروءة مولاي ولي نعمتي وسلطاني .

إن معروض عبدكم المستديم أنه قد تيسر لنا الوصول بمشيئة الله تعالى إلى الدرعية بتاريخ غرة شهر جمادى الأولى هـذا ، ونصبنا الخيام في مسافة ساعة ونصف ساعة من الدرعية ، وتحركنا من المحل المذكور أيضاً في اليوم الرابع من

الشهر المذكور وفي أثناء وصولنا وحفر المتاريس (الخنادق) في موضع مقابل لمتاريس عبد الله بن سعود الواقعة بمسافة نصف ساعة من الدرعية ، إذ ابتدر (عبدالله...) بإطلاق مدافعه الثانية أو العشرة بدون توقف وانقطاع ، ولكن مع دوام الحرب بالمدافع في اليوم المذكور جرى اللازم أيضاً من جهة أخرى نحو إقامة المتاريس وتقوية الجبال يميناً ويساراً ، وبما أن الدرعية كائنة بين جبلين فوزع وقسّم المذكور الوهابيين الذين يزيد عددهم على الثلاثة آلاف على الجبال وأطراف مضيق الدرعية وفي داخل الحدائق المختلفة ، وبقية أعوانه في داخل الاسوار والأبراج ، وقوى متاريسه تقوية جدية على وجه لا تنفذ فيها القذائف (المرميات) .

فبعد إقامتنا خمسة أيام على هذه الحالة، وإعطاؤنا المتانة اللازمة إلى متاريسنا وطوابي مدافعنا نحن أيضاً ، قد هجمنا على متاريس الوهابيين الواقعة في جهة الشمال وأخذناها من يدهم، واضطررناهم إلى الفرار نحو متاريسهم الثانية، ومع الاستمرار في القتال في المحل الذي أخذناه مقدار ساعتين قد عملنا متاريس وطوابي للمدافع ومكثنا فيه بضعة أيام ، وبعد تقوية المحل المذكور أيضاً قد هجم فرساننا من جهة وخدامكم عساكر المشاة من جهة أخرى على أتباعه الموجودين في جهة الجبل اليمنى وأُخرجوا من متاريسهم وقتل وأعدم مقدار مائة وخمسين منهم وجرح ما فوق المائتين ، وحيث أن بقية السيوف التجأت إلى المتاريس التي وراءها القريبة من القلعة الأصلية المهدومة فوضع خدامكم جنود الموحدين في المحل المحتل وجرى إعمال الطوابي المتينة للمدافع أيضاً وأقمنا بضعة أيام أعطينا في بحرها المتانة الى المحلات اللازمة ، وهدمنا أحد أبراج قلعته وجزءاً من اسواره بالمدافع وقد نبهت على عبدكم (بهرام) بالهجوم على الأبراج المهدومة ، ونحن على وشك الدخول في الأبراج المذكورة والإستيلاء عليها بعون الله وعنايته وبهمة مولاي والي النعم السامية ، إذ الوهابيون الموجودون في جهة شمالنا خرجوا من متاريسهم وهجموا على متاريسنا ، ولكن انهزموا بنصرة الله الله الملك المستعان ، وعندما رأيتُ ، عبدكم ، تشتتهم وانهزامهم ، أخرجت

جميع خدامكم الفرسان والمشاة من متاريسنا الكائنة في اليمين وفي الشمال وفي مضيق الدرعية ، وهجمنا على متاريسهم وطابية مدافعهم ودخلنا مع الأشقياء المقهورين في داخل الاسوار والأبراج مندمجاً لبعض ، واستولينا على المحلات الواقعــة في مسافة مرمى مدفع إلى بلادهم الأصلية ، وغنمنا أربعة أعداد من المدافع الصفر (النحاس الأصفر) التي كانوا أخذوها في السنوات السابقة ،ونحونا أربعمائة نفر من الوهابيين، وقويت أيضاً المحلات التي استوليت عليها، وإنه صمم إرسال أحد خدامكم الى أعتاب ولي النعم ببشارة فتح وتسخير الدرعية هذه ، إلا أنه اكتفي الآن برجاء عدم انشغال أفكاركم في هذه المسألة حيث أنها ستنتهي بدون شك طبق رغباتكم .

وإن عدد الوهابيين الذين قتلوا وفرّوا في هذه الحروب يبلغ ألفين .

وحيث ان رجوع عبدكم إلى المدينة المنورة بعد ختام هذه المسألة أو إقامتي في هذه الجهات ليست معلومة عندي ، فألتمس التكرم بإشعار ذلك لاتبـــاع إرادتكم السامية التي ستصدر بهذا الشأن ، وإني لا أحتاج الآن إلى الذخائر والمهمات من اللوازم الحربية ولا ضيق لدينا بخصوص النقود أيضاً ، ولكن لا بد من إرسالها للزومها بعد الآن ، على كلتا حالتي الإقامة والعودة .

وقد توفي إلى رحمة الله تعالى عبدكم (أحمد آغا أبو شنب) من قواد ولي النعم في أثناء الحروب ، قبل اثني عشر يوماً من تاريخ عريضة عبدكم هــذه ، ليُطِل المولى عز وجل عمر مولانا ولي النعم .

وإنه حضر أيضاً عبدكم الحاج (علي آغا الدرملي) قبل ثلاثة أيام من التاريخ المذكور إلى طرف عبدكم وقـــد أطلعت عبـدكم على مآل ومفهوم مكاتبتكم الكريمة السامية التي صار التكرم بارسالها ، وحيث ان سروري وحبوري الذي تولّد من حسن أنظار دولتكم ومحاسن آثار فخامتكم بلغ درجة الكمـال تكررت أدعية دوام عمركم ودولتكم التي هي فريضة ذمة عبدكم وقـد حررت عريضة عبدكم هـــذه ببيان أنه صار إرسال ثلاثين عدداً من أوراق المكتتبات

البيض التي أمر بإبعاثها في مثل أوامركم العلية وسياق الإفادات الاخرى وأرسلت وقدمت إلى أعتاب ولي النعم التي تقضي الحاجات بمعرفة عبدكم ابراهيم نجل شيخ (الهلالية) ، من قرى القصيم ، فإن شاء الله تعالى لدى شرف الحصول والتفضل باطلاع دولتكم على كيفية الأحوال والأخبار السارة فالأمر والفرمان من مولاي صاحب الدولة والرحمة ولي نعمتي .

٢٥ جمادى الاولى ١٢٣٣ هـ. — ٢ ابريل ١٨١٨ م.

ختم : سلام علي ابراهيم

الوثيقة الخامسة

كتاب ابراهيم باشا الى أبيه
عن معارك الدرعية وحريق مستودع الذخائر

— ترجمة الرسالة —

حضرة صاحب الدولة والعطوفة والجلادة والرأفـة الزائدة والدي المكرم ولي النعم أفندينا .

بفضل توجيهات الحضرة العلية السلطانية وهمـة ولي النعم الوزارية وكما سبق أن عرضنا تفصيلاً في حينه ، فإن الحالة العامة يمكن أن توضح كالآتي :

لقد جرى أخذ وضبط ما وجد بين بساتين نخيل الدرعية الواقعة في سهول الدرعية نفسها من ذخائر وغيرهـا عقب الاشتباكات الواقعة . وقد كان لحق بفريق الشهداء عدد من ضباطنا الكبار والصغار والرتباء وأفراد العساكر المشاة والخيالة خلال الحروب الأولية ،كما قتل وأعدم عدد كبير من طائفة (النجديين) . . وبقي عبد الله وجمـاعته ... محصورين ضمن الدرعية . وكمـا عرضنا سابقاً فإن النفقات كثيرة والموجود لدينا من النقود والذخيرة قليل ومعرّض لل... وقد أقمنا متاريس جديدة مقابل متاريس الدرعية القديمة وباشرنا بتعريض المصادر الشديد عليها .

— صورة الوثيقة الخامسة التركية —

إن هـذه الحرب الجارية بصورة مستمرة في الدرعية هي كما شوهد وتحقق أصعب وأمرّ من أية حروب مضت وأمر تسهيلها منوط بإرادة الباري ، وقـد سبق عرض ذلك تفصيلاً لحضرتكم العلية .

وتبعاً لمقتضيات مأموريتي أنا خادمكم ، فإني لا أنظر الى قـلة الموجود من النقود ولكنني أجتهـــد بأن أبحث بأية جهة كانت عن وسائل الترفيه وحسن الإشراف على العساكر الشاهانية الموجودة بمعية خادمكم وتأمين كل مـا يقتضى لهم من نفقات ولوازم ، كما انني صرفت النظر عن تأمين راحتي وكل جهودي موجهة نحو تشديد الحصار ومحاربة جماعة (النجديين) الذين يخرجون بين وقت وآخر من وراء السور ، وإننـا نبذل مزيد الاهتمام لتنفيذ إرادة الحضرة العلية الشاهانية . ولقد مضى على ضرب الحصار أربعة وثمانون يوماً وظهر جلياً إمكان قرب دفع هذه الغائلة ، إلا أن هـذه الطائفة ... التي ما برحت منذ سبعين او ثمانين سنة مستمرة في ... ، قد لقيت الخراب في أصولها وفروعها . وإن أمر جعل كافة أفرادها ومن تبعها دفيناً في التراب ، وهـدم كل مأوى لهم واندثاره مرهون بالإرادة والجلوة الإلهية والحكم الصمدانية الخفية .

وتنفيذاً للخطة المرسومة فقد تقدم يوم الخامس عشر من شهر شعبان المكرم بيكباشي ولي النعم الحاج داود آغا ومعه دشوان آغا الدليل باشي وخلق كثير من دائرة خادمكم مستصحبين مقداراً معلوماً من الخيـــالة وأنا عبدكم معهم وهاجمنا قرية (ارجه)[1] الواقعة في سهل الدرعية لتأمين فتحها وتسخيرها ، وقد اغتنم ... عبـــد الله فرصة انفصالنا عن الجيش فبـادر هو ومعه نفر كبير من المشاة والخيـــالة بالخروج من السور والهجوم على متاريسنا ، غير انه بهذه الأثناء تدخّل وكيلنا الموجود هنـاك وهو سلحدارنا عبدكم اسماعيل آغا الموكل أثناء غيابي بالإضافة الى من في معيته من الخيـالة ، وعمل على صدّ الهجوم وردّ

---

(١) هكذا وردت في الأصل التركي ، والصواب : (عرقة) .

المهاجمين على أعقابهم ، وبقوة حسن طالع حضرة الذات العلية الملوكانية أعيد عبد الله مغلوباً الى مكانه السابق ، وقد جرح في هذه المعركة من جانبنا التوتونجي باشي (أي رئيس حجاب الدخان) محمد آغا ورئيس حجاب القهوة أحمد آغا ومأمور الجبخانة (الذخيرة) خاصتنا علي آغا وجرح بيكباشية حضرة ولي النعم بازار جقلي اسماعيل آغا أيضاً مرة أخرى كما التحق بيكباشي ولي النعم الآخر بهرام آغا بزمرة الشهداء وقتل ودفن عدد وافر من (النجديين) في هذه الحرب وجرح عدد كبير آخر منهم .

وبما أنه في اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور نفسه وقعت شرارة من النار على أدواتنا السفرية ومهماتنا الحربية وكل ما هو موجود وغير موجود منها فاشتعلت وتلفت جميعها ولحقت بنا خسارة فادحة وعدا عن ذلك فقد فُقد أو تلاشى مأمور الجبخانة ومأمور العربات وبعض أفرادنا وبعض المرضى الذين كانوا في حالتي النزاع والإستراحة .

إن هذه الكارثة قد يكون اتخذها العصاة وسيلة للتشفي وموجبة لرضا (النجديين) وسرورهم الوهمي. سارعنا عقب ذلك لتنظيم واستعراض الموجود من أفراد الخيالة والمشاة الذين ظلوا محتفظين بأسلحتهم وذخيرتهم سالمة ونبهناهم بالتزام الحذر والدقة في الحراسة والسهر ، ثم جمعنا عدداً من الجمال والهجانة وأوفدنا الجميع إلى قلعة عنيزة والى المدينة المنورة لنقل ما هو موجود بها من الذخيرة الاحتياطية والمهمات واللوازم وإحضارها بسرعة وكانت هذه الشؤون مدار اهتمامنا الزائد ومضاعفة الجهود زيادة عن السابق لدفع (الكارثة) والأخطار مؤملين بنصر من الله تعالى ومستعملين كافة ما لدينا من وسائل راجين الطاف وكرم الله العلي القدير .

هذا وبعد أن تحركت أنا خادمكم من المدينة المنورة ما برحت كافة الأدوات والذخائر والجبخانة وما يتبع ذلك من المهمات الحربية التي وصلتنا لتستعمل منذ مدة سنة سواء في حصار قلعة (الرس) أو في أكثر الحروب التي دارت منذ ذلك الحين وفي المسيرات التي حدثت على القلاع والاسوار وصرف المقدار الكبير

والشيء الكثير ، ولذلك ولمناسبة تلف ما بقي لدينا من الذخائر على الوجه المشروح بأعلاه فإنه من الضروري أن ترسل لنا الكميات الوافرة من الجبخانة والبارود والفشك (الرصاص) واللوازم مع كافة أنواع المهمات الحربية بكميات وافرة وبسرعة وعجلة فائقة وأن يتقدم أمركم العالي واهتمام دولتكم الزائد بذلك.

ومع أنه كان قد وصلنا ما تفضلتم بإرساله مقدماً مع جوقدارنا (قائد الجوقة) وهو مائتا ألف جندروز فرنسي (قد يكون الجندروز وحدة تمثل كمية عددية من الرصاص والذخيرة) ومع أنه حمل الينا نقوداً .. فإن كثرة النفقات والمصاريف قد عادت فأوقعتنا بحرج من جهة النقود،ولذلك فإن إرسال خزينة (نقود) أيضاً من شأنه أن ينقذنا من السكتة (يقصد الازمة) ، وإننا نلتمس الامداد والمعونة الدائمة من ذات ولي النعم .

ولما كانت بعض الأدوات ترد متفرقة على صورة لا تفي بالحاجة الملحّة الراهنة في حينها لأنها كانت مفردة (أي واحدة اثر واحدة) وبكمية غير كافية لمن هو موجود من المعية والعساكر،فإذا اقتضت الحال ولزم إجراء حصار او زحف فإنه بوجود ما يلزم من إمدادات يكون النجاح متيسراً وتحصل المنفعة العظيمة المنشودة. وبناء على ذلك فإننا أيضاً نرجو إرسال ثلاثة او أربعة من البيكباشية لتأمين حسن المظهر ، وإن ما بقي من امور وشؤون يمكن أن يقررها ويعرضها على دولة سيدي ولي النعم عبدكم حامل العريضة أحمد جاويش .

واننا لنلتمس بصورة خاصة دوام دعوات ولي النعم الخيرية سريعة التأثير ، ومع تمنياتنا المتواضعة بأن نكون مشمولين بالعناية العلية. وستكون الامور التي وردت بتقريرنا هذا الذي نرجو أن يحظى بشرف الوصول قرينة علم ورضاء دولتكم إن شاء الله تعالى ، ويكون من وراء ذلك شمولنا بلطف وكرم حضرة أفندينا ولي النعم ، وله الأمر .

١٩ ... [١] ١٢٣٣ هـ . **خاتم ابراهيم**

---

(١) اسم الشهر غير واضح في الأصل ، ولعله شعبان .

الوثيقة السادسة

كتاب ابراهيم باشا الى أبيه
عن استئناف الهجوم على متاريس الدرعية

ـ والكتاب مؤرخ في ٩ ذي الحجة ١٢٣٣ هـ . ـ

ـ ترجمة الرسالة ـ

حضرة صاحب الدولة والعناية ومزيد العطوفة والدي ولي النعم أفندم .

كما سبق أن تشرفت فأوضحت لحضرة زاهر الشرف ولي النعمة بتحارير عديدة أرسلتها على دفعات فقد بوشر منذ اليوم الخامس والعشرين من جمادي الأولى بالعمل على التنكيل بأهل الضلال وضرب مجموعة (الثائرين) .. وعلى رأسهم .. (عبد الله) ، المقيم بالدرعية وجماعته المناصرين له وانتزاع الدرعية وما جاورها من أيديهم وتسخيرها .

إن هذا كله من اقتضاء مأموريتي التي أعمل من أجل انفادها ليل نهار اطاعة وتنفيذاً للإرادة الملوكانية العالية باذلين الجهود والمقدرة من أجل ذلك . وانني منذ خمسة أشهر ونصف مضت على وجودي هنا ومن بمعيتي من العساكر المنصورة نجتهد بقوة لقطع عروق واجتثاث جذور (الثائرين)، وانه لا يمكن أن يحدث أي

19579

— أصل الوثيقة السادسة التركي —

قصور بهذا الصدد كما هو مؤكد ومعلوم لدى دولتكم . وفي الخامس من هـذا الشهر ذي القعدة شرعنا بالتطويق والهجوم على هؤلاء... الذين شيّدوا المتاريس والطابيات (التحصينات) ، وباشرنا اعتماداً على فضل وكرم الباري سبحانه وعلى مساندة حضرة النبي الأكرم وقوة بخت وحظوظ حضرة الذات العليـة الهمايونية وبادرنا جميعاً مع المشاة وعلى صورة خفية لتنظيم الهجوم وقبل أن ينبلج الصباح بساعتين حملنا عليهم من جميع الأطراف ومن الجهات الأربع ، وبنتيجة حسن اجتهاد وجهاد ومساعي الرؤساء والقادة الموجودين في معيتنا والذين أمروا أن يفتحوا النار من الجناح الأيمن ، وأفراد الجيش الذين عملوا بغيرة ونشاط زائدين أمكن نوال النصر والظفر واستولوا على التحصينات واحتلوا وضبطوا كافة المتاريس التي هاجموهـا ، ولما شاهد ذلك من كان في الوسط من الجنود والعساكر حصل لديهم الشوق الزائد وهتفوا بشدة وحملوا دفعة واحدة من كل الأطراف وشمروا للحرب والقتال بغيرة وبأس والحمد لله ثم الحمد لله انتزعوا كافة المتاريس الأخرى والتحصينات الموجودة بأيـدي هؤلاء ... وقبض على كثيرين منهم .

وكان ابن ... عبد الله الذي اشتهر باسم « سعد » متحصناً في قلعـة متينة محكمة واقعة باتصال قرية تدعى باسم « علوي الباطن » ومعه خمسمائة من الثائرين متحصنين وعلى استعداد للتضحية والفداء مدفوعين بعامل الخوف والوجل .. قاموا جميعاً خلال أربع وعشرين ساعة بالحرب والقتـال واستمرّت المعركة بينما كانت نار الحرب مستعرة أيضاً ومشتدة في الجناح الشمالي إذ كان لا يزال في يـد (الثائرين) بعض التحصينات والمتاريس . وفي صباح اليوم التالي وقبل الفجر بساعة أمرنا بالتجمع وبالهجوم بقلب واحد ونفس متحمسة وعدنا للقتال بشدة ، وبعون وعناية الباري سبحانه وتعـالى وبقوة وكرامة حضرة أفندينا صاحب الشوكة انتصرنا أيضاً على هؤلاء جميعاً وتيسّر لنا الظفر وانتزاع حتى ما هو موجود بأيديهم في قلعـة الدرعية نفسها من متاريس وتحصينات وكافة ما بقي من أماكن ، وضبطنا خمساً وعشرين قطعـة من مدافع الطوج ذات

الدواليب العالية مع عدة قطع من المدافع الحديدية ، وجرى الاستيلاء على كافة مواقع الدرعية الباقية ما عدا المدعو (عبد الله) الذي بقي معتصماً ومختبئاً في احد الأماكن بمعونة من معه من (الأنصار)، ومع ذلك فقد حوصر ذلك المكان من الجوانب الأربعة وشُدّد بالتضييق عليه ، وبنصر من الله تعـالى سيجري القبض على هـذا (...) أيضاً حياً أو ميتاً هذا اليوم او غداً إن شاء الله فتُدفع غائلته ، وهذا هو المرجو والمؤمّل من الألطاف الإلهية .

وإننا لكي نزف هذه البشرى الجليلة المشرّفة فقد صمّمنا على أن نبعث كاتب خزينتنا عبدكم محمـد أفندي وأن نسلمه تقريراً يحتوي على تفصيل الحالة ونُحيل أمر التعرف على حقيقة ما جرى الى الاطلاع على ذلك التحرير إذ يتضح حينئذ ويستبين كل شيء ويظهر للعيان .

على اني ، بالإضافة الى ذلك ، ولما كنت أعلم ان الذات العلية الأبوية تنتظر بفارغ صبر هذه الفتوحات العظيمة وهذه النتيجة المشرفة وتتشوق لهذا الأمر ، سارعتُ فوراً لتحرير هـذا المكتوب الموجز كمقدمة وسيّرناه مع أحد رتباء معيتنا عبدكم عمر جاويش الى الطرف العالي ، وأرجو أن ينـال شرف الوصول ليدكم الكريمة ويحظى بمنظوركم . وإني ، كما هو معلوم لدى سيدي الوالد صاحب الدولة ، راغب على الدوام بأن أكون مصحوباً بدعواتكم الخيرية ومحـاسن توجهاتكم الأبوية كما كان وكالعادة مشمولاً بمظاهر وكافة أنواع جود مكارمكم وهذا ما أبتغيه وأستدعيه .

٩ ٢٣٣ خاتم ابراهيم باشا

الوثيقة التاسعة

رسالة ابراهيم باشا الى والده محمد علي باشا .

— ترجمة الرسالة —

ولي النعمة والدي المكرم أفندم .

وفقاً لما كنت عرضته مقـــدماً وتحريراً الى دولتكم ان ... (عبد الله) ومن بمعيته من الأفراد المتحصنين في بساتين الدرعية وعـــددهم يربو على خمسه آلاف لا يزالون في أماكنهم . وقد وضح من التحقيقات التي أجريناها هـذه الأيام أن عبيد وخدم عبد الله ... بالإضافة الى القوى والإمكانيات المتجمعة من زمن أبيه وجده التحصـ بذل الجهود وانضمت جميعها الى أفراده مارّي الذكر والعدد الموجودين في سرعية وهو يبني لهم في وادي وبساتين الدرعية المساكن والحصون البرجية بعـد أن حصل على ما أراد بالاستدراج والإقناع بالباطل وأنشأ سوراً داخل الدرعية وأحدث تحصينات متينـــة للوقاية ولديه الكثير من الذخائر والمهمات وقـد شرع بتجهيزها وتنظيمها لاستعمالها حين الاقتضاء . وهكذا فإنه يسخر هـــذه القوى والمعدات لإعداد حصون كثيرة وإنشاء أبراج في ملحقات الدرعية . وقد أقام على مقـدمة أحد الوديان في الدرعية نفسها محلتين متقابلتين سكن بالجانب الغربي منهـا عبد الله وأتباعه ، واستقر بالجهة الشرقية أفراد

— صورة الوثيقة التركية التاسعة —

طائفة المرابطين وبقية الأهالي وقد أخذ يستقدم كل واحد من أهـــالي القرية ويزوده بالتعليمات اللازمة بعـد أن يأخذ عليه المواثيق والأيمان حسبما تقتضيه ظروفه الخاصة ويحضهم على الاتحاد القوي معززاً ذلك بالروابط القوية ، وبذلك أمن على نفسه وحركته كما أمنهم على طريقتـه الخاصة على أنفسهم ومكاسبهم وأثار فيهم النخوة والنعرة «الجاهلية» . . والحماسة والغيرة بحيث جعلهم يعتقدون بأن الموت في سبيله مرجح على بقائهم أحياء ، وقد قبلوا بأن يضحّوا بأنفسهم .

ولذلك وبناءً على ما سبق بيـانه فقد رأينا ان الزحف عليهم مباشرة دون التمهيد للأمر لا يأتي بفائدة تذكر فتقرر واستصوب أن يجري حصرهم والتضييق عليهم والإحاطة بهم تطويقاً ليصبح بالإمكان استئصالهم . وعلى هـذه الصورة وكما أوضحنا بعريضتنا السابقـة انه بوصول الإمدادات التي ستحضر بفضل الله تعالى وتلحق بجيشنا قريباً فإننا نبادر حينئذ جملة بالزحف الجماعي من كل صوب وطرف ونفتح هذه القرية ونضبطها . وبهذه الوسيلة نرجو من ألطاف البـاري سبحانه وتقديراته أن نتمكن من دفع غوائل هؤلاء . . . وأن تتيسر لنا إبادتهم بمنّه تعالى .

ولكي يكون هذا قرين علم ولي النعم العالي بادرنا بعرضه على حضرة الوالد المكرم ، وعلى كل حال فإن الأمر والإرادة لحضرة من له الأمر أفندم .

ختم ابراهيم باشا   ٢٣٣   ١٩

الوثيقة الثانية عشرة

التحقيق مع الامام عبد الله بن سعود

(لخصنا في الصفحات ١٤٥ - ١٤٨ التحقيقات التي قام بها قاضي التحقيق في استانبول مع الامام عبد الله بن سعود ورفيقيه ، رحمهم الله ، وقد وجدنا في استانبول «محضر» التحقيق التاريخي.. فصورناه وأثبتنا صورته الفوتوغرافية على الصفحتين ٢٤٤ و ٢٤٥ ليرجع اليه من أراد .. وتختلف ترجمة الوثيقة هنا قليلاً عما جاء في الصفحات ١٤٥ - ١٤٨) .

[illegible]

33

19627

1/2

[illegible]

[illegible]

[illegible]

19627

2

محاضر « التحقيق » !

مع الامام عبد الله بن سعود

— ترجمة الوثيقة —

هـــذا تقرير يشتمل على الإفادات المأخوذة من عبد الله بن سعود ورفيقيه الشخصين المعروف أحدهمـا باسم عبد العزيز والآخر باسم عبـد الله السري الموجودين جميعاً في سجن بوستانجي باشي آغا .

لقد بوشر قبل كل شيء بإخراج المرقوم (عبدالله بن سعود) منفرداً وبوضعه في غرفة اخرى ووُجّه اليه الحديث الآتي : « إننا سنسألك عن بعض الأشياء فإذا كنت ستجيب على أسئلتنا على صورة صحيحة وموجبــة للاعتماد وتُظهر هكذا صداقتك وإخلاصك فإنك ستنجو بلا شك من هــذه العقوبة وستكون موضع الالتفات الكريم ، أمـــا إذا كنت ستتذرّع بالإنكار وتقع فريسة الادعاءات الباطلة تصبح حينئذ معرّضاً لمواجهة عاقبة وخيمة . وسؤالنا هو :

« حين استولى والدك سعود فيما سبق على المدينة المنورة كنت أنت بالذات ، كما هو معـــلوم لدى العموم ، معه ومرافقاً له ، وفي ذلك الحين دخلتم الروضة المطهرة وسلبتم وانتزعتم منها ومن الخزانة السعيدة أشياء وأغراضاً وأموالاً كثيرة

و (تبرّكات) ذات قيمة ،وإن ما هو موجود في الصندوق الذي أُحضر معك هذه المرة من الأشياء المباركة هو جزء تافه قليل ممـا سُلب وأُخذ . فأين بقيت تلك الكميات الوفيرة من التبركات والأشياء النفيسة ؟ وبما أن هذه الأشياء مما لا يمكن أن يُدَّعى تلفه فهي والحالة هذه لا بد وأن تكون موجودة في محل ما بلا شك وشبهة ، وبناء عليه فإننا نرغب أن تفيدنا عن محل وجود الأشياء الباقية وبأيدي مَن هي حالياً ؟ ولكي يتيسر لك الخلاص ويمتد أمامك طريق السلامة عليك أن تقول الحقيقة وتفيدنا على وجه الصحة عما سألنا عنه » .

ولما انتهينا من سؤالنا أجاب بقوله :

« إنه وإن كان في ذلك الوقت وفي الواقع بصحبة والده سعود لما دخـل المدينة المنورة ولكنه ، على مـا يزعم ، لم يدخل معه الحجرة السعيدة الشريفة لأنه لم يكن راضياً قطعاً عن ذلك وعن سلب تلك الأشياء المباركة ولم يتدخل قطعياً بهذا الأمر ولم يأخذ أي شيء منها قلّ او كثر حتى انه لم يشاهد الأشياء التي أخذت لأن والده سعود هو الذي دخل وحده الى الحجرة المبـاركة ومعه من أعوانه وخواص أتباعه المدعوون عبدالله بن مطلق وغصّاب وحبّاب وأحمد الحنبلي وابراهيم بن سعيد وشخص يدعى جـبر كان يشغل وظيفة رأس كتاب سعود ، فإذا كان هنالك أشياء أخذت وأغراض سُلبت فيكون هؤلاء هم الذين أخذوها . وقد توفي من هؤلاء المدعو ابراهيم بن سعيد وباقي الأشخاص موجودون الآن في الدرعية عنـد والي جدة ابراهيم باشا ، وإن رأس الكتاب المدعو جبر المذكور يعرف أكثر من غيره هذه الامور لأنه كان وحده مطّلعاً على خصائص وشؤون والده سعود » .

ولما انتهى من إجابته هـذه قلنا له « انه لمناسبة كونه أكبر أولاد والده سعود وهو المؤتمن الموثوق به من قِبَـله أكثر من الغير ولأنه كان في ذلك الوقت مدير شؤونه فإن قوله انه لا يعرف وإنكاره حقيقة ما وقع وإسناده الامور الى أجانب مثل فلان وفلان واللجوء الى تبرئة ذمته على هـذه الصورة هو جواب لا يمكن أن يكون مقبولاً وانه في أية حال يجب أن يكون لديه العلم الكافي

بما جرى بالأشياء الثمينة المذكورة المأخوذة » . وكررنا عليه العبارات المؤثرة ، ولكنه كرّر ما قال وحلف الأيمان المغاظة منكراً تدخله فيما نسب اليه وسُئل عنه ، وأضاف انه لم يشاهد الأشياء التي أخرجت من الحجرة الشريفة وأخذت ولا هو يدري ما هي وأشكالها وأنواعها وان حقيقة الحال والواقع لا يمكن ان يعرفها اليوم سوى الموجودين في الدرعية . وقال انه منذ وقوع هذه الحوادث نفر من أبيه غاضباً واعتزله وعاش لوحده وبقي بعيداً عنه ولم يذهب الى جهته حتى وفاته . هذا ما جاء بإفادته .

● ● ●

ثم أحضر رفيقه المدعو عبدالله السري منفرداً وهو الذي ، حسب زعمه ، كان خادمه وحافظ أمتعته وثيابه وبوشر كذلك باستنطاقه بعد المقدمات المؤثرة فأفاد انه عبارة عن خادم ، وانه بهذه الصفة لا يمكنه ان يطلع على هذه الأمور ولا أن يعلم شيئاً عن الأموال والأشياء المبحوث عنها . وعاد هو أيضاً فذكر أسماء الأشخاص الذين مر ذكرهم والموجودين في الدرعية وقال أن هؤلاء هم الذين يعرفون وحدهم ما جرى وحقيقة كل هذه المسائل ؛ ولكنه أضاف بأنه لما كان عبدالله بن سعود على وشك الحضور إلى هنا وبينما كان في مجلس والي جده ابراهيم باشا بالدرعية شاهد هذا الصندوق حين أتت به شقيقة عبد الرحمن بن سعود الموجود الآن في الدرعية وسلمته إلى عبد الله لكي يأخذه معه لافتراض ان الدولة العلية ستسأل عنه وأن هذا بدوره سلّمه إلى المشار اليه (يقصد ابراهيم باشا) ، وان هذا كل ما يعرفه وقد أصرّ على ذلك دون اضافة شيء رغم التأكيد عليه ، وكرّر اجابته .

● ● ●

وبناء على ما سُمع بالتواتر ولدى الاستمرار باستجواب عبد الله مرة أخرى فُهم ان بعض الأشياء ذات القيمة الكبيرة التي كانت موجودة بالصندوق الذي أخذه أبوه سعود من الحجرة الشريفة قد بيعت إلى الشريف غالب المتوفى بمعرفة نسيبه

محمد عطاس وان الشريف المتوفى أرسلها أيضاً من قبله إلى الهند لكي تباع في تلك الجهات وإن ما بقي من المواد والأشياء وزّعه والده على هذا وذاك وأتلفه. وقد أودَع هذا الصندوق أثناء وجوده على قيد الحياة (اي سعود) وسلمه إلى شقيقته (موضى)، وذلك بعد أن سجل مفردات الأشياء الباقية وعددها وأنواعها بدفتر ممهور وضعه داخل الصندوق . وبعد ان توفي والده وعاد (اي عبد الله) إلى الدرعية أتت شقيقته بالصندوق وسلمته له كما هو ولم يصل إلى يده اي شيء آخر عدا ما ذكر وانه لما كان على وشك الحضور إلى دار السعادة أحضر الصندوق بدوره وسلمه إلى إبراهيم باشا والي جدة الموجود بالدرعية . وقد تبيّن ان هذه الأمور جميعها منطبقة على ما جاء بإفادته ومن فحوى التحقيقات الدقيقة التي كان أجراها ابراهيم باشا المشار اليه أيضاً . على ان عبد الله بعد أن تبين هـذه الأمور وُجّه اليه سؤال آخر وهو : ان ما أفاده بأنه لم يكن بيد والده سوى هـذه الأشياء وان ما عداها قد وُزع وأُتلف ، غير وارد او صحيح وانه من الملحوظ ان يكون عدد من هذه الأشياء التي لم تتلف ولم تبع لا يزال موجوداً وقلنا له : انه من البديهي ان تكون كافة تلك الأشياء قد انتقلت اليكم بعد وفاة الوالد إذ لا يعقل أن يتدخل الغير بذلك ، كما ان هنالك الكثير من الأشياء والموجودات الفنية والأغراض المباركة ذات القيمة ، أُخذت من مشهد حضرة الإمـــام الحسين ومن أماكن أُخرى غير الحجرة الشريفة ، ولذا وجب اعطاء المعلومات أيضاً عن نوع هذه الأشياء وعن عددها وعن محل وجودها .

وقد كان يُستعمل معه اللين أحياناً حسب الاقتضاء والشدة والتخويف تارة اخرى لأخذ جواب شاف ولكنه كان دائماً يعود فيحلف الايمان المغلظة مُصراً على ما قاله سابقاً ومؤكداً بأنه وان يكن صحب والده إلى المدينة المنورة إلا انه لم يتدخل قط بقضية أخذ أشياء او أموال من الحجرة المباركة ولم يَرَ شيئاً وان الحقيقة هي هذه لا غير وأفاد بأنه لم يكن مع والده حين ذهب إلى مشهد

حضرة الإمام الحسين ولا علم له بذلك وانه اذا كان جرى شيء فإن والده هو الذي قام به وإذا كان أخذ شيء فإن والده هو الذي أخذه وأتلفه وأضاعه ، وان الأشخاص الذين ذكرهم بإفادته آنفاً والذين كانوا بصحبته يعرفون ما جرى حين الذهاب إلى المشهد وانه بالذات ليس له أي دخل في كل هذه الأمور وهذا ما يعرفه الجميع فإذا أجرت الدولة العلية تحقيقاً بهذه الأمور يتضح ذلك وتبرأ ذمته . هذا ما أجاب به على الفور ولم يزد .

● ● ●

وبعد ذلك أعيد عبد الله الى الغرفة الاخرى واستُحضر أحد رفيقيه في السجن المدعو عبد العزيز ، وهو الذي يقال انه كان كاتبه الثاني ، منفرداً ، وبعد سرد المقدمات المناسبة بوشر باستجوابه وبعد ان أفصح عن اسمه وهويته قال : « انا كنت في خدمة عبد الله ، كاتبه الثاني ، ولما تقرَّر الحضور الى دار السعادة ولدى خروجه من الدرعية استصحب معه اثني عشر نفراً ليقوموا على خدمته ، ولدى الوصول الى مصر لم يقبل والي مصر ان يستصحب معه هذا العدد من الأشخاص لأنه استكثره وسمح بنفرين فقط وكلَّف عبد الله بأن ينتخبهما فرغب عبد الله بأن يستصحبني ورفيقي الموجود معي حالياً ، وبما اننا لم نكن نعرف بأننا سنكون معرَّضين لهذه الحالة قبلنا باختيارنا ورضانا ان نصحبه وأتينا » .

وأضاف قائلا : « انني لم أكن موجوداً حين الاستيلاء على المدينة المنورة ولا حين جرت وقعة مشهد حضرة الإمام الحسين ولذلك فإنه لا علم لي قطعاً بالاشياء المأخوذة وعبد الله لم يكن راضياً عن اقتحام ابيه الحجرة الشريفة والتصدي لها ولذلك ومنذ ذلك الوقت افترق عن معيته ولم يذهب اليه طيلة مدة حياته وحتى وفاته ، وان سعود لم يُظهر احداً على ما اخذه من اموال الى اولاده واقاربه ، بل اطلع من كان بمعيته فقط وهم المدعوون عبد الله بن مطلق وحبَّاب وغصاب

الذين كانوا معه حين أخذ الاشياء والاموال المذكورة وان هؤلاء في الدرعية موجودون عند ابراهيم باشا . وقد سمعت ان سعوداً حين اخذ تلك الاموال والاشياء وزع قسماً جزئياً على عساكره منها وباع الباقي الى الشريف غالب المتوفى. وتصرّف الشريف غالب بقسم منها وباعه في الحرمين الشريفين الى هذا وذاك وبعث بما بقي الى الهند فبيع هناك ولم يصل ليد عبد الله سوى هذا الصندوق الذي سلمه » .

وبهذا ما يؤيد افادة عبد الله، ثم اكد بأنه لا علاقة له بهذه الاموال والاشياء وان ليس لديه معلومات اخرى وعزز ذلك بأيمان مغلظة .

مصرع الامام الشهيد

عبد الله بن سعود في استانبول

إتماماً للفائدة ، نعرّب في شيء يسير من التصرف ما كتبه المؤرخ التركي جودت باشا عن وصول الإمام عبد الله بن سعود الى استانبول والتحقيق « الشكلي » معه ثم قتله بأمر السلطان العثماني وهو العمل الهمجي الذي أشرنا اليه في كتابنا .

قال المؤرخ التركي :

(وصل عبد الله بن سعود الى مصر خلال شهر محرم فأرفق بنفر من الحرس رأسهم آغا التاتار وأركب الباخرة الى استانبول ، فوصل الى خليج استانبول في ١٥ من شهر صفر هو وصحبه ، ووجّهوا الى ميناء الدفتردار بالقرب من مسجد أبي أيوب الأنصاري .

ثم أرسل البـــاب العالي فرقة خاصة ذهبت الى مكان الأسرى وقيّدتهم بالسلاسل وجاءت بهم الى ديوان البـاب العالي ، يحيط بهم الحرس من جانبيهم ، فتفضل الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) بمنح الموظفين الكبار ورئيس التاتار ورؤساء الحرس الهدايا الثمينة وأعطى كلاً منهم جبة من فرو السمور وخصص لبعضهم رواتب سنوية ، ثم أمر بأن يؤخذ الأسرى الى سجن (بوستانجي باشي) .

وقد استغرق التحقيق معهم ثلاثة أيام، وعند انتهاء التحقيق أرسل الأسرى (أي الامام عبد الله بن سعود ورجاله الذين كانوا معه) الى السراي الهمايونية القديمة حيث كان السلطان « يتفرج » على ألعاب « الجريد » ورمي السهام والنبال .. وبعـــد أن جرى عرضهم عليه أمام الجماهير أخذوهم الى ساحة بالي (بالي كوشك) حيث جرى إعدامهم .

وبهذه المناسبة !.. تفضلت الذات العلية الشاهانية بالانعام على محمد علي باشا وابراهيم باشا بسيف و « قفطان » وأرسل اليهما الفرمان بذلك !.

ومما يحسن ذكره،أن عدد (الوهابيين) الذين نفوا من بلادهم الى مصر بلغ أربعمائة رجل) .

٢ ـ كتاب محمد علي الى السلطان

ـ ترجمة الرسالة ـ

حضرة صاحب الدولة والعنـــاية والعطوفة والرأفة والأبهة ولي النعم عالي الهمم كثير اللطف والكرم مليكي المعظم .

بناءً على الأمر العالي الذي تشرفت بأخذه أنا خادمكم في حينه، لقد جرى فوراً إرسال أمر «فرمان» حضرة ولي النعم ـ المتضمن الإرادة السنية الشاهانية بخصوص عـــدم التقاعس عن المحافظة على الحرمين الشريفين وملاحظة ضرورة تأمين حسن النظام في تلك الأطراف والجهات ـ إلى عبـدكم ابراهيم باشا والي جدة، كما أمر بموحب الإرادة الشريفة بأن لا يتقدم خطوة أخرى إلى أية جهة، بعد انتهاء « مصلحة » الدرعية، وأن يعود إلى المدينة المنورة، ولقد حررت له ورقة بهذا الصدد ورُبطت بذيل الأمر الكريم والفرمان الشاهاني المشار اليه .

وقد وضح من التحرير الوارد الآن من الموما اليه (يعني ابراهيم باشا) ومن التقرير الشفهي الذي سمعته من كاتب الخزينة عبدكم محمد أفندي الذي وصل حاملاً أخبـــار القبض على (عبد الله) .. أنه إذا لم يجرِ القضاء على حركات الأمراء « النجديين » المقيمين بتلك الأطراف (يقصد حوالي الدرعية) ... فإن القبض

على (عبد الله) وتدمير الدرعية فقط ، لا يكفيان لرد غائلة اولئك المتمردين . ولذلك يجب أن يعود (ابراهيم) ليؤمن استقرار العربان وربط أمراء نجـــد الموجودين بتلك الأطراف بالسلطة وتثبيت خضوعهم ، إذ بدون ذلك تبقى هـــذه الطائفة العنيفة التي اعتادت منــذ مدة وفيرة على مناوأة الحكومة .. متحركة وعاملة على إحداث التشويش دون هوادة أو سكون .. وهــذا ظاهر واضح لا يحتاج إلى تأكيد أو برهـــان . وإن دفع غائلتهم وضبط الأماكن التي بيدهم وإدخالها في حيز التبعية هي الغاية المنشودة والمصلحة تقتضي ذلك . وقد تلف حتى الآن هــذا العدد الوافر من الأرواح .. وأصبح تنظيم الامور وشيك الحصول ، ولا يجوز تركهم على هذه الحالة لما يترتب على ذلك من الضرر العظيم .

وإن ما يرمي اليه هـــذا العبد العاجز هو توطيد نفوذ عالي الشأن حضرة الشاهنشاه ذي العظمة والمهـابة ولي النعم أفندينا ومليكنا المعظم ، على الوجه الأتم والأكمل ، وأن أظل مشمولاً بالعناية الملوكانية ... وإذا صدرت الإرادة المطاعة بالعمل على ربط تلك الأماكن والمواقع بنظام وتدبير حسن ، وهو مـا تقتضيه المصلحة ، ألتمس الأمر بإشعاري بذلك . وإن قصد هـــذا العاجز هو بذل الروح في خدمة المليك الأكرم ، والله يعلم أنه لا بغية لي سوى ذلك ، وبعد أن تتم عملية وضع النظام هـــذه في المواقع والجهات المذكورة إذا رأت الذات العلية السلطانية أن تجعل أمر إدارتها منوطاً بحضرة الوزير سمير المعالي وصاحب العطوفة خادمكم والي بغداد أو تولية شخص آخر من خدم الحضرة السلطانية فلها الأمر والإرادة .

وإلى حين ورود الإرادة السنية الكريمة بذلك ولكي لا يتوقف العمل ويتعطل فإني أنا خادمكم قـد نبهت على خادمكم ابراهيم باشا المشار اليه أن لا ينقطع عن المبادرة لتأمين النظام في الأماكن المذكورة وما يمكن أن يحصل من ثغرات وربطها وضبطها على أحسن صورة ، وقد سارعت بتقديم عريضتي هذه إلى المقام

العالي ، السلطاني ، ولي النعم ، ولدى شرف وصولها إن شاء الله تعالى وإحاطة العلم العالي بمـــا جاء بها وصدور التوجيه الكريم السامي الصادر عن النورانية السنية والكرامة الشاهنشاهية ، سيحظى خادمكم بالإفادة والأوامر العلية . والأمنية الغالية هي نوال مرضاة وحسن توجيه حضرة سيدي ولي النعم صاحب الدولة والعناية والمطوفة والرأفة والأبهة العالية ... أفندينا المعظم [1] .

٢٧ رجب ٢٣٣ خاتم محمد علي

---

(١) نشر أصل هذا الكتاب على الصفحتين ٢١٦ و ٢١٧ .

الرسالة الثانية

من عبد الله بن سعود الى محمد علي باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد علي باشا !

نحمدك اللهم على ما منّيت به من الإصلاح ، بالصلح الحاقن لدماء المسلمين عن السفك بالسلاح ، وحميت به حمى الدولة الاسلامية عن الوقوع في أشراك البلية ، وكففت بـــه أكف الأمة المحمدية ، عن بلوغ العدو فيها غاية الأمنية ، ونصلي ونسلم على أشرف الرسل الهادي لأحسن السبل ، محمـــد أكرم أنبيائه وأفضل أصفيائه ، وعلى آله الكرام وأصحابه هداة الأنام .

ثم ينتهي لحضرة الجناب العـــالي ، الدائم في طلب المعالي ، عزيز مصره ، وبدر دهره ، بلغه الله من المعالي ما شاء ، ذي الهمة العلية ، والأخلاق المرضية ، حرسه من طوارق البلا ، وبلغه ما أراد من الرتب العلا .

وبعد . .

غير خاف على جنابكم حقيقة ما نحن عليه وما ندعو الناس اليه . إننا جاهدنا الأعراب حتى أقاموا الصلاة وا توا الزكاة وألزمناهم صيام رمضان وحج بيت الله الحرام ، ومنعناهم عن ظلم العبـاد والسعي في الأرض بالفساد ، وعن قطع سبل

المسلمين والتعرض لحجاج بيت الله الحرام من الوافدين ، فعند ذلك شكوا الى والي مكة (غالب) ، ورمونا بالكذب والبهتان ، وخرّجونا وبدّعونا وقالوا فينا ما نحن منه براء ، فسيّر علينا بأجناد وعدد وعـدة فأعجزه الله وله الحمد والمنة ، فقاتلناهم دفعاً لشره ، ومقابلة لفعله القبيح ومكره ، فردّه الله بغيظه ولم ينل خيراً ، واستولينا على الحرمين الشريفين وجـــدة وينبع ، فلما تمكنا من أوطانه فعلنا معه كل جميل ، وأقرّيناه على ما كان تحت يـــده من البلدان ، ووجهنا مدخول البنادر اليه وأكرمناه غاية الإكرام ، توفيراً للنسب الشريف وتعظيماً للبلد الحرام ، ثم بعد ذلك قام وقعد ، وأكثر التقلب واجتهد ، وبالغ عند أبي ، رحمه الله ، في رد الحجاج القادمين من جهتكم ، وزعم إنهم إن قدموا (مكة) شرّفها الله ، سفكوا فيها الدماء واستحلّوا حرمتها ، وأكثر القول فيهم حتى قال إنهم اهل غدر وخيانة ، فظن أبي ذلك نصيحة منه فمنع الحجاج خوف الفساد والفتن ، وكتب الى الدولة إذ ذاك كتباً مضمونها : إننا لم نمنع الحجاج القادمين يحجون البيت الحرام ويزورون المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، من غير أن يحدثوا حدثاً تستباح بـــه حرمة الحرمين الشريفين ، فنحن نحميهم عن جميع من تحت يدنا من حاضر وباد ، حتى يحجوا ويرجعوا الى اوطانهم .

ثم ان الشريف طلب من أبي ، رحمه الله ، أن يتولى إرسال تلك الكتب التي هذا مضمونها الى الدولة ، فأجابـــه ، لكونه أعرف منا بتلك الجهة ، ثم إننا تحققنا أن ذلك مكر منه بنا لأنه أظهر للدولة عنا غير ذلك وصار يكتب لهم على لسان أبي ما يورث العداوة والإحن بيننا وبين الدولة من الكذب والبهتان ، ويمهر تلك الكتب التي زوّرها بمهر قد نقشه باسم (سعود) ، ويحبس ما كتبه أبي عنده ، وقصده بذلك إثارة الفتن واضطرام نار الحرب ، ونحن لا نشعر بشيء من مكره ، حتى ثار الحرب بيننا وبينكم وأحاط بـــه سوء فعله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فعلمنا أن مطلوب الدولة العلية صيانة الممالك الاسلامية لا سيا الأقطار الحجازية ومن اعظمها صيانة الحرمين الشريفين ، والذبّ عن

حماها الأحمى بلا ريب ولا مين ، والقيام للدولة على قدم السمع والطاعة والإقدام على إظهار المشعر بها حسب الاستطاعة ، ومنها الدعاء بحضرة سلطان السلاطين نصره الله تعالى على المنابر وكفّ يـد الأذى عن الوارد الى الممالك المحروسة والصادر ، فأطفأنا من الشر حريقاً ، وفتحنا الى الصلح طريقاً ، ولم نزل نجتهد في إبرامه حتى انعقد بين الفريقين ، وبذلنا الوسع في حقن الدماء من الجانبين ، وصورة ما وقـع عليه انعقاد الصلح من الشروط محرر في الوثيقة مضبوط ، فبوصلها اليكم تشرفون على إجمالها وتفصيلها، ونرجو أنكم تستحسنون مواقع تأسيسها وتأصيلها وتشرفون على كتابنا المعروض على حضرة السلطان ، ولكم الأمر ، بعد الله ، في جميع هـذا الشأن ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

عبد الله بن سعود

(ختم دائري : الواثق بالله
المعبود ، عبد الله بن سعود)

الرسالة الثالثة

من الامام عبد الله بن سعود الى محمد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن أحمى غراس المواصلة بوابل هتان من المكاتبة والمراسلة، وأحاط به مادة المقاطعة والمفاصلة والصلاة، والسلام على سيدنا محمد أشرف من أرسله وعلى آله وصحبه الذين بلغوا من صحبته ومحبته غاية المنزلة .

إلى من شرفت به الدولة المرعية والرتب العليه حتى صار ملهج لسانها،فحل من عينها مكان إنسانها ، فريد مصره ووحيد قطره .

بعد التسليمات الوافرة والتحيات المتكاثرة ، ننهي اليكم أدام الله سبحانه سوابغ نعمه عليكم ، انه قد وصل الينا كتابكم وفهمنا ما تضمنه خطابكم ، فوقفنا على معانيه ، وعرفنا المصرح به والمشار اليه فيه ، وما ذكرتم من القبول لما انبرم من أمر الصلح إن كان ما قلنا حقاً وما حررناه محكماً وصدقاً ، فنحن بحمد الله للمكر والخديعة مجانبون ، وللصدق والوفاء بالعهد معاملون ، وليست الخديعة والمكر من شيم الكريم الحر ، والصدق قد تقرر من سيرتنا عند البعد والفضل مما شهدت به الأعداء وليس عندنا لكم إلا الصدق والوفاء ، فيما ظهر وخفي ، فلكم منا العهد والميثاق أننا لما جرى بيننا وبينكم ملتزمون ، ولأمر

المعاقدة محققون ، فالواجب منكم مراعاة العهد بالتزام أحكام الحق وإيثار أسباب الرفق لما في ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل ، ومثلك وفقك الله ممن يستغني بإشارة التذكرة ويكتفي بلمحة التبصرة لما تأوي اليه من السياسة والتجربة ، وما أشرتم اليه من حروبنا السابقة مع أهل الحجاز وغيرهم فلم نقاتل أحداً منهم ابتداءً ، بل هم بدأوا بالقتال بغياً وعدواناً فقاتلناهم دفعاً لشرهم ، فجعل الله لنا عليهم سلطاناً ولم نقابلهم بما جرى منهم إلا إحساناً ، فلما كانت لنا القدرة عليهم أمرناهم بإقامة شرائع الإسلام والتزام سائر الأحكام من عبادة الله وحده لا شريك له وإقامة الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ،فانحسم بذلك مواد شرهم وفسادهم لأن أكثرهم مفسدون في الأرض مضيعون لما أمر الله من الواجب والفرض ،بل أكثرهم للطرق قاطعون وجملتهم للبعث منكرون يقولون ما قاله سلفهم الاولون ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ،وما لهم بذلك من علم ،إن هم إلا يظنون﴾ ، فلما كانت لنا القدرة عليهم وجب علينا أن نحملهم على الشرع الشريف عملاً بقوله سبحانه ﴿ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ﴾ ، وبقوله ﷺ فيما صح عنه وثبت : (من رأى منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) ، ولأننا نعلم علماً قطعياً أن السلطان لا يرضى منهم بذلك ولا يأمر بدخولهم تلك المسالك وأما ما أشرتم اليه من اهتمامكم بالحرمين الشريفين وسعيكم في مصالحها فهذا أمر قد تحققناه من سيرتكم وعرفناه من طريقتكم ونحن إن شاء الله نلتزم لكم بذلك ، فنكف عنهم الأذى ما استطعنا ، ونوصل من الأقوات اليهم ما قدرنا ، ونمنع حجاجكم من أرادهم بسوء ومكروه أو حام حماهم بأمر لا (ترضوه) ، ولو كان الحرمان الشريفان من أعوانكم خالية ومن عسكركم صافية لم يأتهم منا ما تكرهون ، ولم يقع ما تحذرون ، فهم من طرفنا قرير العين والقلب طيب الخاطر واللب فنحن إن شاء الله في طاعة الله ورسوله يد واحدة على من سوانا معتصمون بحبل الله على من عادانا وفي الحقيقة ما تحت يدنا من الجيوش

والأعوان عسكر لكم وفي خدمتكم بلا ديوان ، نسأل الله العظيم أن يجمعنا وإياكم على طاعته ويدخلنا دار كرامته ويعمر بالسؤدد ربعك ويوسع لحمل أثقال المعالي ذرعك ، وصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله على أشرف خلقه وخيرته من بريته محمد وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً .

حرر في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر (بدون ذكر سنة) .

ختم دائري :

الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود

تحية عبد الله بن سعود

الوثيقة العربية الثالثة

رسالة السقاف عن معركة ماوية

– ومقتل عدد من الأمراء ومشاهير الدرعية –

الوثيقة الحادية عشرة

رسالة محمد خسرو قبودان درما
الى السلطان عن فتح تربة

الرسالة الآتية وردت الى السلطان العثماني من أحد الموظفين مبشرة باحتلال « تربة » ، فرفعها رئيس الوزراء الى السلطان فكتب السلطان تعليقاً عليها :

(لقد اطلعت على هذا

إن ظهور المسرة إثر هـــذا الخبر هو إن شاء الله تعالى فأل خير ، جعله الله مقترناً بالصدق . لقد سررت !)

وأما رئيس الوزراء فرفعها الى السلطان بهذه العبارات :

(هذه هي المذكرة الواردة إليّ أنا خادمكم من قبودان باشا عبدكم . إن والي مصر عبدكم محمد علي باشا بعـد أن هجم على أشقياء العربان وانتصر عليهم حائزاً الظفر الكبير وبعـد أن أتم الاستيلاء على القلعتين المعروفتين باسم كيلاخ وتربة والقبض على رئيس الأشقياء المدعو (فادي) وأكثرية سائر الرؤساء واسترقاقهم أوفد الى الاستانة السعيدة أحمد آغا ونفراً من التاتار للتبشير بقهر العصاة . .) . الخ .

— ترجمة الرسالة —

حضرة صاحب الدولة والعناية والرأفة والعطف ولي النعم المكرم أفندم .

لقد فهم من التحرير المهور الموجه من محصل قبرص خادمكم أمين أفندي والوارد الى يحيي بك عبدكم احد خدمة دائرة هـذا العاجز بأن خادمكم صاحب العطوفة محمد علي باشا والي مصر الموجود حالياً في جهة الحجاز هاجم (أشقياء) العرب ونال الظفر واستولى على حصني كيلاخ وتربة المتينين وأسر رئيس الأشقياء المعهود (فادي) والرؤساء الذين جرى استرقاق أكثرهم وأحرز الغنائم ، وإنه لإيصال هـــذه البشائر السعيدة بالنصر أوفد الى الاستانة دار السعادة مساعد الدخان أحمد آغا ونفرين من التاتار في سفينة (طوسون قبودان) التي أقلعت من ميناء الاسكندرية ولما كانت الريح معاكسة لجأوا الى ميناء (ليماصول) وأقاموا في القصبة المذكورة وافادوا ما تقدم بيانه وهم بانتظار الريح المؤاتية الملائمـــة لمتابعة السفر . ان هذا الخبر وان يكن شفهياً نرجو أن يكون صحيحاً إن شاء الله . ان تأكيد تفاصيل وصحة هـذا الخبر موقوف على ورود تحريرات الوزير المشار اليه ، ولما كانت الشقة (التحرير) المذكورة تشتمل على الآثار والأخبار البهيجة فقد وضعت ضمن عريضة هـذا العبد العاجز وعرضت على تراب أقدام دولتكم ندعوه تعالى أن يجعل أعـداء الدولة العلية ومريدي الشر لهـا مقهورين أبدياً وعلى الدوام مدحورين ومصابين بالاضمحلال ان شاء الله تعالى بفضل أنظار الحضرة العلية الشاهانية وأن تحصل هـــذه الرفيعة على شرف اطلاع المنظور السامي وعلى كل فإن الأمر والإرادة لحضرة صاحب الدولة والعناية والرأفـــة والعطوفة والمروءة كثير الكرم أفندينا السلطان المعظم .

عبدكم

محمد خسرو قبودان دريا

الوثيقة الثانية

كتاب طوسون الى محمد علي

ـــ ترجمة الرسالة ـــ

حضرة صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة وفي الهمم والدي أفندم .

لقد سبق أن عرضنا لدولتكم وأوضحنا بأن أهالي القرى الواقعة بوادي القصيم التي تبعد عن الدرعية مسافة تقدّر بثمانية قوناقات (مراحل) ، والتي تعرف بأسماء الرس، الخبراء، البكيرية ، حبلان، وشبيبية ، قد دخلوا في حظيرة الطاعة للدولة العلية ، وبينما كنا نستعد للتحرك إلى قرى (عنيزة) و (بريدة) وبقية القرى الصغيرة الواقعـة في الوادي المذكور والتي تبعد مقدار اثنتي عشرة ساعة عن الرس لأخذهـا « وتسخيرها » ، وإذ بالمدعو عبد الله بن سعود يحضر من الدرعية ومعه العدد الوفير من الخيالة والهجانة لإمداد القرى المذكورة وإعانتها وتعزيز أسوارها فأصبحت أكثر متـانة وقدرة على المقاومة ، وقد « تجاسر » بعد ذلك على « التعرض » لقبائل العربان التي تجمّعت حول عبدكم المخلص مظهرة

[illegible]

19630

1/2

دولتلو عنایتلو عطوفتلو [illegible] افندم حضرتلری

[illegible]

الوثيقة ١٩٦٣٠

تا بو دولت مستقل اولدیغی تمام بنام [illegible] دایلرک مخالف شاهانه‌ده قرارت و سرحدلرین صونوع و اطاعت

نحوتی کوستریوب مدرسه [illegible] شرع شریف کلمات و تلفظ و هدایت کتبا السنه عربانه ذوی الحقوق

هرنقدر اعربان شاهی صدور ونه خدمته مأمور اولور ایسه تجویز قصور اتمیوب بذل دستی مقدرت ایده‌جکی

متعهد و بوجهله عهد و میثاق ایتمک اوزره ایکی [illegible] ولی النعمتلری سعادتلو افندیلری [illegible]

مأموریتی مأمور دیگر اوردوی [illegible] ایشبو ماه رجب شریفک یگرمی ایکنجی کونی طرف مخلصیدن [illegible]

اولدیغی انجق شیخ مرقوم عبدالله ابن سعود دخی قرنداشلری و وجوه [illegible] بو صورتده طاعت [illegible]

[illegible] شاهانه‌دن نیاز ایتمشلر ایکن تا ربانه تکرار محاربه‌یه مبادرت اولنمق لازم کلمکله

نهایت برهفته اداره ایده‌جک موجود ذخیره‌مز اولمدیغی جهتله دورمیوب بر طرفه فرار ایتدیکه زمرۀ

ایله کچوب [illegible] محافظه‌ده بعید [illegible] حکم اولنه‌جغی [illegible] فرصت فوت اولنمق

[illegible] نیازلرینه [illegible] مساعده کوسترلدکده معتبرلرندن عبدالعزیز ابن محمد و عبدالله بن ثنیان نام کسنه‌لری

رهین [illegible] تکمیلنه [illegible] واردکه

بونلره رخصت ویرلمک اوزره بالاده ذکر اولنان شروط [illegible] تأکیداً به طرف دولت علیه‌دن

عفو [illegible] نیاز ایتملرینه بناءً [illegible] ذخائرمز نفادکلی [illegible] بوخصوص

حرکت و مدینه منوره‌یه واصل اولدقدن ذکر اولنان [illegible] رهینلر [illegible] و بعنایة الله

رعیه مصالحتی بالاخره سهولت کسب ایلدکدن [illegible] تقریبیله اله کتیرلمسی

جناب مشیر [illegible] [illegible] عرض [illegible]

قدری [illegible] منظور [illegible] فصول مذکوره دائر لازم کلان [illegible] اصابتقرین سامیلری

[illegible] و سعادت [illegible] عنایتلری [illegible] تمنا [illegible]

19630

الصداقة والولاء ، فكان يغتصب جمالهم وأغنامهم تارة ليلاً وأخرى نهاراً ...
وقد بذلنا كثيراً من الجهد والعناية في الدفاع عن هؤلاء ، وبقيت المناوشات مستمرة بيننا لهذه الغاية مدة تتجاوز الشهر ولا تزال حتى الآن غير منقطعة .
وإذا كنا لم نتمكن حتى اليوم من الاستيلاء على تلك القري ، بانتظار ورود الإمدادات فإن مزاعمه ودعاواه (يعني الإمام عبدالله) سوف تظل مجرد أوهام، وسيكون آخر الأمر طعماً للحسام « الشاهنشاهي » هو وجماعته (!!..)

ومهما يكن الأمر ، فقد عرف (عبد الله) أن سلوك طريق العناد .. خطأ وغلط ، فندم على ما فات وطلب العفو عن « أعماله » وأن يصبح بعد الآن معدوداً من رعايا الحضرة السلطانية ، ولذلك استأذن عبدكم في النزول مع بعض الأفراد في مزرعة صغيرة تبعد مقدار ثلاث ساعات من مخيمات جيش عبدكم ، وأرسل نفراً من أتباعه الينا يلتمس « المصالحة »، وبعد إنعام النظر في مراسلاته التحريرية ومكاتباته والاطلاع على ما كان يقرره مبعوثوه رأينا ، في الواقع ، انه (أي الإمام عبد الله) عزم – بعد وفاة والده – على اتخاذ موقف الحياد وعدم التعرض بوجه من الوجوه لأية قبائل او عربان ، ما عدا عربان الدرعية ، وأعلن قبوله بأن تصبح البلاد كلها مستظلة بظل الدولة العلية وتحت جناح عدالتها ، رافعةً لواء الطاعة والخضوع ، وأن يذكر دوماً اسم الذات العلية الشاهانية في كافة المحافل والمنابر والقراءات والأدعية ، وأن يتمسك بهذه الطريقة في المستقبل فلا ينحرف عنها وإنما يلتزم جادة الصلاح والطاعة فلا تدور على الألسنة أية كلمات خلاف تلك التي نصَّ عليها الشرع الشريف والقرآن الحكيم وأن تترك تماماً تلك الألفاظ والعبارات التي يتلفظ بها بعض العربان متحدّين بها المخالفين لهم ...
وقد تعهّد ببذل مساعيه الجدّية في سبيل تنفيذ الأوامر العلية السلطانية والقيام بما تأمر به من خدمات دون أي إهمال أو تقصير .

وبينما كان (عبد الله بن سعود) على وشك إبرام هذا العهد والميثاق (خلال وجود صاحب السعادة خزندار ولي النعم خادمكم أحمد أفندي بمعيتنا ومعه بقية مشيري الجيش وذلك في اليوم الثالث والعشرين من شهر رجب الشريف) وفي

حين كنا بانتظار حضوره ورفاقه لطرفنا من أجل الغاية المذكورة والتماس العفو من بحر مراحم الذات العلية الشاهانية الزاخر ، وإذ بنـا نسمع انه سيعود إلى حركاته التمردية .. فإذا حدث هذا ولزم « قتاله » ، فان مـا هو موجود لدينا من ذخيرة لا يكفي في حالة استئناف الحرب لأكثر من اسبوع على الأكثر ، وفي حالة هربه إلى جهات اخرى فانه سوف لا يكون بالإمكان القبض عليه وأخذه باليد أو الاحتفاظ بالقرى البعيدة بالنظر إلى وضعنا الحاضر ، ولذلك نرى ونلتمس الموافقة على استمرارنا في إظهار رغبتنا في مصا لحته استجابة لطلبه ، وأن يبقى الشخصان الموجودان لدينا وهما المدعوان عبد العزيز بن حمد وعبد الله بن بنيـان وهما من العلمـــاء المعتبرين ، رهينة لدى دولتكم ومأمورين بالإقامة لمدة سنة واحدة ، ومتى انقضت السنة يحل محلهما آخرون كرهـائن ويرخص لهما بالعودة إلى موطنهما . ولما يتأكد أمر التزامهم بالشروط السالفة الذكر ويتوطد إيمانهم الحق ويؤكدون طاعتهم للذات العلية الهمايونية يطلق سراحهم ويتم العفو عنهم .

وجملة القول إننا مصممون ، بعد الحصول على ذخيرة كافية لمدة عشرة أيام ، على مبارحة هذا المكان متجهين إلى المدينة المنورة وفور وصولنا نبادر بإرسال الشخصين المذكورين إلى دولتكم ليبقيـا كرهينة وبعناية الله ستصبح مصلحة الدرعية أكثر سهولة ، وتدبير أمر أخذهم والقبض عليهم أكثر يسراً على هــذه الصورة ، وإننا لندعو حضرة الباري مسهل الأمور ونلتمس عنايته لمساعدتنا على إحكام التدابير اللازمة لقهر المتمردين إذ أن هذا هو غاية الأمل والقصد ! وإننا نرجو أن تحظى عريضتنا هذه بأنظار دولتكم الكريمة ، وأن تتفضلوا بإصدار أوامركم العالية وما ترونه بهذا الصدد ليقوم خادمكم بتنفيذ مقتضيات رغبات دولتكم السامية ونحن لا زلنا على الدوام مفتقرين لفيض توجهاتكم وملتمسين دوام رعايتكم وعنايتكم أفندم .

خاتم طوسون أحمد باشا ٢٧ ٢٣٠

الوثيقة الثالثة

حصار الرس .. وسبب التراجع عنه

كما يروي ابراهيم باشا وقائعه
في رسالة إلى والده محمد علي

(كتب هـــذه الرسالة ابراهيم باشا الى والده ، فأرسلها والده الى السلطان العثماني في استانبول للاطلاع عليها)

— ترجمة الرسالة —

حضرة صاحب الدولة والعناية والمرحمة سبب فيض الوجود ولي نعمتي أفندم.
إن عبد الله بن سعود موجود في قرية تدعى عنيزة من قرى وادي القصيم [١]
وهو ساعٍ لتقوية تلك الأطراف وجمع العربان حول شخصه ، ولما كان الأمر كذلك فإن إقامتنا بهذه الأطراف لم تعد واردة ، بل يقتضي دخولنا إلى قرى وأراضي القصيم وقد حوّلنا بعد الإتكال على الله مركز الجيش، الذي كنا شيدناه

(١) جاء اسم القصيم في الأصل هكذا : وادي قسيم ... واسم عنيزة هكذا : عنزة !!

— أصل الوثيقة الثالثة التركي —

على بعد ثلاث مراحل (قوناقات) ، من الحناكية في اليوم الخامس عشر من شهر شعبان الشريف وتحركنا صوب قلعة الرس الكائنة في الوادي المذكور وقد ‏قُدر لنا أن نصل إلى مقربة من تلك القلعة وجعلناها هدفاً للمدافع مدة خمسة أيام ، وضربنا حصاراً على القلعة المذكورة وهدمنا ثلاثة من أبراجهـــا ، وقسماً من جدرانها ، وأمرنا فصائل المشاة بالهجوم عند الصباح ، وضبطنا أحد الأبراج التي جرى هدمها إلا أن (المقاتلين) الموجودين داخل القلعة كانوا قد جمعوا تحت البرج المذكور أغصان النخيل وأحرقوها ، مما أدّى إلى مضايقة العساكر المشاة الذين احتلوا البرج فحولناهم حالاً إلى الخندق الخارجي وأدخلناهم فيه وهكذا أنقذناهم من هـذا الكرب . وأما المائة والخمسون جندياً الذين كانوا داخل الخندق فلم يخرجوا منه ، بل عادوا إلى المتاريس ، واستمرت المعركة .. فاستشهد أثناء هذه المحاربة نحو أربعين نفراً وجرح ستون أيضاً .

وإذا كنا لحكمة الله تعالى لم نوّفق هذه المرة لاحتلال القلعة وجعلها بأيدينا فإننا بعد ذلك ركزنا المتاريس على خندق القلعة المذكورة عن طريق (قات) ، وبعد أن جرى تنبيه مجموع العساكر المشاة وإخلاء الخندق المذكور رتبنا أمر الزحف والهجوم مرة أخرى وبينما كنا نؤمل دخول القلعة وإذا بابن سعود المدعو (عبد الله) يخرج من عنيزة محل إقامته الواقع على بعد يوم ونصف من قلعة الرس ومعه عدد كبير من الخيالة والهجانة والمشاة والعربان ... فيرسل قسماً كبيراً من هؤلاء ... إلى قرية تدعى حابرة . وبما أنه يوجد في قرية خربة بالقرب من حابرة كمية زائدة من التبن والقش كنت أرسل يومياً أربعين نفراً من الخيالة لحراسة الجمال ولجلب التبن غير أن (النجديين) المذكورين الذين حضروا إلى قرية حابرة كانوا يقصدون الإغارة على قواتنا ونهب جمالنا وبوصول تلك القوة المؤلفة من أربعين نفراً ترافق الجمال شرعوا بالهجوم عليهم . وحالما علمنا بما وقع تركنا أمر الزحف علىالقلعة ، وبعد أخذ عدد من الخيالة وصلت لامدادهم . .
وبوصولي كان قسم من النجديين المنهزمين يستعدون للهرب فقطعنا عليهم الطريق لمنعهم من الخلاص وحملنا عليهم فقتل مائة وخمسون من أفراد مشاتهم وجرح

عدد من خيالتهم أيضاً . وبقية السيوف ارتدوا إلى الوراء وانهزموا . واستشهد منا أيضاً بعض الخيالة وجرح بعضهم ، وعدنا في اليوم المذكور نفسه دون تتبع (النجديين) ووصلنا إلى مراكز الجيش الكائنة بالقرب من القلعة وشرعنا حالاً بالحصار . وبما أن هذه القلعة مبنية بالحجارة الصغيرة والتراب وهي على درجة عاليـة من المتانة والتركيز وكل من جدران أبراجها ذو ثلاث طبقات ولذلك فانه ما لم تضرب كل طبقة منها بخمسين أو ستين قذيفة مدفع لا يمكن هدمها ، وقد تجمع داخلها عدد كبير من العربان ، إلا أنني بفضل عناية وعون الله القدير وبحسن توجه حضرة صاحب الشوكة والقدرة والمهابة مليكنا وأفندينا وببركات دعائكم الأبوي آمل أن أُوفق لفتحها وتسخيرها وسأوافيكم إن شاء الله ببشائر عودتي مظفراً منصوراً بحمد الله تعالى من المحاربة المذكورة . وللتشرف بعرض ما تقدم حررت هذه العريضة ورفعتها إلى مقامكم العالي مع عبدكم عثمان آغا أحد الأغوات الذي تسلمها باليد . وقد سبق شريف علمكم بالأحوال السائرة وما بقي من الأمور وذلك من كتاب هذا العاجز ومن تقارير خدامكم رجالي الذين عرضوا على دولتكم التفصيلات الواضحة ، وإنني بحاجة دوماً إلى حسن توجه الحضرة الأبوية وإلى دعوات ولي النعم الخيرية ، وعلى كل حال فإن الأمر لمن له الأمر أفندم .

۲۰ ۲۳۲ **خاتم ابراهيم باشا**

الوثيقة الثالثة عشرة

فتح شـــقرا

كما يصفه ابراهيم باشا
في رسالة الى والده محمد علي باشا

ــ ترجمة الرسالة ــ

صاحب الدولة والرحمة مولاي ولي نعمتي .

أدعو الله الذي لا يُسأل عما يفعل أن يديم أيامكم ويطيل عمركم وإقبالكم وأن يجعل ظلكم فيئاً دائمـاً ، مؤيداً لمفرق عبدكم العديم الرياء موفقاً إياه الى ما فيه استدرار رضاكم المرتضى من موافق الأعمال . آمين .

وبعد .. فيعرض عبدكم الدائم الولاء أنـــه بتاريخ ١١ ربيـع الأول الجاري (١٢٣٣ هـ) قد حوصرت قلعة (الشقراء) وشرع في محاربة .. الوهابيين الذين في الأسوار، وفي نحو العشرين برجاً المبنية جميعها حول الجوانب الأربعة للحدائق التي بخارج القلعة المنحوسة .. واستمر القتال بالمدافع والبنادق يوماً وليلة، فهدم محل في السور، ولم يتنفس الصبح إلا وقد أمر عبيدكم عساكر الموحدين[1] فخرجوا

(١) الموحدون صفة للمقاتلين النجديين ، ولكن ابراهيم باشا أطلقها على جنوده هو !..

من متاريسهم منقضين على من كان في البروج وفي خلال الحدائق ... فمزقوهم وهزموهم بعناية الله تعالى ونفحات ولي النعم الطاهرة – كذا – واستولوا على أسوارهم وبروجهم قاتلين منهم عـدداً كبيراً ، ثم هجموا على المتحصنين .. في السور الآخر ، المُنشأ تجـــاه نفس القلعة الأصلية التي بالمدينة المذكورة وفي أبراجها فتمّ أيضاً فتح هذا السور والاستيلاء على أبراجه ، كما وضع سيف القتل والعقاب في عـــدد من الرقاب ، وعلى الفور قربت المدافع من جدار القلعة المنحوسة .. بحيث صارت منه قيد ذراع واستمر القذف والرمي ثلاثـــة أيام وثلاث ليال حتى تهدم شطر من السور وأسفر عن البيوت نفسها ظاهرة متكشفة ، فلما تقوضت منازلهم.. وخربت وانصرم حبل رجائهم في النجاة ضجوا بالعويل والاستغاثة أن « الأمان يا إبراهيم ، إرحم عيالنا واعف عما بدا من تقصيرنا » ، هكذا التمسوا الأمان ، وجاء نفر من ذوي الكلمة المسموعة من شيوخهم الى الى مكان عبدكم فآمنتهم على شرط أن يقدموا مدافعهم الخمسة التي في القلعة وأن يسلموا كافـــة الأسلحة التي يحملها أربعمائة مقاتل من أعوان (عبد الله) الذين جاؤوا لإمدادهم ، وعلى أن يعاهدوا أن يبيعوا الجنود ما هو عندهم من ميرة ، على هـــذه الشروط مُنحوا الأمان ، فاخذ سلاحهم غنيمة لعبيدكم العساكر ، وأُطلق سبيل اولئك الأعوان المقهورين .

هذا وسيكون نهوضنا ومسيرنا على قلعة الدرعية بعد تاريخ عريضتي هـذه بعشرة أيام ، وإني قـد سطرت عريضتي الفائضة بفروض ثنائي ، مضمناً إياها البشارة بهذه الفتوح العظيمة ، وباعثاً بهـا مع عبدكم حسين آغا ، حاجبي ، الى قدمي ولي النعم ...

سيدي وولي نعمتي صاحب الدولة ،

إن على مسافة خمس عشرة ساعة من الدرعية ، إحدى عشرة قرية يطلق عليها اسم (وادي سدير) ، وإن جميع شيوخ هذه القرى قـد أوفدوا رجالهم الى عبدكم طالبين الأمان ، مبدين استعدادهم للخضوع لخادمكم والدخول في حوزة حكمه ، ومن ثم لا يكون القتال منظوراً في غير الدرعية .

غير أن فتح الدرعية وإحلال النظام فيها منوط بثلاثة أمور :
أولها : النقود .
ثانيها : مقذوفات المدافع (قبوذ بوارلفي) .
ثالثها : الجنود المشاة .

فمع أن لدى عبدكم مقذوفات كثيرة ومبالغ من النقود وافرة ، إلا أن استدامة ورودها وتواليه لمن مستحسن الامور وأجلها خطراً، لأن قاعدة الحرب معلومة حق العلم لدى مولاي صاحب الدولة ، فقد سمع عبدكم أن من كان ظهره وخلفه متيناً كان ختام مصلحته أدنى الى السهولة واليسر . وكذلك اصبحت المقذوفات والنقود والجنود المشاة بمثابة القلب والقوة من عبدكم إذ لولا التعويل على المدافع في معركة الشقراء المذكورة ايضاً لما كان شك في هلاك كثير الكثير من الجنود المشاة ، وللزم المشي لاقتحام القلعة نفسها ، وهكذا اضطلعت المدافع بهذا العبء وحملته ، فكان قتلانا وجرحانا في هجومنا الأول اربعين جندياً ، في حين قتل وأعدم من طائفة الوهابيين نحو مائة وخمسين .

هذا ولم يأت الى خادمكم لغاية تاريخ عريضته أي من عبديكم (احمد آغا ابو شنب) و (بهرام آغا) ، وهما رئيسا جنود المشاة اللذان أمرا بالسفر من مصر ، مع أن هذا أوان استخدام المشاة ..

فمتى أحاط شامل علمكم بهذه الحال فعسى أن تتفضلوا فتستجيبوا لمسؤول عبدكم العاجز بأن لا تقطعوا عنه النقود والمقذوفات وبأن توصوا رئيسي المشاة المندوبين للسفر بالاسراع في قدومهما إليّ .

وعلى كل حال الأمر أمركم والمشيئة مشيئتكم .

في ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣ — ٢٥ يناير ١٨١٨

ختم : سلام على ابراهيم



الخطأ والصواب

الفهرس

الخطــأ . . والصــواب

الصفحة	خطـأ	الصــواب
٢٥٦	مجالا للمضارات	مجالا للضاربات
٣١١	عن تعالبها	عن ثعالبها
٣٩١	جيئة وذهاب	جيئة وذهابا
٣٩٦	فأمره	فاقره
٣٩٧	في ضرما أيام	في ضرما أياما
٤٠٠	فأخذو جميع	فاخذوا جميع
٤٠٢	خيسن نصر الله	خيس نصر الله
٤٠٤	ثم ينحدرا	ثم ينحدر
٤٠٨	وتزهوا بالمباني	وتزهو بالمباني
٤٠٨	ومد وفير و	وأن تغص
٤٠٨	وتطفى	و تطغى
٤٠٩	على هذا والتقدير	على هذا التقدير
٤١٥	إلى أن سبقت البقية	إلى أن سيقت البقية
٤١٩	وليبدلنهم بعد	وليبدلنهم من بعد
٤٢٠	وشركسة	وشراكسة
٤٢٣	فاخرجوهم منا	فاخرجوهم منها
٤٢٧	ديرنة	ديدنة
٤٢٩	لم يكونوا نتيجة	لم يكونوا متعاطفين
٤٣٨	إذا سمعو العوجا	إذا سمعوا العوجا
٤٤١	أصير قام أصير	أصيد قام أصيد
٤٤٤	من صرف إنيا	من صرف النيا

الصفحة	خطــأ	الصـــواب
٤٥٦	آل مسير	آل مسيند
٤٦٠	وهي وقراها	هي وقراها
٤٦٠	ومربوطة بها أيضا	ومربوطة أيضا
٤٦١	وتزدان به ورياضها	وتزدان به رياضها
٤٦١	وزدحام	وازدحام
	اسر لم تذكر	آل جدعان ، وآل عبد الرحمن وآل حامد

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	
مقدمة بقلم المؤلف	٥
مقدمة بقلم الأَستاذ حسن فتح الباب	١٢
الباب الأَول	
نظرة إلى اليمامة	٢٢
الباب الثاني	
الدرعية يبرز اسمها في منتصف القرن التاسع الهجري	٤٤
الوادي الخصيب	٥٨
الباب الثالث	
وقفات تاريخية بين يدي نشأَة الدرعية ...	٦٣
الباب الرابع	
آل سعود	٧٩

الموضوع | الصفحة

(أ) نسبهم ... ...
(ب) قبل دعوة ابن عبد الوهاب ... ...
(ج) بين يدي الدعوة ... ...

الباب الخامس

الفصل الأول

الحياة العلمية قبل دعوة الشيخ ٩٥

الفصل الثاني

محمد بن عبد الوهاب
نشأته ، تعلمه ، إبتداء دعوته ، أعداء
الدعوة ١٠٠

الفصل الثالث

لقـاء الدرعية ١١٠
التغيرات بالدرعية ١١٣
ردود الفعل أمام حركة الجهاد ١١٦

الفصل الرابع

عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١٢١

الموضوع الصفحة

التوحيد في دعوة الشيخ ١٢٤
مسائل لج فيها الخصوم ١٣١
التوسل والشفاعة ١٣٣
الشفاعة ودعاء الأولياء ١٣٥
القتال والتكفير ١٣٦

الفصل الخامس

ما قاله المنصفون عن هذه الدعوة ١٣٩

الباب السادس

الفصل الأول

محمد بن سعود ١٦١

الفصل الثاني

عبد العزيز بن محمد بن سعود ١٧٥

الفصل الثالث

سعود بن عبد العزيز (الكبير) ١٩٠
من أهم الأحداث التى وقعت في عهده ٢٠٣

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

عبد الله بن سعود ٢١٧

وهكذا أخذ عبد الله بن سعود ٢٢٢

الحقيقة يبرزها قلم حُرٌ ٢٢٩

فصـــل

أَحوال المجتمعات الإسلامية في عصر العثمانيين

عند ظهور الدعوة السلفية ٢٣١

المبحث الأَول :

فساد النظام السياسى ٢٣٣

المبحث الثاني :

إستشراء المظالم ٢٤٠

المبحث الثالث :

إضطراب الأَمن وأَنتشار الموبقات ٢٤٣

المبحث الرابع :

تدهور الأَوضاع المالية والاقتصادية ٢٤٨

الموضوع | الصفحة

الغش والأكتناز ٢٥٢
المضاربة بالنقود ٢٥٦

المبحث الخامس :
فساد النظام القضائي ٢٦٢

المبحث السادس :
التخلف العلمي والثقافي ٢٧١
العلمـــاء ٢٧٤
الإعراض عن الحضارة الإسلامية ٢٧٨

الباب السابع
حروب محمد علي في الجزيرة العربية ٢٨٠

الفصل الأول :
ملامح شخصية الجندي العثماني ٢٩٠
فرض المغارم وجبايتها غصباً ٢٩٣
العدوان وانتهاك المحرمات والشرائع ٢٩٨
إهدار كرامة العلماء والفقهاء ٣٠٢
جبناء في مواجهة العدو ٣٠٥

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني :

شخصية محمد علي صنيعة العثمانيين ٣١٥

الفصل الثالث :

حقد العثمانيين على السلفيين دعوة ودولة ... ٣٢٩

الفصل الرابع :

إستخدام الباب العالي محمد علي مخلبا لقمع الدعوة ٣٣٤

عُرس الدم بين يدي حملات محمد علي... ... ٣٣٦

الفصل الخامس :

حملات محمد علي على الحجاز ٣٣٨

الاستيلاء على ينبع والزحف على المدينة ٣٤٢

القتال حول المدينة ٣٤٣

حملة محمد علي الثانية ٣٤٧

الحملة الثالثة ٣٤٨

الفصل السادس :

نضال الدرعية ٣٤٩

الموضوع	الصفحة
خروج عبد الله بن سعود لقتال إبراهيم باشا ...	٣٥٢
معركة شقراء	٣٥٦
معركة ضرماء	٣٥٩
معارك الدرعية	٣٦٢
وقعت غبيراء قرب الدرعية	٣٦٦
وقعت سمحة قرب الدرعية	٣٦٧
إحكام محاجي الدرعية	٣٦٩
إضطرام القتال حول الدرعية	٣٧٤
معركتا شعيب قليقل وعرقة	٣٧٤
امتداد القتال إلى جميع الجهات	٣٧٥
اشتعال النار في مخازن ذخيرة العدو	٣٧٦
مصرع بطل مغوار	٣٧٧
توالي المعارك	٣٧٨
الوشاية من ضعاف النفوس	٣٧٩
صلابة أهل السهل والبجيري	٣٨٢
عرض المصالحة وفشل المفاوضات الأولى	٤٨٣
عقد الصلح بعد سقوط آخر موقع	٣٨٤
قتلى العثمانيين	٣٨٥

الموضوع	الصفحة
شهداء الدرعية في الحرب	٣٨٦
تعذيب عالم جليل ومصرع البطل عبد الله بن سعود	٣٨٧
شهداء النواحي وشهداء أعدمهم الطاغية	٣٩٠
عهد الضياع واستشراء الفتن	٣٩١
محمد بن مشاري بن معمر	٣٩٣
ابن معمر يعود	٣٩٦
تركى بن عبد الله	٣٩٧
المجزرة الرهيبة والغوغائية	٣٩٩
معالم الدرعية وأعلامها	٤٠١
حاضرة جزيرة العرب	٤٠٨
أنصار الحق ومريدوه	٤١٥
العلم والعلماء في الدرعية	٤٢٧
في رثاء الدرعية	٤٣٤
أهل الدار	٤٥٣
حاضرة الدرعية	٤٥٩

وثائق عن حروب الدرعية

الموضوع	الصفحة
الوثيقة الرابعة	١
الوثيقة الخامسة	٥
الوثيقة السادسة	١٠
الوثيقة التاسعة	١٤
الوثيقة الثانية عشرة	١٧

محاكمات استانبول

محاضر التحقيق	٢٠
مصرع الإمام الشهيد	٢٦
كتاب محمد على إلى السلطان	٢٨
الرسالة الثانية من عبد الله بن سعود إلى محمد على	٣١
الرسالة الثالثة من الإمام عبد الله بن سعود إلى محمد على	٣٤
رسالة السقاف	٣٧
رسالة محمد خسرو	٣٨
كتاب طوسون إلى محمد علي	٤٠
حصار الرس كما يروي إبراهيم باشا	٤٥
فتح شقراء كما يصفه إبراهيم باشا	٤٩
صــور معــالم الدرعيــة واعلامها	